دكتور أحمد شلبي
دكتوراه من جامعة كمبردج
أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية دار العلوم – جامعة القاهرة

مقارنة الأديان

٣- الإسلام

الطبعة الثانية (١٩٦٥)
مع تعديلات وإضافات مهمة

كتب للمؤلف

باللغة العربية :

١ — كيف تكتب بحثاً أو رسالة :

دراسة منهجية لكتابة الأبحاث وإعداد رسائل الماجستير والدكتوراه .

(الطبعة الرابعة — مكتبة النهضة المصرية)

تاريخ الفكر الإسلامى

سلسلة من الكتب تصوّر فى عمق وإحاطة « تاريخ الفكر الإسلامى » فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة ، وتشمل :

٢ — الفكر الإسلامى : منابعه وآثاره

(مترجم عن الإنجليزية) . (مكتبة الأنجلو المصرية)

٣ — السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى :

دراسة شاملة للسياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى مع المقارنة بالاتجاهات السياسية والاقتصادية الحديثة ، ومع دراسة علمية مؤيدة بالوثائق عن « الاشتراكية العربية فى الميزان الإسلامى » . (مكتبة النهضة المصرية)

٤ — تاريخ التربية الإسلامية :

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين ، ولمناهج التعليم وأمكنته ، ولحالة المدرسين المالية والاجتماعية ، وللإجازات العلمية ، والعقوبات ، والجوائز والمكافآت ، وملابس المدرسين ، ونقابة المعلمين ... ... وتكافؤ الفرص بين التلاميذ ، وتوجيههم حسب مواهبهم ... وغير ذلك من الدراسات التربوية الرائعة .

(الطبعة الثالثة — مكتبة النهضة المصرية)

هذا الكتاب مترجم للغة الأوردية : ترجمه : الأستاذ محمد حسين خان زبيرى

نشره : The Institute of Islamic Culture - Karachi

٥ — المجتمع الإسلامى :

أسس تكوينه — أسباب تدهوره — الطريق إلى إصلاحه .

(الطبعة الثانية — مكتبة النهضة المصرية)

هذا الكتاب مترجم للغة الأوردية أيضاً

٦ — الحياة الاجتماعية فى التفكير الإسلامى

(تحت الطبع)

التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

دراسة تحليلية شاملة للتاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، من العرب قبل الاسلام حتى العهد الحاضر لجميع الأقطار الإسلامية .

(الناشر : مكتبة النهضة المصرية)

ظهر منه الأجزاء التالية :

٧ ـ الجزء الأول :

العرب قبل الإسلام – الرسول : حياته وأعماله – الخلفاء الراشدون – فلسفة الدعوة الإسلامية . (الطبعة الثالثة)

٨ ـ الجزء الثانى :

الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية فى عهدها .

٩ ـ الجزء الثالث :

العصر العباسى الأول ، ودور المسلمين خلاله فى خدمة الثقافة الإسلامية والعالمية .

(الطبعة الثانية)

١٠ ـ الجزء الرابع :

من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر عن :

الأندلس – المغرب – الجزائر – تونس – ليبيا – السنوسية : مبادئها وتاريخها .

١١ ـ الجزء الخامس :

من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر عن :

مصر وسوريا – الحروب الصليبية – تركيا (الإمبراطورية العثمانية) .

١٢ ـ الجزء السادس :

من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر عن :

موريتانيا – مالى – السنغال – غينيا – النيجر – نيجيريا – السودان – الصومال – تنجانيقا وزنجبار .

(الأجزاء الباقية ستظهر تباعاً)

←

مقارنة الأديان

سلســـلة من الكتب فى مقارنة الأديان ، تتناول أهم الأديان السماوية والوضعية ، وتشمل :

١٣ — اليهودية (تحت الطبع)
١٤ — المسيحية وتطورها . (الطبعة الثانية)
١٥ — الإســـلام . (الطبعة الثانية) (مكتبة النهضة المصرية)
١٦ — أديان الهنـــد الكبرى :
الهندوسية — الجينية — البوذية .

ترجم كتابا « المسيحية » و « الإسلام » للغتين الأوردية والإنجليزية

باللغة الانجليزية :

١٧ — History of Muslim Education (دار الكشاف ببيروت والقاهرة)

باللغة الاندونيسية :

١٨ — Negara dan Pemerintahan dalam Islam : Nabhan (Surabaja)
١٩ — Masjarakat Islam
٢٠ — Hukum Islam
٢١ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam I
٢٢ — « « « « II
٢٣ — « « « « III
٢٤ — Perbandingan Agama (Masihi)
٢٥ — « « (Islam)
٢٦ — Sedjarah Pendidikan Islam
٢٧ — Politik dam Ekonomi Dalan Islam
(١٩–٢٧: Djajamurni (Djakarta))
٢٨ — Perkembangan Keagamaan dalam Islam dan Masehi — Sjamsijah (solo)

كتب نفدت ولن يعاد طبعها :

٢٩ — الحكومة والدولة فى الإسلام :
أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة .
٣٠ — فى قصور الخلفاء العباسيين :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٩ من هذه القائمة .

محتويات الكتاب

صفحة

مقدمة الطبعة الثانية

يا رب . . . لك شكر المدينِ لك ، المعترفِ بفضلك ، الذاكرِ الذى لا ينسى عونك ، والشاكرِ الذى غمرته نعمُك .

يا رب . . . أنت الذى وجَّهتنى لهذه الدراسة ، وقُدْتَنى وأنا أكافح فى خضمِّها ، وبعثتَ شعاعاً من نورك فأنار لى السبيل ، فإذا كل غامض يتَبين ، وكل مُغْلَق ينبلج ، وكل صعب يهون .

يا رب . . . لقد سرتُ فى الطريق الذى فتَحَتْه لى عنايتُك ، وكان تأييدك يسير معى ، فتخطيتُ العقبات الجسام ، ورأيت جهدى يثمر ، وعملى يكبر ، فصَدَرَ الجزء بعد الجزء فى هذه السلسلة ، وأقبل الناس عليها إقبالا جعلنى أحس بعظم المسئولية فأواصل الجهد ، وأحس بكبير فضلك فأكرر الثناء والاعتراف بالجميل .

يا رب . . . . مزيداً من العون أبذله لإرضائك ، ومزيداً من التوفيق يدفعنى لأعمق الشكر والثناء .

* * *

وهذه الطبعة تزدان بكثير من التحقيقات المهمة ، ومن محاسنها :

١ – أنها تظهر وقد صدر من سلسلة « مقارنة الأديان » ثلاثة أجزاء عن : المسيحية – الإسلام – أديان الهند الكبرى (الهندوسية – الجينية – البوذية) ، وسيظهر حالا إن شاء الله الجزء الخاص باليهودية ، وهو جزء حافل بأعمق الدراسات والأفكار والأسرار .

٢ ـ وأنه أضيف لها دراسة عميقة عن « الرق وموقف الإسلام منه » لتصحيح اتهام طالما ضلّ به أعداء الإسلام .

٣ ـ وقد أصبح علم « مقارنة الأديان » من أبرز الدراسات بكلية الشريعة بجامعة الأزهر ، في تطورها الجديد ، وكان من دواعي اغتباطي أن أُسْنِد إليّ تدريسه ، فشهدت إقبال الطلاب على هذا العلم وحرصَهم عليه .

٤ ـ وبدأتْ هذه السلسلة تترجم إلى عدة لغات ، ليعم بها النفع .

يا رب . . . إني أستعرض هذه المنن ، فلا أملك إزاءها إلا شكر واهب النعم ، وإلا الدعاء أن تظل معنا عنايته وتوفيقه .

١٦ من ديسمبر سنة ١٩٦٤

دكتور أحمد شلبي

مقدمة الطبعة الأولى

أوفدتنى جامعة القاهرة والمؤتمر الإسلامى أستاذاً للدراسات الإسلامية بجامعة إندونيسيا ، ثم أسند إلىّ منصب « مدير المركز الثقافى للجمهورية العربية المتحدة بجاكرتا » ، ومنذ نزلتُ الأرض الخضراء (إندونيسيا) فى يوليو سنة ١٩٥٥ بدأت أدرس البيئة التى حللت بها لأتعرف مطالبها ، وسرعان ما وجدت مشكلتين كبيرتين تتطلبان حلا سريعاً ، وأدركت أن نجاحى فى عملى يتوقف على التغلب عليهما ، وهاتان المشكلتان هما :

١ ــ تعليم اللغة العربية لغير العرب .

٢ ــ تقديم الإسلام لغير المسلمين .

ويبدو أننا فى العالم العربى لم نهتم قط ، أو على أحسن الظنون لم نهتم اهتماماً كافياً بهاتين المشكلتين ، فقد اتجهتْ عناية المربين إلى تعليم اللغة العربية لأطفالنا العرب فى مدارسنا العربية ، فظهرت ولا تزال تظهر طرق متعددة لذلك ، أما تعليم اللغة العربية لغير العرب فلم ينل من عناية الباحثين ما يستحق الذكر ، وكان الطالب من الباكستان أو إندونيسيا أو إفريقية يأتى للقاهرة ليتعلم اللغة العربية ، فلا يجد مناصاً من أن يلتحق بالأزهر أو بكلية دار العلوم ، حيث يجلس مع الطلبة العرب ، ويتعلم معهم ألفية ابن مالك والخضرى والسعد فى البلاغة وما ماثلها ، فإذا عاد لبلاده أخذ يعلِّم اللغة العربية كما تعلمها ، فلجأ إلى ألفية ابن مالك وإلى الخضرى ... ، وهيهات أن يجد غيرُ العرب فى مثل هذه الكتب ما يشفى الغلة أو يُعلِّم لغة القرآن .

هذا من جهة اللغة العربية ، ومن جهة الإسلام فقد وقف الأزهر حيال ذلك منبرا عملاقاً ، حمل عبء الثقافة الإسلامية أكثر من ألف

عام ، ولكن الأزهر كان كما لا يزال حتى الآن موئلا للمسلمين ، فليس فيه طالب واحد غير مسلم ، وكان المسلم يَرِدُ إليه ليتلقى فيه علوم التفسير والحديث والفقه وما ماثلها ، فاتّجاه الأزهر هو تقديم الإسلام للمسلمين ، بل قل إنه تخصّص فى تقديم الإسلام للمسلمين العرب منذ وصد أبوابَه فى وجه اللغات الأجنبية ، ولم يضع أساتذةُ الأزهر وسيلةً لتقديم الإسلام لملايين اللادينيين أو لغير المسلمين من أتباع الديانات الأخرى[١] .

ذلك بإيجاز هو الوضع الذى واجهتُه عندما نزلت اندونيسيا ، وكان علىّ أن أضع – بقدر طاقتى – الدواء لهذا الداء ، فألّفت لتعليم اللغة العربية لغير العرب كتبا لقيت كثيراً من الرواج وأسدت كثيراً من الخير لسكان اندونيسيا العزيزة ، واتجهتُ بكل حولى إلى ديننا الحنيف أبحث وأكتب رجاء أن أقدمه إلى الملايين من سكان الشرق الأقصى عامة وسكان إندونيسيا بصفة خاصة ، فقد قابلت – بجانب المسلمين المثقفين هناك – ملايين البشر الذين اعتنقوا الإسلام اعتناقاً سطحياً دون أن يتعمقوا فيه ، أو وقفوا أمامه مترددين يريدون أن يعرفوه ولا يجدون إليه السبيل ، ومن أجل هذا كتبت مجموعة من الكتب فى التربية الإسلامية والحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامى والمجتمع الإسلامى وغير ذلك من الأبحاث الإسلامية .

---

(١) صدر قانون جديد بتطوير الأزهر وجعله جامعة تشمل كل فروع الثقافات ، وهو قانون جدير بالتقدير والغبطة ، ونحن نرجو صادقين أن يشمل هـذا التطوير مباحث الأزهر الرئيسية وهى اللغة العربية والدراسات الإسـلامية ، فلا شك أن دراسة هذين الموضوعين الكبيرين بالأزهر تحتاج إلى عناية بل قل ثورة تزيل القديم الواهى وتشيد على أثره نظما جديدة تتناسب مع أهمية هذين الموضوعين ومع المسئولية الكبرى التى تحملها جمهوريتنا الفتيـة فى عهدها الجديد .

وكنت فى نفس الوقت معنيًّا بإخراج كتاب « المسيحية » من سلسلة مقارنة الأديان » ، أردت به أن أعرِّف بالمسيحية الحقيقية ، وما أدخلته عليها الأجيال من انحراف ، حتى صارت إلى وضعها الحالى ، لأوقف بذلك نشاط المبشرين فى تلك البقاع ، ولما صدر هذا الكتاب (المسيحية) لقى إقبالا رائعاً ، وأدَّى مهمته خير أداء ، فرغب إلىَّ كثيرون أن أخْرِج فى سلسلة مقارنة الأديان كتابا عن الإسلام ، يشمل أهم مباحثه واتجاهاته فى تركيز ودقة .

وبدأت أفكر فى الموضوع . . .

وفى خلال التفكير أخذت أقرأ ما كتب عن الإسلام فى المراجع التى عُنِيَتْ بمقارنة الأديان ، وهى مراجع قليلة ، وأكثرها من وضع الغربيين ، ومن أهم ما قرأت فى هذا الموضوع :

Berry : Religions of the World.

William Patoun : Great Religions of the World.

Encyclopaedia of Religions and Ethics.

وقد بدا لى من القراءة فى هذا الموضوع أن أغلب ما دوَّنه الغربيون عن الإسلام مجافٍ للحق ، وأكثره نتيجة لصدأ تراكم على عيونهم فعمَّى عليهم الإسلام وجعلهم يحقدون عليه ، وينسبون له ألوان النقائص ، ويتلمسون فى مسائله العيوب .

وعُدت أبحث فى المراجع العربية فوجدتها قليلة أو نادرة ؛ فقد اتجه المسلمون منذ أقدم عصورهم كما قلنا آنفاً إلى العناية بالفقه وأصوله ، والحديث ومصطلحه ، وتفسير القرآن والاتجاهات فيه ، والتوحيد والمنطق ، وعلوم اللغة ، ولم يهتموا اهتماماً ملحوظاً بكتابة كتاب عن الإسلام يشمل مبادئه وأهم مسائله مع مقارنة بعضها بنظائرها فى الأديان الأخرى .

وقد دفعني هذا إلى كتابة كتاب عن الإسلام لعله يسهم مع أمثاله من الكتب التي طرقت هذا الباب في إزالة الصدأ عن العيون ، وفي حسن القيادة والتوجيه ، فاعتقادي أن هذا الموضوع ينبغي أن يكون في مطلع الدراسات الإسلامية وأساساً من أسسها ، ثم تجيء بعده الموضوعات سالفة الذكر عن نظم الإسلام وفقهه وتشريعه .

وبدأت أعمل ، وكنت أظن أول الأمر أن مباحث هذا الكتاب ستُقتبس من كتبي التي أشرت إليها آنفاً ، ولكن سرعان ما أدركت أن كتاباً كهذا لا بدَّ فيه من جديد لم يسبق لي أن كتبته في كتبي السابقة ، إذ أن هذه الكتب لم تشمل كل ما يلزم إيراده في كتاب عن « الإسلام » في موضوع مقارنة الأديان ، فأخذت أكتب الموضوعات الجديدة كموضوع « الله التفكير الإسلامي » و« النبوة » و« دعوة في الميزان » و « المرأة » و« الرقُّ وموقف الإسلام منه » . . . كما بدأت أختصر ما سبق أن كتبته بإفاضة كنظام الحكومة في التفكير الإسلامي وكالنظام الاقتصادي في الإسلام . . . وجاء هذا الكتاب نتيجة هذا الجهد .

وأشهد لقد حاولت بقوة وثبات أن أجعل هذا البحث علمياً لادينياً ، أي أن أجعله غير متأثر بعاطفتي واعتناقي لهذا الدين ، وسرت فيه على النحو الذي اتبعته في بحث الأديان التي أتممت بحثها ، فكنت أقرأ المراجع الأصيلة وأجمع المادة منها وأعرضها دون تحيز . فإن رأى القارئ ما يظنه مخالفا هذا ، أي إن رأى ثناء وتقديراً فليدرك أن الحقائق والمقدمات كثيراً ما تقود الى الثناء والتقدير ، فإذا قلت مثلا إن الإسلام انتشر بين جماعات مختلفة اللون واللغة والثقافة بسرعة فائقة لسهولة مبادئه ، فتلك حقيقة من الحقائق التي لم ينكرها أحد ، وإذا مجَّدْتُ القول بوحدانية الله فلأن أي باحث عالم لا بد أن يميل للتوحيد ويحتقر التعدد والأصنام ، وهكذا ، ولم يكن الطعن

قط هدفاً لكاتب يحترم قلمه ويحترم نفسه ، فالهدف هو الحقيقة وحدها ، فإذا عثر عليها الكاتب أعلنها فى سرور وغبطة ، وعلق عليها بما تستحقه من ثناء وتأييد ، أو من معارضة وتفنيد .

وعلى كل حال فتلك المحاولة — محاولة البحث العلمى دون تحيز — كانت هدفى منذ بدأت العمل حتى أتممته ، وأرجو أن تكون هذه المحاولة قد نجحت لأنه قد يشق على الإنسان أن يخلع نفسه من عقيدته ، ولكنى على كل حال لم أكتب هذا الكتاب للدفاع عن الإسلام ، وإنما كتبته بحثاً علمياً كرفاقه من الأجزاء الأخرى فى هذه السلسلة .

* * *

وجدير بنا أن نوجه الآن جهداً كبيرا لشرح الإسلام فى عهد النور الذى أطل على العالم الإسلامى ، وفى عهد الاضطراب الذى تجتازه الإنسانية فى الوقت الحاضر . والذى نعتقده أن الإسلام فقط هو الذى يحمل الدواء لما أصاب الإنسانية من مشكلات وآلام ، لقد بدأتْ رسالة محمد — كما ستوضح فيما بعد — وكانت مدنية العالم على وشك التفكك والانحلال ، فأنقذتها هذه الرسالة من دمار محقق ، والآن ، نجد التاريخ يعيد نفسه ، فقُوَى الشر تتحفز للقضاء على الحضارة الإنسانية التى استنفدت ألواناً ضخمة من الجهود لإقامة صرحها ، فلنقدم رسالة محمد مرة أخرى لعلها تنقذ العالم الآن كما أنقذته من قبل .

والإقبال على الإسلام فى العهد الحاضر يقوِّى الاعتقاد أن الإسلام دين المستقبل ، وهذه حقيقة يدركها كل باحث فى انتشار الأديان ، فالذى لاشك فيه أن جهود المبشرين بالدين المسيحى أقرب إلى الفشل ، إذ أن التكاليف التى يتكلفها هؤلاء الدعاة باهظة لا تناسب ما يحصلون عليه من نتائج ، بيد أن الدين الإسلامى ينتشر ويزدهر دون أن نعرف دعاته ،

ودون أن تتكتل جهود لخدمته ، وقد انتشر الإسلام فى عهد الظلام فما بالك بعهد النور ، ومن الواضح أن الإسلام لا ينتشر فقط فى آسيا وإفريقية ، ولكنه أيضا يشق طريقه فى معاقل المسيحية بأوربا وأمريكا .

ويطيب لبعض الناس أن يقتبسوا إحصائيات عن أتباع الديانات المختلفة ، ونقلا عن The World Almanac, U.S A. تبـــدو الديانات الخمسة الكبرى وأتباعها كما يلى :

١ ـ المسيحيون ٦٨٢ر٤٠٠ر٠٠٠

٢ ـ الكنفوشيون ٣٥٠ر٦٠٠ر٠٠٠

٣ ـ الهندوس ٢٣٠ر١٥٠ر٠٠٠

٤ ـ المسلمون ٢٠٩ر٠٢٠ر٠٠٠

٥ ـ البوذيون ١٥٠ر١٨٠ر٠٠٠

وهذه الإحصائية واضحة الخطأ من عدة جهات ، ولولا الاتجاه لاحترام الأبحاث العلمية لقلنا إن هذا الخطأ متعمد بالنسبة للإسلام ، ولكنا سنحاول أن نصحح هذه الإحصائية معتمدين على باحث أمريكى أيضا حتى لا نُتَّهَمَ بالمبالغة ؛ والمرجع الذى سنعتمد عليه مرجع حديث ، هو أطلس التاريخ الإسلامى الذى وضعه Harry W. Hazard وفيه يقرر أن المسلمين فى العهد الحاضر (عند وضع المؤلَّف سنة ١٩٥٠) ٣٧٠ مليونا . ومع هذا فلا يزال هذا الرقم أقل بحوالى مائة مليون مما يعتقده الباحثون المسلمون ، وعلى كل فإن الرقم الذى وضعه Hazard بناء على الإحصائيات التى جمعها يجعل الإسلام ثانى الديانات فى العالم (بعد المسيحية .)

ولكن الحقيقة التى يعترف بها المسيحيون أنفسهم أن المسلمين أكثر جدا من المسيحيين تمسكا بدينهم واحتراما له ، ولو أخرجنا من أتباع

الديانات العالمية كلّ الذين يُنْسَبون إلى الأديان دون أن يحترموها أو ينفّذوا طقوسها ، لتهاوت هذه الملايين التى تذكر أمام المسيحية أو الهندوكية أو الكنفوشية أو البوذية ، ولم يبق إلا الإسلام يحمل رقما فريداً بين أتباع الديانات المختلفة .

لهذه الحقائق أيضا اتجهت لأن أكتب كتابا عن الإسلام ، أخدم به دينى وأخدم البشرية كلها ، وكتابة كتاب عن الإسلام فى موضوع مقارنة الأديان تختلف عن كتابة كتاب عن المسيحية فى الموضوع نفسه ، ذلك لأن المسيحيين شغلوا أنفسهم بموضوعات غريبة استنفذت كل جهد الباحثين ، حتى بدت المسيحية كلها كأنها بحث عن ألوهية المسيح ، وعن الكتاب المقدس وما حوله من آراء ، وعن الخطيئة الأولى وصلب المسيح للتفكير عنها .

ولكن كان الإسلام على النقيض من ذلك ، فالله وحده هو الإله ، وليس محمد إلا بشرا رسولا ، والقرآن الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو ثابت لا شبهة حوله ، وهو كلام الله وليس منسوبا لأحد كما نسب الإنجيل إلى متى ومرقص ولوقا ويوحنا ، ويشمل القرآن الكريم توضيح أساسَىْ الإسلام ، وهما العقيدة الإسلامية وشريعة الإسلام بما فيها من عبادات ومعاملات ، وكلما أخطأ المسلمون طريق الهداية عادوا إلى القرآن فوجدوا فيه ما يعيدهم إلى النور ، وسيمدُّنا هذا الكتاب المقدس بزاد وفير فى أبحاثنا التى سنعرض لها .

وبالإضافة إلى هذا فليس فى الإسلام اعتقاد بخطيئة توارثها البشر ، لأنه بناء على التفكير الإسلامى لا تزر وازرة وزر أخرى ، وليس فى الإسلام سلطات إلهية للحاكم ، وبالتالى سوء استعمال لهذه السلطات ، ومن أجل هذا يُعْفَى الكاتب عن الإسلام من هذا العناء ، فتتاح له الفرصة ليوجّه

كل جهوده للحديث عن نظم الإسلام وأفكاره ، وأن يتكلم من أول كلمة إلى آخر كلمة عن موضوعات ذات بال .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فالإسلام دين ودولة ومن هنا شمل الحديث عن الإسلام مشكلات الإنسان حتى العصر الذى نعيش فيه ، ويقدم الإسلام حلولا لكل هذه المشكلات .

ولا نزاع أن الباحث المنصف سيسرع بالهتاف للإسلام عند ما يقارن التفكير الإسلامى فى موضوع « الله » بالتفكير المسيحى أو البوذى فى الموضوع نفسه ، وكذلك فى موضوع « النبوة » و « الروح والمادة فى التفكير الإسلامى » و « فلسفة العبادات فى الإسلام » و « المرأة » و « الدين المعاملة » و « الرق » وغيرها من الموضوعات التى ستظهر جلال الإسلام وعظمته بين سائر الأديان والمعتقدات .

رباه ! حقق بهذا الكتاب الأمل ، واجعله خالصا لوجهك الكريم .

جاكرتا فى الرابع من أبريل سنة ١٩٦١ — دكتور أحمد شلبى

تطور الرسالات

وعمر الجنس البشرى

يدرك الباحث فى مقارنة الأديان حقيقة كبيرة الأهمية ؛ هى أن الجنس البشرى بدأ كما يبدأ الطفل أقرب إلى البدائية والبساطة ، ثم نما الجنس البشرى ونمت أفكاره فوصل إلى ما يمكن أن نسميه مرحلة صبا البشرية ، ثم نما مرة أخرى فوصل إلى مرحلة يمكن أن تُعَدّ مرحلة شباب البشرية .

وكانت الرسالات تناسب كل طور من هذه الأطوار ، ولا نزاع أن مصدر الرسالات هو الله العلى العظيم ذو الجاه والسلطان ، ولكنه جلت قدرته كان يعطى الدواء بقدر طاقة المريض ، فكان يعطى البشرية من الهدى والتوجيه ما تحتمله البشرية ، وما يناسب عودها الذى بدأ ضعيفا ثم اشتد رويدا رويدا حتى اكتمل نموه .

تلك حقيقة واضحة تمام الوضوح لكل من يعنى بدراسة الأديان وعلاقتها بالجنس البشرى ، وقد أشار أستاذنا الإمام محمد عبده إلى هذه الحقيقة فى كتابه « رسالة التوحيد » فذكر أن الأديان الأولى خاطبت الحس يوم كانت الإنسانية فى طور الطفولة ، لا يعرف الإنسان فيها إلا ما يقع تحت حسه ، ولا يتناول بذهنه من المعانى ما لا يقرب من لمسه ، فلما سار ركب الإنسانية وجرّبت وكسبت ، وتخالفت واتفقت ، وتقلبت فى السعادة والشقاء أياما وأياما ، ونما بها الوجدان ، وبدت العواطف ، جاء دين يتحدث عن الزهادة وعن الصفاء وملكوت الله ، ولكن الإنسانية فى صراعها لم تستطع أن تعيش على الإيثار ، ولم يطل مقامها فى الصفاء ، فراحت تتعارك وحلت القطيعة محل التراحم ، والتخاصم مكان المسالمة ، فجاء دين

ينظم الشئون كلها ، ويرعى الحس والعاطفة ، ويدرس العقل والقلب ، وينظم للناس شئون دنياهم وآخرتهم (١) .

وقد قمت – بحكم عملى فى مقارنة الأديان – بدراسة الأديان السماوية أو أكثرها ، وبدراسة الأديان الوضعية أو أشهرها ، وظهرت لى هذه الحقيقة واضحة ، وأريد هنا أن أبرزها وأن أسير معها فى ركب الجنس البشرى لأصفه وهو يتطور وتتطور معه الرسالات .

وينبغى أن يكون واضحا أن الجنس البشرى لم يتطور دفعة واحدة فى وقت واحد . وإنما ساعدت عوامل خاصة على تطور جزء من الجنس البشرى ، وبقيت أجزاء أخرى فى تخلفها وتأخرها ، وهكذا دواليك ، وبذلك وصل جزء من البشرية إلى مرحلة الشباب ، وكان جزء آخر فى نفس الوقت لا يزال فى مرحلة الصبا ، فى حين كان هناك جزء ثالث لا يزال فى مرحلة الطفولة يعيش عيشة بدائية أو ما يقرب من البدائية .

وربما صح القول أن هذه الأقسام كلها لا تزال تعيش فى العهد الحاضر ، فقد رَفَعَتْ المدنية بعض أجزاء من الجنس البشرى إلى غاية من الرقى ، ولا يزال هناك آخرون يَحْبُون ، نصيبهم فى المدنية محدود ، ومجالهم فى التطور ضئيل ، وبين هؤلاء وأولئك أقسام وأقسام .

ولعل حقا أن يقال إن الديانات السماوية تركزت فى منطقة الشرق الأوسط لهذا السبب ، فقد شهدت هذه المنطقة أرقى حضارات العالم منذ أقدم العصور ، وكانت حضاراتها أدبية وعلمية فهيأت شعوبها لتلقى الرسالات ، ولسنا فى حاجة لنذكر هنا حضارة الفراعنة المتلوّنة الفسيحة ، وكذلك حضارة الفينيقيين ، والبابليين ، والأشوريين ، وفى بعض أجزاء الهند والصين ظهرت حضارات أدبية ، فظهرت بجانبها فلسفات وأفكار اتخذت

(١) اقرأ رسالة التوحيد ص ١٥٤ وما بعدها .

فيما بعد شكل الدين كالبوذية والكونفوشية ، أما بقاع العالم المتخلفة فقد قامت بها أفكار بدائية تناسب الطور الذى كان يمر به سكان هذه الأقاليم .

نعود بعد ذلك للرسالات السماوية لنبين ما سبق أن أشرنا إليه من أنها – وإن كانت قد جاءت لأرقى جماعة بين جماعات البشرية – كانت تختلف فى درجة رقيها تبعا لعصر المرسل إليهم . وفى هذا المجال يمكن أن نقسّم مراحل هذه الرسالات إلى ثلاثة أقسام تقريباً ، فالقسم الأول يمثل طفولة الجنس البشرى وذلك يشمل الفترة التى عبرتها البشرية من آدم إلى نوح حتى إبراهيم ، والقسم الثانى يمثل صبا الجنس البشرى حيث كان أنبياء بنى إسرائيل وبخاصة موسى وعيسى ، والقسم الثالث يمثل شباب الجنس البشرى حيث رسالة محمد .

وهناك ملامح خاصة لكل قسم من هذه الأقسام .

ففى القسم الأول كانت الدعوة بسيطة ، ومظاهر ذلك تبدو فيما يلى :

١ – الدعوة محدودة بقوم الرسول ولا تتعداهم لسواهم .

٢ – الدعوة عبارة عن التوحيد وترك عبادة الأوثان والأصنام دون تنظيمات وتفاصيل أخرى إلا ما يكون من مرض اجتماعى تفشّى فتنهى عنه الدعوة وتحاربه .

والآيات القرآنية التى تتحدث عن هذه الرسالات توضح هذين الاتجاهين تمام الإيضاح ، إقرأ هذه الآيات :

– لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره[1] .

– ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذر مبين ألا تعبدوا إلا الله[2] .

(١) سورة الأعراف الآية ٥٩ . (٢) سورة هود الآية ٢٥ .

– ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين[١] .

– وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشاءهم[٢] .

– وإلى ثمود أخاهم صالحا[٣] .

– وإلى عاد أخاهم هودا[٤] .

– وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه[٥] .

ومن نتائج بعث الرسول لجماعة خاصة لا يتعداها ، أن وُجِدَ رسولان لجماعتين فى وقت واحد كإبراهيم ولوط ، وكإسحق وإسماعيل .

٣ – ليس للدعوة فى ذلك الحين كتب واضحة ، وإنما هى بضع نصائح وقد توجد بعض ألواح أو صحف عامة .

٤ – ليست هناك تواريخ ولا تقريبية لأديان هذه المرحلة فمتى كانت ديانة نوح ؟ ومتى كانت ديانة هود ؟ وهل جاء هود قبل إبراهيم أو بعده ؟ لا نعرف بوجه الدقة .

ويقف القسم الثانى (صبا الجنس البشرى) بين بين ، ففيه من القسم الأول بعض ملامحه ، ولكنّ له ملامح أكثر تعقيدا وشمولا ، ومظاهر ذلك تبدو فيما يلى :

١ – دخلت الدعوةَ بعضُ التفاصيل والتشريعات ، ففى سفر التثنية ما يلى :

---

(١) سورة الأعراف الآية ٨١ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٨٤ وسورة هود الآية ٨٤ وسورة الشعراء الآية ١٨٣ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٧٣ . (٤) سورة هود الآية ٥٠ .

(٥) سورة الزخرف الآية ٢٦ .

ـ لا يُقتَل الآباء عن الأولاء ، ولا يُقتَل الأولاد عن الآباء ، كل إنسان بخطيئته يقتل[1] .

ـ إذا كانت خصومة بين أناس وتقدموا إلى القضاء ليقضى القضاة بينهم ، فليبرروا البار وليحكموا على المذنب[2]

ـ إذا سكن إخوة معا ومات واحد منهم وليس له ابن فلا تصير امرأة الميت إلى خارج لرجل أجنبى ، أخو زوجها يتزوجها ، والبكر الذى يلده يقوم باسم أخيه الميت لئلا يمحى اسمه من إسرائيل[3] .

ـ لا يكن لك أوزان مختلفة ولا مكاييل مختلفة ، بل وزن واحد صحيح ومكيال واحد صحيح[4] .

٢ ـ أصبح للدعوة كتاب هو التوراة أو الإنجيل ولكن معانيهما فقط هى الموحى بها وصاغها البشر فى عبارات ، وقد مسهما التحريف والضياع كما سبق القول عند الكلام عن المسيحية .

٣ ـ وقد وُجِدَتْ فى هـذه المرحلة تواريخ ولكنها غير دقيقة تماما .

٤ ـ ولم يستطع بنو إسرائيل فى أكثر عصور هذه المرحلة أن يفهموا التوحيد فهما واضحا ، فحسب أكثرهم وحدانية الله على أن هناك إلها واحدا لبنى اسرائيل ، وبجانبه كانت هناك آلهة للشعوب يؤمن الإسرائيليون بوجودها ، ولكنهم يحرمون عبادتها على أبناء جنسهم[5] .

---

(١) الأصحاح ٢٤ الفقرة ١٦ .

(٢) ٢٥ : ٢ .

(٣) ٢٥ : ٥ و ٦ .

(٤) ٢٥ : ١٣ ـ ١٥ .

(٥) الأستاذ عباس العقاد : الله ص ١١٥ .

وظلوا إلى ما بعد أيام موسى عليه السلام ينسبون إلى الإله أعمال الإنسان وحركاته ، فذكروا أنه كان يتمشى فى الجنة ، وأنه كان يصارع ويأكل ويشرب ويغشى مركبات الجبال[١] .

أما القسم الثالث (شباب الجنس البشرى) فله ملامح واضحة هى :

١ — اتضحت وحدانية الله وحُطِّمت الأصنام ، وفتح بالاسلام عهد جديد لا يقبل الشرك فى أية صورة من صوره ، فالصورة الإلهية فى الإسلام « فكرة تامة » لا تسمح لعارض من عوارض الشرك والمشابهة ، ولا تجعل لله مثيلا فى الحس ولا فى الضمير ، بل له المثل الأعلى وليس كمثله شيء[٢] .

٢ — أصبحت الدعوة عامة لكل البشرية ، وأصبح محمد رسولا للعالمين : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا[٣] » .

والدليل على عموم رسالة محمد واضح تمام الوضوح ؛ فقد عمت رسالة محمد الخافقين وشملت الأبيض والأسود والأصفر ولم يحس أحد من هؤلاء أن الدعوة لا تناسبه ، ولا أنها مستوردة إليه من صنف آخر من الناس ، بل أحس كل واحد أن الدعوة له ، وأنها تنظِّم كيانه وحياته .

٣ — خُتِمَتْ الرسالات بدعوة محمد ، والدليل على ذلك واضح للغاية أيضا ، فقد مرّت القرون تلو القرون بعد محمد ، ولم يأت من يدعى الرسالة منذ طلع على العالم محمد بن عبد الله ، لقد كانت الرسالات قبله يتلو بعضها بعضاً ، بل كان بعضها يعاصر بعضاً كما سبق القول ، ثم طلع محمد بقوله إنه خاتم الأنبياء والرسل ، وصدّقه الواقع أربعة عشر قرنا وليس مثلَ ذلك دليلٌ .

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٤ .

(٢) » » ص ١١٥ .

(٣) سورة سبأ الآية ٣٨ .

٤ — دعوة محمد لها كتاب لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حميد ، فقد مرت القرون وتوالت السنون ، وكثر أعداء الإسلام ، ولكن القرآن بقى دون تحريف أو شبهة تحريف « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون[١] » « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ[٢] » « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين[٣] » .

٥ — يقين الرسول فى هذه المرحلة ثابت كالطود الشامخ ، لم تزعزعه الأحداث ولم تخطر له الشكوك ولا الأوهام ، وكان يهتف فى الشدائد : رباه إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى .

٦ — حياة محمد وحياة دعوته كلها وضوح وضوء ونور ، تواريخ محددة ، وأحداث ثابتة ، وتطور مستقيم راسخ .

٧ — ديانة شاملة لأمور الدين وأمور الدنيا ، صورت لنا الله تعالى فى سماه ، وصورت لنا جنته وناره ، وأبرزت معالم الخير والشر ، وراحت إلى أمور الدنيا تتحدى تفكير العالم بنظم رائعة فى الميراث والسياسة والاقتصاد والبيع والشراء والوصية والهبة والسلم والحرب وكل حاجات الإنسان ، كما سنوضحه فيما بعد .

ويقول الأستاذ العقاد فى ذلك[٤] : « جاء الإسلام للناس بعد أن بلغوا من التطور فى فهم الدين مرحلة واسعة ، وميزوا بين هداية الضمير وبين فواصل الأمكنة والأنساب ، فعرفوا أن الحق الإلهى محصول روحانى وليس بالمحصول الأرضى الذى يرتبط بالتربة كما ترتبط محاصيل الزروع والضروع .

---

(١) سورة الحجر الآية ٩ .
(٢) سورة البروج الآيتان ٢١ — ٢٢ .
(٣) سورة البقرة ، الآية الثانية .
(٤) ما يقال عن الإسلام ص ٥٣ .

« فالله فى الإسلام هو رب العالمين ، يتساوى عنده الناس ولا يتفاضلون بغير العمل الصالح ».

« والنبي فى الإسلام هو المبشر بالهدى والمنذر بالضلال ، وليس هو بالمنجم الذى يكشف الطوالع والأسرار ، ولا بصاحب الخوارق والأعاجيب التى تشل العقول وتهول الضمائر وتخاطب الناس من حيث يخافون ويعجزون ، ولا تخاطبهم من حيث يعقلون ويتأملون ويقدرون على التمييز » .

لقد تطور العالم وأصبح جديراً أن يتلقى أسمى الرسالات فجاءته أسمى الرسالات ، وهى موضوع حديثنا ، وما أمتعه من موضوع .

ليل الإنسانية الطويل

لقد أحاط بالبشرية ظلام حالك قبيل بعثة محمد ، كان ظلاماً مطبقاً ، وكان ليلا طويلا ، نشطت فيه الترهات وانزوت الأفكار الصالحة ، ودبَّ الجهل وانكمش العلم ، وعم اليأس وقلَّ الأمل ، وأوشكت الإنسانية أن تفقد كل ما حققته الأجيال الطويلة من تقدم ، وأن تتردى فى هوة سحيقة هى إلى عالم الحيوان أقرب .

تعال بنا نَجُلْ جولةً سريعة نصور فيها حياة الجنس البشرى آنذاك .

اليهودية :

بنو إسرائيل خصهم الله بكثير من فضله ، وأرسل منهم لهم عدة من الرسل ليكونوا مصدر هداية ومبعث ضوء ورحمة ، ولكن طبيعة أكثرهم كانت إلى الشر أميل ، فراحوا يعتدون ويفسقون دون رادع من ضمير أو خلق ، واستمرءوا الفجور فأنزلوا بأنبيائهم ألوانا من الاعتداءات الأثيمة دوَّنتها كتبهم المقدسة[1] وصوَّرها القرآن الكريم بقوله : « كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذَّبوا وفريقاً يقتلون »[2] . وانتقم الله لأنبيائه ورسله من ضللة بنى إسرائيل ومن نسلهم الذين يعلم الله أنهم سيسيرون كأسلافهم طغياناً وسوء سيرة ، فجعلهم هدفا لمن يُنْزِل بهم العذاب المهين إلى يوم الدين « وإذ تأذن ربك ليبعثَن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب »[3] .

---

(١) انظر صورا منها فى كتاب « اليهودية » للمؤلف .

(٢) سورة المائدة الآية ٧٠ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٦٧ .

ولم يستطع أنبياء بنى إسرائيل أن يحملوا الهداية إلى أكثر هذه القلوب الغلف ، وكان من اهتدى من إسرائيل يسرع إلى العودة للضلال كأنما كانت نفوسهم على وعد به ، وعلى نَفْرة مع الرضوان والهداية . فالروايات تقص علينا خبر أولئك الذين اتبعوا موسى من بنى إسرائيل وأنجاهم الله به مما أنزله فرعون بهم من ذل ومهانة ، ولكنهم سرعان ما تخطف أبصارَهم أصنامٌ لقوم يعكفون عليها فيقولون لنبيهم : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة[1] .

ويدعهم موسى فى رعاية أخيه هرون ويذهب ليتلقى الألواح من ربه ، وفيها لهم نور من الله وهدى ، ولكن سرعان ما يتخذ هؤلاء من حليهم عجلا جسداً له خوار ، يعبدونه ويسجدون له من دون الله . وقد حكى القرآن ذلك فى الآيات الكريمة « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار ، ألم يروا أنه لايكلمهم ولا يهديهم سبيلا ، اتخذوه وكانوا ظالمين ، ولما سُقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، قالوا : لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ، ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى ، أعجلتم أمر ربكم ؟ وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه . قال : ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بىَ الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين . قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين . إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين »[2] .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٣٨ .

(٢) سورة الأعراف الآيات ١٤٨ – ١٥٦ .

وأراد موسى أن يستغفر لقومه وأن يطلب من الله لهم الرحمة ، فاختار سبعين رجلا من أتقيائهم ، ولكن هؤلاء هتفوا به : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة[١] .

تلك صور من ضلالات بنى إسرائيل فى حياة موسى وفى حياة هرون ، أما ضلالاتهم بعد ذلك فتكاد تكون سلسلة من البغى ، يقتلون فيها النبيين ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، وهكذا ، حتى خلا التاريخ أو كاد من هداية روحية يقدمها رجل من بنى إسرائيل إلى الجنس البشرى ، أو شعاع من الضوء النفسى يكون فيه للإنسانية هدى أو بصيرة .

المسيحية :

ليس لنا أن نعيد حديثنا عن المسيحية بعد كتابنا الذى خصصناه للحديث عنها فى سلسلة « مقارنة الأديان » ، وكل ما نقوله هنا هو أن نعيد الكلمات التى ختمنا بها ذلك الكتاب وهى : وقد اتضح لنا من هذه الدراسة أن المسيحية بعدت عن صفائها ، ودخلتها عناصر غريبة حتى نقلتها عن طبيعتها وطبيعة الأديان السماوية كلها .

وقد كان فشل اليهودية والمسيحية صورة من الفشل الذى شمل الفكر فى العالم كله ، فلنَجُلْ جولة حول ذلك العالم لنرى إلى أى غاية كان يسير[٢] .

الحياة فى فارس :

إن الإصلاح الدينى الذى قام به زرادشت (٦٦٠–٥٨٣ ق م) فى إيران قد ضعف بعده ثم ضاع . وفى القرن الأول قبل الميلاد تسلط الاسكندر المقدونى على فارس ، ثم قسمها إلى دويلات قبل أن يغادرها لغزو الهند[٣] ،

---

(١) سورة البقرة الآية ٥٥ .

(٢) سنقتبس فيما يلى بضع صفحات من كتابنا « المجتمع الإسلامى » ص ٥ – ٩ .

(٣) اقرأ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية للمؤلف ج ١ ص ٥٧ (الطبعة الثالثة) .

فنشأ بذلك « عصر ملوك الطوائف » الذى اضطربت فيه الاحوال السياسية والفكرية .

وفى القرن الثالث المسيحى ظهر (مانى) فى فارس ، وكان ظهوره فى عصر سادت فيه الشهوة ، فاختط طريقا يحارب به هذه الشهوة الجامحة ، فنادى بحياة العزوبة وعدم النكاح لحسم مادة الفساد والشر من العالم ، وذلك بقطع النسل واستعجال الفناء ، وقد قتله بهرام سنة ٢٧٦ قائلا : إن هذا خرج لتخريب العالم ، فالواجب أن يبدأ بتخريب نفسه . وذهب مانى ولكن تعاليمه بقيت بعده إلى ما بعد الفتح الإسلامى .

وظهر مزدك سنة ٤٨٧ م فأعلن أن الناس ولدوا سواء ، لا فرق بينهم ، وينبغى أن يعيشوا سواء ، ولما كان المال والنساء من أهم الأسباب التى تخلق الفوارق وتسبب الكراهية ، فقد قال مزدك بالشيوعية التامة فيهما ، يقول الشهرستانى[١] : أحلّ مزدك النساء وأباح الأموال وجعل النساء شركة بين الناس كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ ، ولقيت هذه الدعوة قبولا لدى الشبان والمترفين والفجرة ، بل أيدها القصر الإمبراطورى . ويقول الطبرى[٢] : كاتف السفلة مزدك فى دعوته وشايعوه فابتُلِىَ الناس بهم وقوى أمرهم ، حتى كانوا يدخلون على الرجل داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله ، لا يستطيع الامتناع منهم ، وحملوا قباذ على تزيين ذلك وتوعّدوه إن رفض ، فلم يلبثوا إلا قليلا حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده ولا المولود أباه ، ولا يملك الرجل شيئا مما يتسع به .

---

(١) الملل والنحل حـ ١ ص ٨٦ .
(٢) تاريخ الأمم والملوك حـ ٢ ص ٨٨ .

وادعى ملوك فارس أن دماً إلهياً يجرى فى عروقهم ، أو أن فى طبيعتهم عناصر علوية مقدسة ، وصدّق الفرس هذه الدعوى فأنزلوهم منزلة الآلهة ، قدموا لهم القرابين ، وأنشدوا لهم أناشيد الطاعة والعبودية ، واعتقدوا أنهم وحدهم الذين يجوز لهم أن يلبسوا التاج ، ويسيطروا على الناس أيا كانت سنهم أو كفاءتهم . وفيما عدا الأسرة المالكة كان هناك المجتمع الإيرانى بطبقاته الكثيرة التى تقوم هوة واسعة بين كل اثنتين منها ، وكان كل إنسان فى طبقة لا يستطيع أن يتعداها إلى سواها من الطبقات مهما أوتى من كفاءة خاصة أو تجارب معينة[١] .

الصين :

من أهم الأديان التى كانت سائدة فى الصين قبيل ظهور محمد ، الديانة البوذية وكانت البوذية فى ذلك الحين قد فقدت بساطتها ، وتحولت وثنيةً تحمل معها الأصنام حيث سارت ، وتبنى الهياكل ، وتنصب تماثيل بوذا حيث حلت ونزلت ، يقول الأستاذ أتريا : لقد قامت فى ظل البوذية دولة تعنى بمظاهر الآلهة وعبادة التماثيل .

وجاء فى دائرة المعارف البريطانية فى مادة بوذا ما يلى : لقد أصيبت البرهمية والبوذية بالانحطاط ، ودخلت فيهما العادات الساقطة ، وأصبح من العسير التمييز بينهما ، لقد اندمجت البوذية فى البرهمية وذابت فيها[٢] .

الهند :

يقول السيد أبوالحسن على الحسنى النووى وكيل ندوة علماء الهند ما يلى : اتفقت كلمة المؤلفين فى تاريخ الهند على أن أحط أدوارها ديانة

(١) انظر كتاب : ماذا خسر العـالم بانحطاط المسلمين ، للسيد أبو الحسن النووى ، ص ٣٣ .

(٢) اقرأ عن ذلك كتاب « أديان الهند الكبرى » للمؤلف .

وخلقا واجتماعا كان ذلك العهد الذى يبتدئ من مستهل القرن السادس الميلادى ، فقد شاركت الهند فى التدهور الخلقى والاجتماعى الذى شمل الكرة الأرضية فى هذه الحقبة من الزمن . . . . وبلغت الوثنية أوجها ، ووصل عدد الآلهة ٣٣٠ مليونا فقد أصبح كل شىء رائع ، وكل شىء جذاب ، وكل مرفق من مرافق الحياة إلها يُعْبَد ، وهكذا جاوزت الأصنامُ والتماثيل والآلهة الحصرَ وأربت على العد ، فمنها أشجار تاريخية ، وأبطال تمثل فيهم الله ، وجبال تجلى عليها بعض آلهتهم ، ومعادن كالذهب والفضة ادّعوا أن الله تجلى فيها ، وأنهار وآلات حرب ، وآلات تناسل وحيوانات أشهرها البقرة وغير ذلك ، وقد ارتقت صناعة نحت التماثيل فى هذا العهد حتى فاق هذا العصر فى ذلك جميع العصور الماضية ، وقد عكفت الطبقات كلها وعكف أهل البلاد من الملك إلى الصعلوك على عبادة الأوثان .

وظهر فى الهند نظام الطبقات فى أبشع صوره ، فقد ازدهرت فى الهند قبل المسيح بثلاثة قرون الحضارة البرهمية ، ووُضِعَ فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندى ، وأُلِّف فيه قانون مدنى وسياسى أصبح رسميا ومرجعا دينيا فى حياة البلاد ومدنيتها ، وهو المعروف الآن بـ « منو دهرما ساسترا » ويقسم هذا القانون السكان أربع طبقات هى :

١ ـ البراهمة : وهم طبقة الكهنة ورجال الدين .

٢ ـ الكشتريا : وهم رجال الحرب .

٣ ـ الوشيا : وهم التجار والصناع والزراع .

٤ ـ الشودرا : وهم طبقة الخدم والعبيد .

وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقاً ألحقتهم بالآلهة ، فجعلتهم صفوة الله وملوك الخلق ، وملكتهم ما فى العالم لأنهم

أفضل الخلائق وسادة الأرض ، ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم الشودرا ما شاءوا ، لأن العبد وما ملكت يداه لسيده[١] .

العرب :

فى صور من وأد البنات ، وسبى النساء ، وعبادة اللات والعزى ومناة ، وفى حروب لا تنقطع ، وغارات لا تهدأ ، كان يعيش العرب قبل الإسلام ولعل أدق تصوير وأقصره لحالة العرب فى الجاهلية هو ذلك الذى قرره جعفر بن أبى طالب أمام النجاشى ملك الحبشة حينما سأله هذا عن دين الإسلام والرسول محمد قال جعفر : أيها الملك ؛ كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف[٢] .

* * *

تلك صورة سريعة مجملة للعالم قبيل شروق الإسلام ، تلك الحالة التى وصفها الأستاذ Dinson فى كتابه Emotions as the Basis of Civilization بقوله : فى القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى ، لأن العقائد التى كانت تُعين على إقامة الحضارة قد انهارت ، ولم يك ثَمَّ ما يعتد به مما يقوم مقامها ، وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التى تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال ، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية ، إذ القبائل تتحارب وتتشاجر

(١) انظر كتاب : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٣٨ — ٤١ ؛ واقرأ كذلك « أديان الهند الكبرى » للمؤلف ص ٥٣ — ٦٠ .

(٢) ابن هشام حـ ١ ص ٢١٣ .

لا قانون ولا نظام ، أما النظم التى خلفتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام ، وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله ، واقفة تترنح وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب .

وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى كان خير دواء لهذا الداء :

مطلع الفـــجر

طال ليل البشرية كما وصفنا آنفاً ، ومر الجنس البشرى بألوان من التجارب والخبرات حتى أصبح مستعداً أن يتلقى رسالة تنظم له هذه الشئون وتعالج له ما بدا من مشكلات ، ووقفت الإنسانية ترقب مطلع الفجر ، وأخذت تقلب وجهها ذات اليمين وذات الشمال ، باحثة عن الأمل الذى يقود الإنسانية إلى الهدى ، وباحثة عن شعاع الضوء الذى يزيل طبقات الظلام المتراكم .

وانبثق الفجر من هناك ، من مكة المدينة المقدسة التى تربض فى منتصف الطريق الواصل بين شمالى الجزيرة العربية وجنوبها تقريباً ، ولم يكن أحد يعرف حينما ولد محمد أن هذا الوليد اليتيم سيكون ذلك الأمل الذى ترقبه الملايين ، والذى سيهدى البشرية إلى سواء السبيل .

وولد محمد فى ضوء التاريخ ، لا شكوك حول أسرته ، ولا غموض حول تاريخ مولده ، ولا ظلام حول نشأته ، ولا تردد حول بعثته ومبادئه ، وإنما هى وضوح كلها ، ويقين كلها ، يؤمن به من يشاء ، ويكفر به من يشاء ، ولكنه على كل حال كفران ناشئ عن التحدى أو العصبية ، أوسبب مماثل من الأسباب ، وليس ناشئاً عن الجهل أو الغموض . ويقول غوستاف لوبون[1] عن حياة محمد ووضوحها : إذا استثنينا محمدا لم نجدنا مطلعين على حياة مؤسس ديانة اطلاعاً صحيحاً .

تعال بنا نقص طرفا من سيرة محمد نستقصيها مما كتبناه عنه بتفصيل وإطناب فى المظان التاريخية المخصصة لذلك[2] .

---

(١) حضارة الهند ص ٣٤٤ .

(٢) اقرأ الجزء الأول من كتاب « التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية » للمؤلف .

انتقل السلطان فى مكة من خزاعة إلى قريش سنة ٤٤٠ م وكان قصىٌّ الجدُّ الرابع للرسول قد تزوج بفتاة من خزاعة كان لأبيها السلطان على مكة ، فمهد له ذلك أن يستولى على السلطان بعد موت هذا الأب واضمحلال قوة خزاعة أمام قوة قريش الناهضة .

وقصىّ هذا هو الذى بنى دار الندوة ليجتمع فيها أهل مكة للتشاور فيما بينهم تحت إشرافه ، وهو الذى رتب وظائف الكعبة وحدد مدلولاتها ، وهذه الوظائف هى السقاية والرفادة واللواء والحجابة(١) .

وبعد قصىّ انحدرت وظائف الكعبة إلى أولاده فأحفاده ، وكان هاشم ابن عبد مناف بن قصى من أكثر أحفاد قصى حظا ، فقد آلت له السقاية والرفادة ، وتولاها بعده أخوه المطلب ثم عبد المطلب بن هاشم جد الرسول الذى عز شأنه وذاع صيته ، وأصبح مرجع كل الأمور بمكة ، وفى عهده كان عام الفيل حيث هجم أبرهة بالفيلة يريد دك البيت المقدس وتخريبه ، ولكن الهزيمة حاقت به وكتب للبيت المقدس النجاة . وفى هذا العام ولد محمد .

ومحمد حفيد عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وكان لعبد المطلب مجموعة من الأبناء تزيد عن العشرة ، وكان من بينهم ابنه عبد الله أبو محمد ، وكان عبد الله أحب أبناء عبد المطلب إليه ، كان شاباً جميلا تغلب عليه الوداعة والخير ، وقد زوّجه والده فى سن مبكرة من فتاة قرشية فى ميعة الصبا ، هى آمنة بنت وهب ، والتقى الزوجان الشابان التقاء قصيراً تكونت فيه نطفة طفل قدر له أن يكون فى قمة القادة والمشاهير ، وافترق الزوجان افتراقاً لم يتم بعده لقاء ، فقد سافر عبد الله فى تجارة أبيه إلى المدينة فالشام ، ولما عاد سقط مريضاً بالمدينة ومات هناك .

---

(١) انظر مدلولات هذه الوظائف فى الجزء الأول من كتاب « التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية » للمؤلف ص ٤٩ – ٥٠ .

• لقد كان حقيقاً بقلب آمنة أن يتحطم ، ولكن التاريخ يثبت لنا هدوء آمنة فى غمرة الحزن ، ورضاها مع الأسى ، وقد وجدت آمنة سلواها فى جنينها ثم ولدته فأنِستْ به ، وأصبح دنياها الذى نسيت له وبه كل شيء ، ولكن آمنة سرعان ما ماتت وطفلها فى السادسة من عمره ، وكأنما أراد الله أن يتولى هو تنشئة الطفل ، وقد عبر القرآن عن هذا المعنى بقوله « ألم يجدك يتيما فآوى[1] » وعبر عنه الرسول بقوله : أدبنى ربى فأحسن تأديبى .

وتولى عبد المطلب الإشراف على حفيده الحبيب ، ولكن عبد المطلب أيضاً مات بعد سنتين من آمنة فتولى أبو طالب بن عبد المطلب كفالة محمد .

وواجه محمد الحياة فى ظل عمه أبى طالب ، تربى فى بيته ، وساعده فى أعماله التجارية ، وسافر معه إلى الشام متاجراً قبل أن يبلغ الحلم ، وعندما كانت سنه أربع عشرة سنة وقعت حرب الفجار الرابعة ، وقد حضرها الرسول ، ويروى عنه قوله « كنت أنبل على أعمامى يوم الفجار وأنا ابن أربع عشرة سنة » .

وتقدم محمد نحو الشباب ، ولكنه كان طرازاً وحده ، لم يشرك أترابه فيما اعتادوه من لهو وعبث ؛ فلم يشرب الخمر ، ولم يغش مجالس الميسر ، ولم يسجد لصنم قط ، وكان حليف الأمانة وحليف الصدق حتى عرفه الناس بالصادق الأمين .

وتاجر محمد فى مال خديجة بنت خويلد ، وسافر فى هذه التجارة إلى الشام ، وصحبه ميسرة غلامُ خديجة ، وقد ربحت هذه التجارة ربحاً عظيما وكانت سبب ارتباط بين محمد وخديجة ، وقد تُوِّج هذا الارتباط بزواجه منها وهو فى الخامسة والعشرين وهى امرأة فى الأربعين من عمرها تزوجت قبله مرتين .

---

(١) سورة الضحى الآية ٦ .

وقد هيأ مال خديجة للرسول فرصة ليتفرغ للفكر الذى كان يراوده ، فقد كان محمد كثيراً ما يخلو لنفسه ويفكر فى الكون مبدئه ونهايته ، ولكن السعى للمعاش كان يقطع عليه فكره ويحول دون استمراره فى هذه اللذه العقلية التى كان ينعم بها ، ولكن حياته الجديدة مع خديجة ضمنت له فراغ الوقت ، ومنحه تقدم سنه مزيداً من العمق ، ومنحته أخلاقه الحسنة مزيداً من الصفاء ، وشملته عناية الله فرأى أن يخلو لله ، وشجعته زوجته الصالحة على رغبته ، فكانت تعد له الطعام فيأخذه ويذهب إلى غار حراء ، حيث يخلو ليفكر فى الكون وخالقه ، والموت ومصير الناس بعده وهكذا ، وصفت نفس الرسول فأصبحت رؤاه تتحقق ولا تكاد تتخلف .

بدء الوحى :

وظل محمد يخلو ويفكر حتى نزل عليه جبريل يوم الاثنين السابع عشر من شهر رمضان وناداه :

— اقرأ

— ما أنا بقارئ .

— اقرأ .

— ما أنا بقارئ .

— اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم[٩] .

وكانت هذه أول آيات من القرآن الكريم ، ومن الملاحظ أن هذه الآيات لم تكلف محمداً بدعوة ، ولم تخبره برسالة ، ولم تكن

---

(١) سورة العلق الآيات ١ — ٥ .

إلا إعلاماً بشيء غير عادى لم يدرك محمد كنهه ، ولذلك أسرع إلى البيت خائفاً مذعوراً .

وانقطع جبريل عن الرسول مدة بعد ذلك وكان الرسول يترقبه فى الغار وخارج الغار ، وبعد فترة من الانتظار طالت على محمد ، ظهر له جبريل مرة أخرى ، فظهرت عليه رعدة وفزع ، وسارع إلى بيته فى حالة من الخشية ، وقال لأهله : دثرونى دثرونى . فدثروه . ولكن جبريل جاءه وهو فى هذه الحال وألقى إليه نداء ربه : « يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر[1] » ، وأدرك محمد بهذه الآيات ما يراد منه ، فهب ينذر الناس وبدأت بهذه الآيات مراحل الدعوة للدين الجديد ، وافتتحت هذه الآيات للإنسانية عصراً جديداً هو عصر النور وعصر السلام والإسلام .

وبدأ محمد دعوته بمكة ولكن الدعوة تعثرت ووقفت قوى الشر فى طريقها ، ولكن محمداً بحث عن طريق آخر تنطلق منه دعوة الإسلام ، فهاجر إلى يثرب ، وحاولت القوة الغاشمة أن تَلْحَقَ به وأن تحطم بالمدينة الدعوةَ المهاجرة من مكة ، ولكن محمداً قاوم القوة بالقوة ، وخاض معارك حاسمة مع المعتدين ، كتب له فى نهايتها النصر المبين ، وعلا صوت الحق ، ودخل الناس فى الدين أفواجاً ، وعندما استكمل محمد الثالثة والستين كان عَلَمُ الإسلام يخفق على الجزيرة العربية كلها ، وأصبح لهذه الجزيرة التى كانت أشتاتاً متنافرة دينٌ واحد ، ورئيس واحد ، وغاية مثلى تقودها ، وأفكار سامية توجهها . ثم انطلقت هذه القوة من حدود الجزيرة بعد وفاة محمد فاتجهت إلى أرقى الممالك التى عرفها ذلك التاريخ ،

---

(١) سورة المدثر الآيات ١ — ٧ .

فخرت بسرعة مذهلة أمام الزحف الإسلامى الذى لم يطق الباطل أن يوقفه ، ولم يمض قرن من الزمان حتى كان الإسلام يخفق فى الأندلس ، ويرفرف على السند ، ويشمل بخارى ، ويعم ما بين هذه البلاد من بقاع .

ولنعد إلى محمد نبى الإسلام لنذكر جملة أخرى من صفاته قبل أن نستمر فى حديثنا عن موضوعات هذا الكتاب .

لقد بُعِثَ محمد وتبعه بعض الناس . وعاداه آخرون . ولكن أعداءه لم يستطيعوا أن يجدوا فى أخلاقه مطعناً ، ولم يستطيعوا أن يزعموا أن فيه نقيصة ، أو ثلمة .

وعظم شأن الإسلام وانتشر ، وكبر سلطان محمد باعتباره الرئيس الدينى والرئيس السياسى ، ولكن مظاهر السلطان لم تعرف طريقها إليه ، فقد ظل يحلب شاته ، ويرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم نفسه ، ويأكل مع الخادم ، ولم ير أصحابه فيه إلا رائداً وصديقاً ، كان ينهاهم عن الوقوف له إذا أقبل عليهم ، وكان يجلس معهم كواحد منهم ، وإذا قدم وهم جالسون اتخذ مكانه حيث انتهى به المجلس ، وكان يمازحهم ويداعب صبيانهم ويجلسهم فى حجره ، ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويعود المرضى فى أقصى المدينة[1] .

ولم تقف سماحة نفسه عند أتباعه ، بل امتدت إلى أهل الكتاب ، فكان يقبل دعوتهم ، ويحسن استقبالهم ، وقد فرش عباءته لنصارى نجران عندما وفدوا عليه وطلب منهم الجلوس عليها . وكان يزور مرضاهم ويشيع جنازاتهم .

---

(١) أفاض الإمام الغزالى فى وصفه لأخلاق الرسول فى أكثر من موضع بكتاب الإحياء ، انظر كذلك زاد المعاد ١ : ٣٤ – ٤٧ .

وكان زاهداً فى الدنيا ، يؤثر على نفسه ولو كانت به خصاصة ، وكان لايدخر شيئاً لغده ، حتى لقد توفى وقد رهن درعه عند يهودى فى قوت عياله ، وكان شديد الزهد فى الحياة المادية ؛ اتخذ فراشاً خشناً . وطعاماً بسيطاً ، بل لقد عانى الجوع أكثر من مرة ، وكان زهده فى اللباس كزهده فى الطعام .

وكان لامع الذكاء ، عميق التفكير ، سريع البديهة ، وكانت تحيط به أحيانا مشكلات جسيمة ولكنه لم ينهزم أمام واحدة منها . بل كان يبحث عن الحلول فى وقت تقف فيه العقول عن التفكير ، وحسبك أن تذكر موقفه عندما حلّت به الهزائم فى غزوة أحد ، وخرّ صفوة من أتباعه ، وتشتت شمل جيشه ، ومسه هو الضر ، وسقط فى حفرة والدم ينزف منه ، ونادى منادى قريش أن محمداً قد مات ، فأراد أحد المسلمين أن يكذّبه ، وأن يصيح بأن محمداً لا يزال حياً ، ولكن الرسول أسكته فقد أدرك — وهو فى حاله تلك — أن خبر موته سيوقف نشاط المنتصرين ، ويضمن السلامة لكثير من أتباعه ، وهذا ما كان .

ومحمد — ككل مصلح وكل رسول — كان له أعداء . ولا يزال له أعداء ؛ ولكن أحداً من هؤلاء لم يستطع أن يجرّح أخلاقه ؛ أو أن يجد فى صفاته ما يُنال منه . وكثير من المستشرقين الحانقين على الإسلام يذكر أن نجاح محمد كان نتيجة — لا لصدق دعوته — بل لذكائه ، وخلقه ، وحسن معالجته للأمور ، وتفوقه الذهنى والخلقى على رجالات عصره .

ومن خصائص الدين الذى جاء على يد محمد التوحيدُ المطلق الذى لا هوادة فيه ، وخلوه من التعقيدات اللاهوتية ، وبعدُه عن

الكهنة والقرابين ، وقد اتخذ محمـــد كل الاحتياط ليحول دون تأليهه بعد مماته ؛ كما أن من أهم خصائص هذا الدين إصراره على أن المسلمين جميعاً إخوة متساوون تماماً ، مهما اختلفت ألوانهم أو أجناسهم أو مراكزهم[١] .

رحم الله محمداً ! لقد كان نفحة سماوية أمدها الله بالتأييد ، وحباها كريم الصفات ونبيل السجايا ، ومنح العالم على يده ديناً جديراً بأن يكون خاتم الأديان لما يكفله لمعتنقيه من تنظيم أمور الدين وأمور الدنيا .

---

(١) Wells : موجز تاريخ العالم ص ٢٠٢ .

دعوة فى الميزان

قال محمد : إنى رسول الله ، أرسانى بشيراً ونذيراً .

وقال محمد : إن رسالتى تشمل البشرية كلها .

وقال محمد : إن رسالتى تنظم شئون الدين وشئون الدنيا ، شئون الروح وشئون الجسم ، شئون الفرد وشئون الجماعة .

هل صدق محمد فيما قال ؟

وهل ملأ هذا الفراغ الكبير الذى قال إن دعوته ستشمله ؟

تعال أولا نفترض عدم صدق محمد ، وندّعى مع من ادّعوا أن محمداً لم يكن صادقا وأن دعوته إنما هى من خَلْقِه هو وليست رسالة من الله ، ولكننا نسرع فنتساءل :

كيف يدّعى رجل مثل هذه الدعوة الكاذبة وتعيش دعوته ؟

ونتساءل ثانياً :

لماذا كَذَبَ محمد هذه الكذبة العريضة ؟ ما هدفه وما آماله ؟

ونسير فى بحث السؤال الأول فنذكر أنّ كثيرين ادّعوا النبوة وحاولوا أن يأتوا بمعجزات ، ادّعاها الأسود العنسى ، وادّعاها طليحة ، وادّعتها سجاح ، وادّعاها فى العصر الحديث أحمد القاديانى ، ولكن كلا من هؤلاء كانت دعوته مهلهلة أثارت الضحك والسخرية ، وكان عمرها فى عمر الزهور ، وكثيراً ما تراجع صاحبها نفسه وسخر من نفسه مع الساخرين ، لشىء واحد ، هو أن النبوة عبء ثقيل ، حمله يرهق النفس البشرية ، والنهوض به من أشق الصعوبات .

انزل بين جماعة وادّع أنك طبيب ولست بطبيب ، كم يمضى من الوقت قبل أن ينكشف أمرك ويظهر تضليلك ؟

وانزل بين جماعة وادع أنك معلم أو مهندس أو رجل قانون ، أو حتى زارع أو طباخ أو حلاق ولست كذلك ، لا شك أن أمرك سينكشف بعد قليل ، وسيطاردك أولئك الذين قد يُخدَعون بك فى اللحظات الأولى .

هل النبوة أقل من ذلك ؟

اللهم لا . إنها مسئولية خطيرة ، ودعوة عريضة ، وهى امتحان قاس ، هيهات أن يعبره كاذب أو مختلق .

إنها ليست كلمة تقال ، أو دعوى تدعى ، إنها فكرة ، أو سلسلة من الأفكار ، ونظام ، أو حلقات من النظم ، وهى عقيدة تُبْنَى ، وشروح تُعْرَض ، ومشكلاتٌ تعالج ، ولا يقوم بذلك إلا صادق أمين .

وتعال بنا إلى السؤال الثانى :

ما هدف محمد من هذه الدعوى العريضة على فرض بطلانها ؟

من المحتمل أن يكذب إنسان وأن يدّعى دعوى باطلة ، ولكن الذى لا شك فيه أن الإنسان يرمى إلى شىء عندما يرتكب هذه الحماقة . ما الشىء الذى أراده محمد من هذه الدعوى ؟

هل أراد المال ؟ هل أراد الجاه ؟ هل حصل على شىء لنفسه ، أو لذويه ؟

الإجابة على ذلك واضحة يقصها علينا التاريخ الواضح ، الذى لا يختلف فيه اثنان ، فقد كان محمد غنيا قبل البعثة بمال زوجته الواسع وثرائها العريض ، ولكن محمداً أفنى هذا المال وأنفق كل هذا الثراء حتى إذا مات كان مديناً ، رهن درعه عند يهودى فى قوت أهله . وقد أراده

قومه على المال ، وعرضوا عليه أنْفَسَ ما يملكون لأنهم ظنوا أنه طالب مال ، وعرضوا عليه الجاه والسؤدد وأرادوه ملكا عليهم ؛ ولكن محمداً صاح صيحته الشهيرة : والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه[1].

وظنه الجدد من أتباعه ذا سلطان . فوقفوا له إذ قَدِم عليهم ، ولكنه هتف بهم : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم ، فلست بملك ، وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة .

وقاسى محمد من أجل النبوة ألوانا من العناء ، عرف الجوع والطوى ، وامتدت عليه الأيدى بالضرب والإيذاء ، وقاطعته قريش هو ومن تبعه أو نصره ، واستمرت المقاطعة ثلاث سنوات ، وشملت التجارة والمحادثة والتزاوج وغيرها من المعاملات ، وكان من نتيجتها الضر البالغ لمحمد ولأتباعه ، ولبنى هاشم جميعا ، ثم تلا ذلك هجرة وغربة وتشرد .

وماذا حَصَّل محمد لذويه ؟

إن كان محمد قد حصَّل شيئاً لأولاده وذويه فذلك الشيء هو الحرمان ، طالما بات مع أهله على الطوى ، وطالما قنع وقنعوا معه بالثوب المرقَّع ، والنعل المخصوف ، ثم — وهو غاية الحرمان — لقد وضع محمد حدا لما قد يقال عن جلب النفع ، فقال قبل موته : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة . وهكذا حرم أهله من ميراث يناله جميع الناس من موتاهم ، وبرهن على أنه ليس لأهله وإنما هو للمسلمين ، حياتُه لهم وموته لهم ، وكفاحه من أجلهم ، دون هدف ذاتى أو منفعة خاصة .

وليس لمحمد ميراث أدبى كما أنه لم يكن له ميراث مادى ، فالنبوة ليست ملكا ولا سلطانا يتوارثه الأهل ، ولما مات محمد انتقل سلطانه القبائل كما يقضى الإسلام ، ولم ينله غير الأكفاء من أهل محمد كبعض

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ١٧٠ .

العباسيين والعلويين إلا فى عهد اضمحلال التفكير الإسلامى ، وتدهور الثقافات الإسلامية .

وفى حجة الوداع كان خطاب محمد حاسما ، كان حسابا واضحا قدّمه لقومه ، قال لهم : أيها الناس ، من كنت أخذت له مالا ، فهذا مالى فليأخذ منه ، ومن كنت ضربت له ظهرا فهذا ظهرى فليضربه ، أيها الناس كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأعجمى على عربى إلا بالتقوى .

حياة واضحة ونهاية واضحة ، حياة فيها الحرمان والضنى واللوعة له ولأهله ، فلما مات لم ينل منه ذووه شيئاً ، وكان للسلمين جميعاً تراثه المادى والأدبى .

وهكذا عند حساب الأرباح والخسائر نجد محمداً لم ينل شيئاً لنفسه ولا لذويه وإنما دفع من ماله وجهده وجاهه ، وما لمثل هذا يسعى كذاب مختلق .

وأكثر من هذا ، فالضر الذى نزل بمحمد لم يكن مفاجأة له ، ولم يكن يسعى للخير فأخطأه التوفيق ونزل به الضر ، لا ، فإن محمداً كان يتوقع الشر منذ جاءته الرسالة ، ومنذ بدأ دعوته ، فقد روى أنه عقب أن تلقى أمر ربه ناله الفزع والخوف ، فدعته خديجة لينال شيئاً من الراحة فأجابها : يا خديجة مضى عهد النوم والراحة ، وجاء عهد الكفاح والعناء .

إذاً لا نستطيع أن نفترض عدم صدق محمد . ففرضٌ كهذا لا يجيزه منطق ولا يقره فكر سليم .

لا ، نريد مرة أخرى أن نعود إلى هذا الافتراض الأبله ، ونريد أن ندّعى مع من ادعوا أن محمداً لم يكن صادقاً ، وأن دعوته إنما هى من خلَقه ، وقرآنه إنما هو من صنعه ، ولكن سرعان ما يعرض علينا هذا القرآن صوراً تذيب هذا الإدعاء وتمحوه من أساسه ، اقرأ معى :

« عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزّكّى ، أو يذّكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى ، فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى . كلا ، إنها تذكرة[١] » .

قصة جماعة يدعوهم الرسول إلى الإسلام ، ورجل أعمى مسلم يقتحم على الرسول جلسته ليسأل عن شيء غمض عليه ، ولكن الرسول يستمر فى اهتمامه بهذه الجماعة رجاء أن يجذبها إلى حوزة الإسلام ، أما هذا السائل المسلم فيُعْرِض عنه الرسول مؤقتاً فلن يفوت شيء إذا أجّل الرسول الإجابة عن سؤاله . ولكن القرآن لا يترك هذا التصرف لمحمد ، وتنزل عليه هذه الآيات التى يقرؤها الملايين . هل هى من صنع محمد ؟ وكيف جاز لمحمد أن يلوم نفسه هذا اللوم ، وأن يجعل هذا التقريع قرآناً يحفظه الناس ويتلونه وفى هذه الآيات — بالإضافة إلى العتاب واللوم — معان سامية ، واتجاهات رفيعة ، لا يمكن أن يعارض بها محمد نفسه ، لو كانت الدعوة من خلْقه ، والقرآن من صنعه ، لأن الآيات تسأل بتهكم : لماذا تتصدى لتعلم من استغنى عنك وعن الأفكار التى تدعو لها ؟ وماذا يضيرك أن يبقى هؤلاء فى ضلالهم . . . .؟ كلا ، لا تفعل ذلك مرة أخرى .

هذا أدب الله وتلك سياسة القوى العليا التى لا يصل إلى غايتها فكر البشر ، وأشهد لقد حصل لى حادث مماثل سأذكره هنا ، وليرَ القارئ رأيه فيه :

فى جاكرتا عاصمة إندونيسيا كان يسكن رجل عربى مسلم هاجر إلى إندونيسيا من نابلس بفلسطين منذ حوالى ثلاثين سنة ، وتزوج فى جاكرتا بفتاة مسيحية هولندية ، وأنجب منها بعض أطفال .

---

(١) سورة عبس الآيات ١ — ١١ .

وكان هناك حوار يدور أحياناً بين الزوجين عن بعض المبادئ الإسلامية ولم يكن الزوج المسلم ذا ثقافة إسلامية عالية يستطيع بها أن يدافع عن الإسلام ، فقرر أن يدعونى لجلسة تثير زوجتُه فيها تلك الشبهاتِ العالقةَ بنفسها عن الإسلام ، وتمَّت هذه الجلسة بحضور مستشار سفارة الجمهورية العربية المتحدة وزوجته ودار حديث طويل باللغة الإنجليزية بينى وبينها ، وعرضت فيه السيدة المسيحية شبهاتها : تعدد الزوجات فى الإسلام — الطلاق — نظام الميراث . . . وأخذتُ أشرح وجهة نظر الإسلام فى هذه المسائل ، وطاب الحديث وظهر أننى مسيطر على الموقف ، ولانت المرأة وأبدت إعجابها بكثير من الاتجاهات الإسلامية ، وكان زوجها يذكِّرها ببعض المسائل التى تعوَّدت أن تتساءل عنها ، فتثيرها ، وأجيب ، وفى وسط هذا النصر واللذة التى تصحبه كان المستشار يتدخل سائلا بعض أسئلة ، ولكنى كنت أعرض عنه وأؤجل الإجابه عن تساؤله .

والمهم — الذى أشهد الله عليه وأستغفره منه إن كان ذنباً — أننى كنت وأنا أتجه للمرأة المسيحية داعياً وأعرض عن المسلم المتسائل ، كنت أتذكر حادثة الرسول آنفة الذكر ، التى أعرضَ فيها عن المسلم واتجه يدعو جماعة إلى الإسلام ، كنت أتذكرها تماماً ، ومع هذا ظللت أدعو المرأة المسيحية وأشرح لها ، وظللت أعرض عن المسلم المتسائل ، لأن اجتماعى بهذه المرأة فى جلسة كهذه كان فرصة فريدة ، أما اجتماعى بالسيد المستشار فكان يتم كل يوم تقريباً ، والفرص عنده واسعة ليسأل عما يريد .

ذلك فيما يبدو اتجاه النفس البشرية ، حرْصٌ على الدعوة وعلى تحقيق لذة الانتصار وضم جماعة آخرين للدين الذى يعتنقه الداعى ، ولكن اتجاه السماء مغاير ، يصعب أن تسمو النفس الإنسانية إليه إنه اتجاه تبينه الآيات الكريمة :

– فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا[١] .
– لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً[٢] .

مرة أخرى لا يمكن أن تكون سورة عبس من صنع محمد ، فلا يعقل قط أن يتصرف محمد هذا التصرف العادى ، ثم يعود فيلوم نفسه هذا اللوم القاسى ويجعل لومه قرآنا يتلى .

وليست هذه السورة فقط هى التى اتخذت هذا الاتجاه ، فهناك آيات أخرى لا تقل عن سورة عبس إن لم تكن أشد منها وأقسى ، اقرأ معى هذه الآيات :

– عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين[٣]
– ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم[٤] .
– ما كان لنبيٍّ أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة[٥] .
– لولا كتاب من الله سبق ، لمسَّكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم[٦] .
– لا تقل إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ، واذكر ربك إذا نسيت ، وقل عسى أن يهديَنِى ربى لأقرب من هذا رشدا[٧] .
– وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه[٨] .
– لا يحلُّ لك النساء من بعد ولا أن تبدَّل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن[٩] .

(١) سورة الكهف الآية ٦
(٢) سورة الرعد الآية ٣١
(٣) سورة التوبة الآية ٤٣
(٤) سورة التوبة الآية ١١٣
(٥) سورة الأنفال الآية ٦٧ .
(٦) سورة الأنفال الآية ٦٨ .
(٨) سورة الكهف الآية ٢٤
(٨) سورة الأحزاب الآية ٣٧ .
(٩) سورة الأحزاب الآية ٥٢ .

– لِمَ تحرِّم ما أحلَّ الله لك تبتغى مرضاة أزواجك(١) .

وهكذا تصرفات لم يقرّها العزيز الحكيم ، فأنزل فيها سبحانه آيات من قرآنه يلوم بها ويوجِّه ، ويقود فيها رسوله إلى المثل العليا ويعلمه بها ما لم يكن يعلم . إنها دلائل واضحة على أن محمدا لم يكن مدّعيا وأنه كان رسول الله ، وأن القرآن الذى جاء به كلام الله .

ولدينا دليل آخر على أن القرآن كلام الله وأنه ليس من كلام محمد ، ذلك أن محمدا كانت تنزل به نوازل من شأنها أن تحفزه إلى القول ، وكانت حاجته القصوى تلح عليه ، بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقالا ومجالا ، ولكن كانت تمضى الليالى والأيام ، تتبعها الليالى والأيام ، ولا يجد فى شأنها ، قرآنا يقرؤه على الناس .

ألم يرجف المرجفون بحادث الإفك عن زوجه عائشة رضى الله عنها ؟ وأبطأ الوحى ، وطال الأمر ، والناس يخوضون ، حتى بلغت القلوب الحناجر وهو لا يستطيع إلاّ أن يقول بكل تحفظ واحتراس « إنى لا أعلم عنها إلا خيراً » ثم – بعد وقت طال وامتد – نزلت الآيات الكريمة : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ...(٢) » .

فماذا كان يمنعه – لو كان أمر القرآن إليه – أن يتقوّل هذه العبارات أو الآيات الحاسمة من أول الأمر ، ليحمى بها عرضه ، أو يذبَّ بها عن عرينه ، وينفى عن أحب زوجاته قول السوء(٣) ؟

على أن محمدا لم يكتف بهذا وذاك دليلا على كون القرآن من عند الله ، بل راح يعلن على المعاندين تحدِّى القرآن لهم أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله ، اقرأ معى هذه الآيات :

(١) سورة التحريم الآية الأولى . (٢) سورة النور الآية ١١ وما بعدها .
(٣) المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم ص ١٦ .

ـ أم يقولون تقوَّله ، بل لا يؤمنون ، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين[١] .

ـ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا[٢] .

ـ أم يقولون افتراه ؟ قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين[٣] .

ـ أم يقولون افتراه ؟ قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين[٤] .

ـ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين[٥] .

وهكذا نجد ذلك التحدى متدرِّجا ، يطلب منهم أن يأتوا بمثل القرآن ، فإذا ظهر عجزهم انتقل التحدى إلى عشر سور ، فإذا عجزوا مرة أخرى تحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة ، وفى سور القرآن ما هو سطر واحد ، ولكنهم حتى فى هذا يعجزون . وتحدِّى العرب أن يأتوا بسورة قصيرة تحدٍّ مهين ، فليس للعرب ثقافة إلا البلاغة ، وثروتهم الفكرية محصورة فى مجال الشعر والنثر والفصاحة والبيان ، فإذا عجزوا فى هذا الميدان رغم التحدى السافر ورغم تعاونهم الذى وجههم إليه القرآن فذلك هو الخزى المبين ، ولكن هيهات أن تصل قوى البشر إلى أن تقف وجها لوجه أمام قوى الله .

مرة أخرى نجدنا لا نستطيع أن نفترض عدم صدق محمد ، ففرض كهذا لا ينتج إلا عن فكر سقيم ونظر كليل .

(١) سورة الطور الآية ٣٣ – ٣٤ .
(٢) سورة الإسراء الآية ٨٨ .
(٣) سورة هود الآية ١٣
(٤) سورة يونس الآية ٣٨ .
(٥) سورة البقرة الآية ٢٣ .

ولكن ليس هذا فقط هو كل ما عندنا لإثبات صحة رسالة محمد ، فإن محمداً أثبت لنا بما لا يحتمل ترددا أنه يحمل رسالة نظمتها قوة أسمى من قوى البشر ؛ أتى لنا بأفكار وضّحت لنا ما عجزت الإنسانية عن فهمه عبر القرون فيما يتعلق بما وراء الكون ، وأتى لنا بنظم لشئون دنيانا تكفل لمعتنقيها السعادة فى مختلف الأزمنة والأمكنة .

قال لى زميل بجامعة كمبردج : قدِّم لى الإسلام وأثبت لى أنه رسالة من عند الله .

قلت له : لقد طلبت شيئاً يسيرا ، لو كنت عربيا لوضعت القرآن بين يديك لترى فيه إعجاز نسجه وإعجاز أفكاره ، ولدفعك هذا كما دفع كثيرين من العرب للإيمان برسالة محمد ، ولكن رسالة محمد ليست للعرب فقط ، وفيها براهينها لغير العرب وهاك البيان :

محمد رجل أمى ، لم يعرف القراءة ولا الكتابة « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك »[1] ، وهو قليل الثقافة وبيئته كذلك محدودة الثقافة ، ولكن رجلا كهذا جاء بنظام للميراث عاش أربعة عشر قرنا ولا يزال فى ميعة الصبا ، وعَبَرَ هذا النظامُ حدودَ الجزيرة العربية إلى عدة أقطار ، واصطدم بمدنيات وثقافات ، وقورن بأفكار البشر فى رحلته الطويلة ، ولكنه رجحها ولا يزال يرجحها ، تعال معى نقارنه بالنظام الإنجليزى الذى يعطى الميراث للابن الأكبر ويَدَع مَنْ سواه من الأبناء والبنات ، وتعال نقارنه بالنظام الهولندى الذى يعطى نصف الثروة للزوجة ثم يقسم الباقى بالتساوى بين الأولاد والبنات والزوجة مرة أخرى ، وتعال نقارنه بالنظم التى تعطى البنين وتحرم البنات ، كما كان متبعا لدى كثير من قبائل العرب ولدى السكان بشمالى إفريقية ، وتعال نقارنه ببعض النظم التى تجعل الميراث لابنة الخالة الكبرى وتحرم من سواها ،

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٨ .

كبعض الأنحاء بإندونيسيا ، تعال نقارنه بالنظم القديمة والحديثة وسنجده يرجح الجميع دون شك وباعتراف المفكرين المخلصين .

هذه واحدة ، وجاء هذا الرجل الأمى بنظام للزواج ، وبنظام للطلاق ، ونظام للرق ، ونظام للعبادات ، ونظام للسياسة ، ونظام للاقتصاد ، وتنظيم للحرب ، ولِما بعد الحرب من مشكلات ، وتنظيم لغير المسلمين فى المجتمع الإسلامى ، وتحدث هذا الرجل عن موضوع اهتزت فيه عقول البشر مدى التاريخ وهو الله وبيّن من هو الله فى التفكير الإسلامى ، وتحدث هذا الرجل عن ما وراء الكون فجلّى كثيرا من النقاط (وسنشرح هذه الأشياء كلها أو أهمها فى أمكنتها من هذا الكتاب) .

قلت لمحدثى : تُرى كل هذه الأشياء من صنع محمد أو أنها تعاليم تلقاها عن قوة أسمى من قوة البشر ، عن الله سبحانه وتعالى ؟

وقبل أن يجيب محدثى كان هناك مسلم آخر يصغى باهتمام لما أبديه من شروح وإيضاحات ، وسمعنى هذا بعد هذه الشروح أسأل محدثى السؤال السابق ، فسارع يجيب : إن كانت هذه الأشياء من صنع محمد فمحمد ليس بشرا ، إن هذه التنظيمات وهذه الآراء تعجز عن القيام بها لجان كثيرة لها ثقافات عالية ، وتخصص عميق ، مهما أتيح لها من المراجع والدراسات والوقت .

قلت لمحدثى : ما رأيك ؟

قال فى يقين وثبات : نفس الرأى الذى قاله صديقنا ، وأشهد أن رجلا أيًّا كانت عبقريته ، وأيًّا كانت ثقافته ، ليعجز عن أن يأتى بتنظيم فى مسألة واحدة من هذه المسائل ، فما بالك بكلها مع تنوعها وتلون اتجاهاتها ، واعتنق هذا الزميل الإسلام ، وسمى نفسه محمدا تيمنا بالرجل الذى جاء هذا الخير على يديه ، ولا يزال حتى الآن يزداد حبه للإسلام وإعجابه بنبى الإسلام .

تلك هى دعوة الإسلام ، تضعها فى الميزان فترجح ، تختبرها فتزداد فيها يقينا وبها إعجابا ، وتناقشها بالعقل والمنطق فتساير العقل والمنطق ، وتبحثها بالحكمة والتؤدة فتصل إلى القول الفصل . لقد صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما قال ، وملأ الفراغ الضخم الذى قال إن دعوته ستشمله ، وقد جاء برسالة من عند ربه ، أبانت لنا كل الشئون ، وضمنت لنا خير الدارين ، فاعتنقناها لا لأن آباءنا سبقونا إليها ، لا ، لا ، بل لأنا درسناها فى عناد أحيانا وتؤدة أحيانا فغلبتنا فى كل حين ، وأبانت لنا أنها جمعت كل ما فى الرسالات السابقة من خير ، وأنها أضافت إليها ما يناسب تقدم البشرية ، وما يضمن للجنس البشرى فى رحلته التى لا يزال يقطعها الاستقرار والسلامة ، إنها رسالة اليسر والبساطة ، تدخلها دون عناء أو طقوس ، وتصلى حيث تكون ، وحدك أو مع جماعة ، إذ جُعِلت الأرض كلها مسجدا للمسلمين ، وليس بين المسلم وربه وسيط يعمِّده ، أو يجيز زواجه أو يتلقى اعترافه ، أو يبيع له جنات الخلد ، إنها رسالة الحرية والسلم ؛ رسالة العقل والقلب ، رسالة المادة والروح ، رسالة التعاطف والقوانين ، فلنسر معا نبسط أبرز المسائل التى شرحها هذا الدين ، وأتى بها محمد من عند ربه بفصل الخطاب .

الله

ما أظلم الإنسان وأقساه ، كيف يحاول فى ضعفه وجهله أن يتحدث عن الله ؟

ولكن الله رب العالمين الذى أجلّه قوم وعبدوه ، وسجدوا له وأحبوه ، ينكره آخرون ولا يعترفون به ، ولا يدركون آلاءه ، ولا يشهدون بهاءه .

لماذا أنكره هؤلاء ؟

وكيف السبيل لقيادتهم إلى النور وارفع الشكوك من نفوسهم والغشاوة عن قلوبهم ؟

هذا ما سنحاول أن نجليه هنا ، ولكن حديثنا على كل حال لن يكون مقصوراً على من أنكر وشطّ عن الهدى ، بل سنتجه بحديثنا أيضاً إلى قوم وقفوا حيارى ، يطلبون سواء السبيل فلا يصلون إليه ، لأن خبراتهم ومعارفهم لاتصل بهم إلى هذه الغاية ، وسنتجه بحديثنا أيضاً إلى قوم لم ينكروا الله ولكنهم أيضاً لم يعرفوه لأنهم لم يطلبوه ، ثم سنتجه بحديثنا كذلك إلى قوم آمنوا بالله واعترفوا به إيمان تسليم وإذعان ، لعلنا نرفع مستوى ذلك الإيمان ، فنجعله إيمانا عن فكر ودراسة ويقين ، وكم يكون سرورنا بالغا إذا قدمنا بحديثنا هنا للعارف بالله زادا جديدا يقوى به إيمانه ، ويزيده ثقة ويقينا .

وسيشمل حديثنا عن الله جل جلاله ثلاثة مباحث هى : وجوده ووحدانيته ، وصفاته .

وجود الله

نعود للسؤال الذى سألناه من قبل وهو : لماذا لا يعترف كثير من الناس بالله ولا يؤمنون بوجوده ؟

الجواب عن ذلك سهل يسير ، هو أنهم ماديون والله ليس مادة .

والحقيقة أن مادية الإنسان متسلطة عليه ، مسيطرة على قواه ، وكثير من الناس يخضعون لهذه المادية ويرونها فلسفتهم ويبنون تفكيرهم على توجيهها وإرشاداتها ؛ وكثير آخرون يقاومون هذه المادية فى نفوسهم وينعشون بذور الروحانية فيهم ، وهؤلاء درجات متفاوتة . أعتقد أنى لا أظلم الناس لو قلت إن قليلين جدًّا هم الذين سَمَوْا بروحانيتهم إلى الطبقة العليا .

أيها القارئ ، أيا كان اتجاهك الدينى ، هل تنكر أنك مادى ؟

إن كنت تنكر فإنى أسرد لك من حياتك اليومية صوراً بسيطة ساذجة نمتحن بها ماديتك ورحانيتك :

أنت — أغلب الظن — تستعمل معجون أسنان وفرشاة ، وعند ما تنفد أنبوبة المعجون تذهب تواً لشراء أنبوبة أخرى ، ولكن اسأل نفسك : متى تشترى فرشاة أخرى ؟ إن نصائح أطباء الأسنان تقضى بأن الفرشاة يلزم أن يُستَبدَل بها غيرُها من حين إلى آخر ، لأنها تصبح غير صالحة للاستعمال بعد فترة من الزمن ، وإن كانت لا تزال تحمل الشعرات وتبدو كأنها صالحة . فأنت لا تتأخر عن شراء أنبوبة المعجون يوماً واحداً لأن انتهاء صلاحيتها شىء مادىٌّ ، ولكنك غالباً تؤجل شراء الفرشاة لأن انتهاء صلاحيتها ليس واضح المادية وإن كان لا يخلو منها .

وأنت تمرض جسمانياً فتسارع للطبيب لأن مرض الجسم شىء مادى تحس به ، فإذا أرشدك الطبيب لدواء اتبعت تعليماته بكل دقة ، ولكنك

تمرض نفسياً أمراضاً أشد فتكا من أمراض الجسم وأشأم أثراً ، وتحس بهذه الأمراض وتدرك خطرها عليك وعلى الناس . فهل تسارع لطلب الدواء للخلاص من هذا الداء ؟

هل تحس أنك حسود ؟ أو تكره الناس ؟ أو لا تميل إلى التعاون ؟

وهل تحس بالكبر وعدم أداء الواجب ؟ كل هذه أمراض فتاكة تنزل بالإنسان ، وقلَّ من يحاول أن يجد لها العلاج ، وقلَّ من يتبع سبل العلاج إن حصلت له ، لماذا ؟ لأن الإنسان مادى يعيش للمادة ولا يهتم كثيراً بالروحانيات .

وأنت تشترى قلم الرصاص وتشترى معه مبراة ، ويصغر القلم رويداً رويداً حتى لا تستطيع أن تمسك به فتلقى به جانباً وتسرع فتشترى قلماً آخر ، ولكنك لا تشترى مبراة أخرى مع أنها فى الحقيقة قد انتهت صلاحيتها للعمل كما انتهت صلاحية القلم ، ولكن انتهاء القلم مادىٌ فقد صغر وصغر ، أما انتهاء صلاحية المبراة فليس واضح المادية ولذلك تحاول استعمالها مرة أخرى ومرات ، وهى لا تستجيب لك ، وربما أفسدت لك الأقلام ، ولكنك تظل تلح عليها لأنك لا تريد أن تدرك غير المادة .

وأنت أيها المسلم تصلى وتتجه إلى البيت الحرام ، وأنت أيها المسيحى تتجه أيام الآحاد إلى الكنيسة ، ويتجه البوذى والهندوكى وغيرهما إلى المعابد ، ويصلّى كل من هؤلاء صلاته ، يقرأ ويدعو ويركع ويسجد . ولكنى أسألك : هل كنت متجهاً إلى إلهك بقلبك وأنت تصلى ؟

وهل كنت تحس بأنك تكلمه وتعيش معه وتناجيه ؟ أو أنك مادى ينطق لسانك وتتحرك أعضاء جسمك ، وقلبُك فى شغل عن هذه الصلاة ؟

إن كنت تفعل ذلك فأنت تؤدى من الصلاة جانبها المادى وتفقد حلاوة روحانيتها .

وهكذا صور حياة الإنسان ، كلها مادة ، والجانب الروحى فيها ضئيل مغلوب على أمره ، فإذا قيل له شيء عن الله . أسرعت المادية إلى نفسه أو إلى لسانه ، ففكر أو سأل : أين يسكن الله ؟ وما شكله ؟ وما لونه ؟ وأين كان قبل أن توجد السموات والأرض ، أو بعبارة أخرى اتجه بالله اتجاها ماديا ؛ فإذا لم يره بعينه أو لم يمسه بيده ، أنكره ، وربما هاجمه .

قال لى محدثى وهو من هؤلاء — وكنا نتكلم عن الله — لماذا لا يظهر الله للناس ويريهم سلطانه وعظمته ليؤمنوا به وليدينوا له بالطاعة ؟

ودهشت لهذا السؤال ولكنى تمالكت نفسى وبدأت أجيب :

قلت له : إنك لا تؤمن إلا بما ترى ، فهل تؤمن بروحك التى تتسلط على أعضائك لأنك لا ترى هذه الروح ؟ ثم إنك يا محدثى تريده أن يظهر ، وهل اختفى حتى تطلب ظهوره ؟

إنه « الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم[١] »

إنه « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور[٢] » إنه « الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم »[٣] إنه الله الذى « لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء »[٤] .

وقلت له : ولكنك يامحدثى إنسان مادىٌّ تريده جسما والله ليس بجسم ، تريده مادة وهيهات أن يكون الله مادة ، ثم يا محدثى الأجَلّ كيف تريده

(١) سورة الحديد الآية الثالثة .
(٢) سورة غافر الآية ١٩ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .
(٤) سورة آل عمران الآية ٥ .

أن يظهر ؟ أتريده إنسانا ضخم الجثة ، مهيب الوجه ، يأمر الريح فتهدأ ، والميت فيحيا ، والبحر فيجف ؟ هل يكفيك هذا لتؤمن به ؟ ولكن هل نسيت يا محدثى أن عيسى أحيا الموتى وشفا المجذوم ، وأن البحر جف لما ضربه موسى بالعصا ، ومع هذا فقد ضل أتباع هذا وذاك ؟ فأهمل أتباع موسى إلهه الذى كان يدعو إليه وراحوا يعبدون عجل السامرىّ ، وحكم قوم عيسى عليه بالقتل صلباً ، وعملوا على تنفيذ حكمهم فيه ؟

وإذا جاءك الله بجلاله ودخل بيتك وأقام لك المعجزات لتؤمن به ، فهل تريده أن يطوف بكل الدور فى الدنيا الواسعة وأن يقف بكل منها وقفة يثبت ألوهيته ويقيم عليها الأدلة والبراهين ؟ وما رأيك فى أنه عند ما ينتقل من قرية إلى قرية سيدع فى القرية التى خلّفها ألوانا من الشكوك والريب ، وسيقول قوم : إنه ساحر ، وسيقول آخرون : إنه مفترٍ أثيم ؟

لا يا محدثى ، المسألة أنك مادىٌّ ، عميق الجذور المادية ، والطريق الوحيد لتدرك الله أن تقوى جانبك الروحى والفكرى .

وقال لى محدث آخر : إذا كان الله موجودا وخالقا للخلق وعادلا فلماذا لا ينصر المظلوم ؟

قلت له : إن انتصار الله للمظلوم دليل نتخذه لوجود الله ، ونعتقد أن الظالم لا بُدّ أن يُثْأرَ منه ، وأنه ليس هناك حجاب بين الله ودعوة المظلوم ، ولكنك يا صديقى مادى أيضاً تتصور الله شرطيا يهتف به المظلوم فيسعى له الله فى الحال وينزل بظالمه العقاب ، واللهُ ياسيدى ليس شرطيا ، إنه يدبر الأمور بعمق أكثر مما تتصور ، وينزل العقاب حينا وكيفما يرى ذلك .

وقد يكون من الحكمة أن يمهل الله الظالم فترة ، حتى إذا تجمّعت ألوان الظلم التى يوقعها بالآخرين أنزل الله به سخطه وعقابه . قال تعالى : « إنما نملى لهم ليزدادوا إثما »(١) .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٧٨ .

وأنت يا محدثى تحدِّد المظلوم وتشفق عليه ، مع أنك لا تعرف المظلوم حقيقة ولا تعرف من قصته إلا ما تراه ، ألا يمكن أن يكون مَنْ تراه مظلوما هو فى الحقيقة ظالم ، ولكنه يتظاهر بأنه مظلوم ليخدعك بدمعه أو صراخه ؟

ألا يمكن أن يكون ما يقع عليه من ظلم تراه ، هو فى الحقيقة انتقام لظلم أوقعه هذا الباكى بسواه من قبل وأنت لا تعرف ؟ اقرأ معى هذه الآيات :

– ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض[1] .

– ولكن الله يسلط رسله عن من يشاء[2] .

وتحضرنى قصة عربية ليست بعيدة مما خطر لك يا محدثى الفاضل أسردها لك لترى تدبيرك وتدبير الآخرين : تروى كتب الأدب أنه – فى نقائض جرير والفرزدق – هتف جرير يهدد صاحبه :

ذاك ابن عمى فى دمشق خليفة   لو شئتُ ساقكمُ إلىَّ قطينا

وكان الخليفة ابنَ عم جرير حقيقة ، فماذا فعل الخليفة ؟ هل انتصر للشاعر ابن العم ؟ هل خذله ؟ الجواب أن الخليفة قال لابن عمه الشاعر : إنك ما زدت عن أن جعلتنى شرطيا ، ولو قلتَ : لو شاء ساقكم إلىَّ قطينا ، لَسُقْتُهُمْ إليك .

هذا هو الخليفة الأموى لم يرض أن يكون شرطيا لابن عمه الشاعر ، فهل تريد الله فى جلاله وجبروته أن يكون شرطيا لمن تراه أو لمن يرى نفسه مظلوما ؟ وتريد الله أن يسرع للظالم ويمسك بتلابيبه ؟ الإجابة مرة أخرى إنك مادىّ ، ومعرفة الله تحتاج إلى جانب روحى لأن الله ليس بمادة .

ومحدث ثالث صرخ فى وجهى ينكر الله ويقول : لو كان هناك إله ما خلق طفلا أعمى أو أخرس أو مشوه الخلقة ، لأن هذا الطفل لا ذنب له فيما وقع به من سوء .

---

(١) سورة الحج الآية ٤٠ .   (٢) سورة الحشر الآية السادسة .

قلت له : يا سيدى إنك مادى تقيس الأمور بمقياس المادة وهو مقياس ضئيل لا يصل بصاحبه إلى غاية محمودة ، اسمع ياسيدى — وكان الحديث يجرى فى انجلترا عقب الحرب العالمية الثانية — ما رأيك فيمن أكلتهم الحرب أو شوهتهم وسلبت عيونهم ؟

قال : لقد ضحوا ليسعد الآخرون .

قلت : ولماذا لاتعتقد أن ألوف الآباء سيحسون بالسعادة وينطقون بالشكر لسلامة أبنائهم عندما يرون الأطفال المشوَّهين ؟ ولماذا تنسى أن هذه العاهة قد تكون مصدر خير على صاحبها ؟ والذى لا أشك فيه أن بعض العميان وصلوا إلى مكانة ما كان من الممكن أن يصلوا إليها لو كانوا مبصرين . ولماذا لا تعتقد أنه لولا هذه العاهة لكان من الممكن أن يكون هذا الإنسان مصدر شر وبيل على الإنسانية ؟ ولماذا تنسى الملايين الذين خلقهم الله فأحسن خلقهم ثم تنكر وجوده لهذا الشيء النادر الذى لابد أن يكون لحكمة نستطيع أن ندركها حيناً ، ولا نستطيع أن ندركها حينا آخر ، بسبب اتجاهاتنا المادية وضعف الناحية الروحانية فينا ؟ .

تلك صور من المادة والماديين على أن هؤلاء فى وسط ضلالاتهم وماديتهم يعترفون بالله بفطرتهم ، فالفطرة فى ذاتها سليمة (ولا يكاد يوجد فوق الأرض مخلوق لاينطوى على شيء من الشوق الروحانى أو شعور باطن مبهم بأن هناك قوة عليا يتوجه إليها بفطرته)[1] وهذه الفطرة السليمة يتراكم عليها الصدأ فى كثير من الأحوال بسبب الاتجاهات المادية وقلة الثقافة الروحية ، ولكن الفطرة تتغلب على الصدأ أحياناً تحت تأثير منظر رائع ، أو نجاح خارق ، أو هزيمة قوى أمام ضعيف ،

(١) مجلة المختار : أكتوبر ١٩٤٤

أو ما شابه ذلك ، فإذا بالوجدان يتيقظ ، وإذا بالفطرة تعود ، وإذا بالإنسان الذى كان ضالا يهتف : يا سبحان الله ، لا قوة إلا بالله .

ومعرفة الله هكذا عن طريق الفطرة والوجدان والضمير معرفة لا تحتاج إلى دليل ، إنها صحوة لهذا الوجدان ، ويقظة للجانب للروحى ، ومن الواضح أن هذا الجانب متفاوت فى الإنسان ، ولذلك فدرجات يقظته تتناسب مع درجات وجوده ، ولكن الجانب الروحى موجود على كل حال . ومن الأسباب التى تزيل الصدأ عن الوجدان وتنعش ما ضعف من الجانب الروحى ، الشدائدُ والكوارثُ التى تنزل بالإنسان ، وكلما كثرت الشدائد وقلّ المعين كلما تساقط الصدأ وبدأ الوجدان يطهر وينشط : اقرأ معى هذه الآيات لا علَى أنها قرآن مجيد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بل على أنها تصوير دقيق للنفس البشرية لا يستطيع أحد جحوده . قال تعالى :

ــ وإذا مس الإنسانَ الضُّرُّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عن ضره مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضُرٍّ مسَّه[1] .

ــ هو الذى يسيِّركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجريْنَ بهم بريح طيبة وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين[2] .

ــ وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه[3] .

ــ وما بكم من نعمة فمن الله ، ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون[4] .

---

(١) سورة يونس الآية ١٢
(٢) سورة يونس الآية ٢٢
(٣) سورة الروم الآية ٣٣
(٤) سورة النحل الآية ٥٣

على أن الماديين قد مُنُوا بهزيمة ساحقة قوّضت عليهم البنيان المادى الذى شيدوه ، لقد اتخذوا العالم على أنه مادة ؛ ولادة وحياة ثم موت وفناء ، وإذا بالأبحاث تثبت وجود الروح بعد موت صاحبها وهو اتجاه الإسلام فى شأن الروح وقد قال عنه الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت ما يلى : والذى ترشد إليه الآثار الدينية أن الروح تخرج من بدن الإنسان فيكون الموت ، وأنها تبقى ذات إدراك ، تسمع السلام عليها ، وتعرف من يزور قبر صاحبها ، وتدرك لذة النعيم وألم الجحيم ، وأن مقرّها يختلف بعد مفارقة البدن بتفاوت درجاتها عند الله[1]

وقد أجريت تجارب لتحضير الأرواح حضرتُ بعضها بنفسى ، ولست أستطيع أن أنفيها ولا أن أثبتها ، فالنظم التى اتُّبعت فى تحضير الروح أمامى كانت إلى البدائية أقرب ، فلم تصل بى إلى درجة اليقين ، وإن كنت كما قلت لاأستطيع أن أنفيها لأن مظاهر حصلت أمامى لاأعتقد أنها من الخداع أو التُّرَّهات . وإذا كان هذا موقفى فإن كثيرين من الباحثين أتيحت لهم فرصٌ أوسع ، شهدوا فيها ما جعلهم يؤكدون أن الروح كائن حى وأنه يمكن الاتصال بها بعد موت صاحبها .

والماديون أكثر حاجة لدراسة هذا الموضوع لعلهم بعد أن يدركوا شأن الروح تنهار المادية المتسلطة عليهم .

وعن طريق الفطرة والوجدان الذى سبق أن تحدثنا عنه والذى يقودنا إلى الاعتراف بالله دون حاجة إلى دليل أو برهان ، عن هذا الطريق يقول برودون : إنّ ضمائرنا قد شهدت لنا بوجود الله قبل أن تكشفه عقولنا ؛

ويقول الأستاذ العقاد[2] : فى رأينا أن مسألة وجود الله مسألة « وعى » قبل كل شىء ، فالإنسان له « وعى » يقينى بوجوده الخاص

---

(١) الفتاوى ص ١٥ (٢) الله ص ٢١١

وحقيقته الذاتيـــة ، ولا يخلو من « وعى » يقينى بالوجود الأعظم والحقيقة الكونية .

وبجوار هذا الدليل هناك أدلة أخرى نستطيع أن نعتمد عليها للتدليل على وجود الله سبحانه وتعالى ، وهذه الأدلة هى : الدليل العقلى والدليل النقلى والتجربة الشخصية ، وعن كل منها سنتحدث حديثاً خاصا هو – حتى ما يتعلق بالدليل النقلى – إلى الاتجاه العلمى أقرب منه إلى الاتجاه الدينى ، كما سيبدو فيما بعد .

الدليل العقلى :

كثيرون من الناس يطلبون الدليل العقلى على وجود الله ، ولدينا هذا الدليل العقلى الذى عقدنا له هذا الجزء من الحديث ، والحقيقة أن القرآن الكريم – كما سيأتى – حثّ الناس على استعمال عقولهم ليعرفوا الله خلال ذلك ، ولكنا نريد أولا أن نوضح غرور الناس بعقولهم ، وكيف وصل كثير منهم إلى الهاوية بسبب هذه العقول . وفى المثل الريفى الذى سمعته منذ نعومة الأظفار بقرانا فى الجمهورية العربية المتحدة : « كل واحد راض عن عقله وساخط على جيبه » وهذه حقيقة واضحة ، فأغلب الناس أو كلهم يعتقدون أنهم أذكياء ، وفى غاية الفطنة ، وقلّما يعترف واحد منهم بقصور عقله أو بتفوق سواه عليه فى القريحة والمواهب . وقد جلب هذا الوضع الشقاء للناس ، أى أنهم تعسوا بعقولهم وكان عليهم أن ينعموا بها ، وسبب تعاستهم بهذه العقول أنهم تعرضوا لأشياء تقصر عقولهم عن الوصول إليها ، تعال معى اختبر عقلك :

أنت ترى بعينيك ، فهل تعرف كيف ترى ؟ .

وأنت تسمع بأذنيك ، فهل تدرك كيف تسمع ؟ .

وتحمل فى جسمك آلات من أنواع مختلفة ، بعضها يتبع الدورة الدموية ، وبعضها يتبع الدورة الغذائية . فماذا تعرف عن هذه الآلات ؟

وفى يدك ساعة تدرك بها الوقت ، فهل تعرف كيف تعمل هذه الساعة ؟

وفى بيتك مذياع وجهاز تلفزيون ، فهل تدرك كيف تُلْتقَط الأحاديث والصور وتُنْقَل إليك ؟

وألم يحصل لك أن قرأت كتاباً ثم عجزت عن فهمه أو فهم سطور منه ؟

وألم تشتر مرة قماشاً بعد اختبار واختيار ، ثم تبين لك أن عقلك قد خدعك ، أو ضعف عن حسن الاختيار فأعدْت القماش أو كرهته ؟

وهكذا أستطيع أنا وتستطيع أنت أن نعد مئات الأمثلة عجز فيها عقلك عن فهم أمسّ الأمور به وأسهلها تناولا ، وهى أمور معروفة لكثيرين من الناس ، فطبيب العيون يعرف كيف ترى العين . وطبيب الأذن يعرف كيف تسمع الأذن ، وصانع الساعات يعرف كيف تعمل الساعة ، وهكذا ، فطبيعة هذه الأشياء أن يدركها العقل ، ومع هذا عجزت عقول الأغلبية عن فهمها ، واكتفت هذه الأغلبية بفهم المختصين لهذه الأمور ، فإذا مرضت عين شخص أسرع للطبيب وسلّمه قياده ، وإذا فسد المذياع حملناه إلى المختص وتركناه بين يديه ، ومن أجل هذا أسألك أن تكون كذلك فى ميدان معرفة الله عن طريق العقل ، أى أنك إذا أحسست قصوراً فحذار أن تنكر الله ، ولكن سارع فأعط القيادة ربانها ، واتبع من سبقوك فى المواهب والخبرات .

أما إذا أحسست أن عقلك من الفطنة بحيث يصل إلى هذا المستوى السامى فلابد أن تستعمله ليكون إيمانك أوثق وأعمق ، وقد حثك القرآن

على استعمال عقلك كما سبق القول ، وقدم لك مادة تستطيع خلالها إن كنت موهوباً أن تثبِّت يقينك فى الله ، اقرأ هذه الآيات :

– هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ه ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآيةً لقوم يتفكرون ، وسخَّرَ لكم الليلَ والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه إن فى ذلك لآيةً لقوم يذكرون ، وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون ؟ ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم(١) .

– والبُدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صوافَّ فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعترَّ ، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون(٢) .

– والذى خلق الأزواج كلها ، وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ، لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين(٣) .

ويجدر بنا قبل أن نسترسل فى ذكر آيات أخرى تدفع العقل إلى الاعتراف بجلال الله ومجده أن نعلق تعليقاً سريعاً على هذه الآيات التى توضح أن الله سخَّر لنا ذوات قوى كان جديراً بها أن تطغى علينا بما بها

---

(١) سورة النحل الآيات ١٠ – ١٨ . (٢) سورة الحج الآية ٣٦ .
(٣) سورة الزخرف الآيات ١٢ – ١٣ .

من قوة وجلال وصلابة ، وليتذكر القارئ ضخامة الجبل وعظمة البحر ، وقوة الجمل والثور والحصان ؛ ومع هذا فإن الله قد ذللها لنا فأسكن الجبل والبحر ، وجعل الحيوانات القوية تذل للولد الصغير ، يضربها ويركبها ويحمل عليها ، وما كان البشر بمستطيع ذلك لولا قوة الله التى طمأنت من جبروت هذه الحيوانات وأخضعتها لمصالح الإنسان .

ومن أجل هذا يوضح الله فى الآيات السابقة أنّ على البشر أن يشكروا الله أنْ سخر لهم هذه القوى وما كانوا بدون ذلك بمستطيعين أن يتغلبوا عليها وينتفعوا بها ، ولا يزال الإنسان من حين إلى آخر يرى البحر يثور ، والجبال تهتز ، والحيوان يشرد ويتمرد ، ويقف الإنسان ضئيلا أمام هذه القوى ، ويبدو على حقيقته من الخور والضعف حتى يأتيه عون الله فيعيد هذه الكائنات إلى الخضوع والاستكانة ، ويعيد للإنسان القدرة على السيطرة عليها ، وما كانت هذه الثورة العارضة إلا تذكيراً للإنسان بحقيقة قواه وحقيقة القوى المسخَّرة له .

— وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونُفضِّل بعضَها على بعض فى الأُكُل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون(١) .

— أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافّات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير(٢) .

— ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم(٣) .

ويقول أستاذنا الإمام محمد عبده : وللإسلام دعوتان : دعوة إلى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده ، ودعوة إلى التصديق برسالة محمد صلى الله

---

(١) سورة الرعد الآية ٤ (٣) سورة الملك الآية ١٩ .

(٣) سورة الروم الآية ٢٢ .

عليه وسلم ، فأما الدعوة الأولى فلم يعوّل فيها إلا على تنبيه العقل البشرى، وتوجيه النظر فى الكون واستعمال القياس الصحيح والرجوع إلى ما حواه الكون من النظام والترتيب ، وتعاقد الأسباب والمسببات ، ليصل بذلك إلى أنّ للكون صانعا ، واجب الوجود عالماً حكيما قادراً[1] .

وقد حصلت لى تجربة خاصة فى التدليل على وجود الله ، سأقصها هنا كما حدثت مع شىء من الإيجاز بقدر الطاقة .

كنت فى زيارة رسمية لأحد أقاليم إندونيسيا حيث أمضيت عشرة أيام ، وقد نظم لى مكتب الوزارة عدة اجتماعات خاصة وعامة لإلقاء محاضرات على المدرسين والهيئات والجماهير ، وفى ذلك الإقليم كانت هناك رابطة للذين تلقوا علومهم فى الغرب ، أو اتجهوا بأفكارهم إلى الثقافة الغربية ، وخلال الأيام الأولى لزيارتى لم يهتم أفراد هذه الرابطة بمحاضراتى ولم ينضموا للجماهير الغفيرة التى كانت تحضرها ، وحجتهم فى مقاطعة هذه المحاضرات اعتقادهم أن المحاضر يتحدث عن الدين كما تعود كثير من الشيوخ أن يفعلوا ؛ يرغّبون فى طاعة الله ويحثون على العبادة وهكذا ، ومستوى مثل هذه المحاضرات التى تخيلوها لم يكن يناسب ثقافتهم ومعارفهم .

غير أن هؤلاء المثقفين عرفوا بعد أيام من زيارتى أن الأحاديث التى كنت ألقيها عالية المستوى كما قالوا لى فيما بعد ، وقد أغراهم ذلك بالاتصال بى ، فأرسلوا لى مندوباً عنهم يسألنى عما إذا كنت مستعداً أن ألقى محاضرة بناديهم تكون عبارة عن إجابات لشكوك دينية أصبحت لديهم حقائق أو عقائد ، وأجبت على الفور بالقبول ، وكانت ليلة طويلة حضرها هؤلاء المثقفون وجماعات غفيرة من سواهم ليروا هذا اللقاء وينظروا نتائجه .

---

(١) رسالة التوحيد ص ٥٢ .

وقدمنى رئيس الرابطة تقديماً رائعاً كله تقدير واحترام ، وشكرتُ فأطنبت ، ثم بدأت أتكلم ، ورغبةً فى تشجيع المتشككين ليُظْهِرُوا شكوكهم ، ذكرت أننى شخصياً مرّت علىّ فى حياتى بعض صور من الشكوك والغموض ، وربما مرت هذه الصور أو شطر منها بمن هو أرقى منا درجة فى المعرفة ، فالقرآن يحدثنا عن إبراهيم وكيف سأل ربه : ربِّ أرنى كيف تحيي الموتى . قال : أوَلم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبي[1] . وكيف سأل موسى ربه : رب أرنى أنظر إليك[2] .

وانطلق القوم بعد ذلك يسألون ، وانطلقتُ أجيب : ومن إسناد الفضل لمانِحِهِ أن أقرر أن عونا ضخما جاءنى من الله ، وأن فيضا من عرفانه طاف بى وأمدّنى ذلك المساء ، والذى يهمنا هنا من ذلك الموضوع أنّ من بين الأسئلة سؤالا أثاره واحد منهم ، وكان تعبيراً عما يدور بخلد الجميع ، قال :

ـ أنا أنكر أن للكون إلهاً ، وأعتقد أن الناس عمل الطبيعة ، وُلِدوا وعاشوا ثم يموتون ، فهل عندك دليل واضح على وجود الله ؟

وأجبته فى حزم ويقين : إن عندى من الأدلة ما يجعل اللبيب يرى الله ويوقن به أكثر من يقينه أنه إنسان ، ولكن السؤال الذى يهمنى هو : هل أنت جاهل تريد تتعلم أو جاحد تريد أن تناقش وتناضل وتردّ كل دليل يلقى إليك دون فكر ولا روية ؟ إن كنت جاهلا فأنا قمين أن أعلمك ، وإن كنت جاحداً فلست أستطيع لك الهداية ، فلْتبق بعيداً عن الله ولْيبق بعيداً عنك هدى الله ، ولن يضيره شيء أن تنكره .

قال : أنا جاهل أريد أن أتعلم .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٠ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٤٣ .

قلت : جميل ، ولكن لتدرك ولـيدرك معك أصحابنا الجالسون معنا أن المرض الذى ألمّ بك مرض خطير ، وأنّ علاجه يحتاج إلى وقت ليس بالقصير ، فلنصطنع الصبر ، وأنا كفيل بالنتيجة هذا المساء .

ما الدواء الذى قدمته للحاضرين ؟ إنه نقاط مما ورد ويرد ذكره فى هذا البحث ولكنى اعتمدت أكثر الاعتماد على آية من الآيات السابقة التى ساقها الله جل جلاله دليلا على وجوده وعظمته ، تلك هى قوله تعالى : ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم(١) .

قلت للحاضرين وفى قمتهم أعضاء هذه الرابطة : هل فيكم مهندسون متخصصون فى العمارة ؟ فأشار خمسة منهم بالإيجاب ، فأعطيت كلا من الخمسة ورقة ، وقلت لهم إن عندى قطعة أرض طولها ثلاثون متراً وعرضها عشرون ، وأودُّ أن أقيم بها مسكناً لى ، أمامه حديقة صغيرة ، فأرجو أن يعمل كل منكم تخطيطاً تقريبياً لهذا المنزل ، وفكر الجميع وخططوا ، وبعد فترة قدموا لى نتائج عملهم ، فنظرت فيها وقلت : آسف ، لا تعجبنى هذه الاقتراحات ؛ فأرجو أن تحاولوا مرة أخرى : وحاولوا مرة أخرى ، ثم مرة ثالثة ، وعرضتُ هذه الاقتراحات على الحاضرين فظهر أن بعضها مكرر مرة أو أكثر من مرة ، وسألت ماذا لو طلبت منكم أن تعملوا عشرة رسوم أو عشرين ؟ فأجاب أحدهم : إن التكرار سيوجد قطعاً ويزيد ، وستتقارب رسوم أخرى إلى درجة كبيرة . قلت : قارنوا هذا بخلق الله ، الذى خلق ملايين البشر ، واستطاع فى هذه المساحة الصغيرة التى هى الوجه أن يميز بين هذه الملايين بحيث لم تختلط ولم يكرر فيها قط ، بل جعل فى كل منها شيئاً ليس فى الآخرين ، يَتمَيَّز به كل إنسان عن الباقين ، وكما فعل الله تعالى فى الأشكال فعل فى الأصوات ،

(١) سورة الروم الآية ٢٢ .

فملايين الناس يتكلمون اللغة العربية ، وملايين يتكلمون الإندونيسية ، ومئات الملايين يتكلمون الإنجليزية ، وهكذا ، ولكن الله جعل لكل إنسان بحّةً خاصة وصوتاً معيناً ، بحث لا تختلط هذه البحة ولا ذلك الصوت بشخص آخر ، فإذا سمعنا صوتاً ألِفْناه ، عرفنا صاحبه قبل أن نراه ، ولا نستطيع أن نقول : إن هذا صوته غليظ وذلك صوته أجَشُّ ، لا ، ولكنَّ هناك شيئاً ميَّز الله به بين الأصوات ، وذلك الشيء لا ندرى كنهه ، ولكنه موجود على كل حال ، وبه نفرق بين أصوات الناس كما فرقنا من قبل بين أشكالهم .

ومثل هذا يقال عن اختلاف الخطوط واختلاف البصمات ، فلكل إنسان طابع خاص فى خطه ، فلا تكاد ترى خطاً أليفاً لك حتى تعرف كاتبه .

أما البصمات ، فقد أثبتت كل الأبحاث العلمية أنها تختلف اختلافاً واضحاً من شخص إلى آخر ، وأصبحت فى الأبحاث الجنائية عظيمة القيمة ، لهذا السبب .

ولو قارنا هذا بما يصنعه الإنسان لوجدنا البون شاسعا ، فالأبواب فى العمارة الواحدة متماثلة تماما ، والسيارات أو الأسِرَّة أو المراوح الكهربائية التى تنتجها شركة معينة ، متماثلة تماماً ممـــا يبرز الفرق بين صنع الله وصنع الإنسان .

وانتهت هذه الجلسة بعد سهرة طويلة ، قدمت فيها ما عرفتُ مما ذكرت ومما سأذكر ، وخرج هؤلاء المثقفون وهم أقرب إلى اليقين ، أو قُلْ : وهم ينعمون بحلاوة اليقين إلا من طَمَسَ الله على قلبه ، وأعتقدُ أنهم كانوا قلائل .

وهناك محادثة مماثلة جرت بين سقراط وبين أريستوديم الذى ينكر

الألوهية ، وسأقتبس موجزاً لهذه المحادثة من الأستاذ محمد فريد وجدى[1] :

سقراط : أيوجد رجال تعجب بمهارتهم وجمال صنائعهم ؟

أريستوديم : نعم ، أعجب فى الشعر القصصى بهومير ، وفى التصوير بزوكسيس ، وفى صناعة التماثيل ببوليكتيت .

سقراط : أى الصناع أولى بالإعجاب ، الذى يخلق صوراً بلا عقل ولا حراك أم الذى يبدع كائنات ذات عقل وحياة ؟

أريستوديم : طبعاً الذى يبدع الكائنات المتمتعة بالعقل والحياة ، إذا لم تكن تلك من نتائج الاتفاق .

سقراط : وهل يمكن أن يكون من الاتفاق أن تُعْطَى الأعضاء لمقاصد وغايات خاصة ؟ عين ترى ، وأذن تسمع ، وأنف يشم ، ولسان يتذوق ، والعين تحاط بحراسة لحساسيتها وضعفها ، فتقفل عند النوم أو عند الحاجة ، وتُحْرَس بالرموش والحواجب ، ويجعل للأذن جهاز خارجىٌ يجمع لها الصوت ، هل يمكن أن يكون كل ذلك من نتائج الاتفاق ؟ والميل المودع فى النفوس للتناسل ، والحنان المخلوق فى قلوب الأمهات بالنسبة للأولاد ، مع ندرة أن ينفع ولد أباه أو أمه ، والطفل الذى يُلْهَم الرضاعة بمجرد ولادته . . . هل يمكن أن يكون ذلك كله من نتائج الاتفاق ؟

أريستوديم : لا ، إن ذلك يدل على الإبداع وعلى أن الخالق عظيم يحب الكائن الحى ، ولكن لماذا لا نرى الخالق ؟

---

(١) دائرة المعارف مادة إله ج ١ ص ٤٨٦ – ٤٨٨ .

سقراط : وأنت أيضاً لاترى روحك التي تتسلط على أعضائك فهل معنى هذا أن تقول إن أفعالك صادرة عن اتفاق وبدون إدراك ؟

وانتهت هذه المحادثة بإيمان أريستوديم .

ويقول الأستاذ مومنيه : إذا افترضنا بطريقة تعلو عن متناول العقل أن الكون خُلِقَ اتفاقا بلا فاعل مريد مختار ، وأن الاتفاقات المتكررة توصلت إلى تكوين رجل ؛ فهل يعقل أن الاتفاقات أو المصادفات تكوِّن كائنا آخر مماثلا له تماماً فى الشكل الظاهرى ، ومباينا له فى التركيب الداخلى وهو المرأة بقصد عمارية الأرض بالناس وإدامة النسل فيها[١] ؟

ويقول المشير أحمد عزت[٢] : إن النظام المحيِّر للعقول ، المشاهَد فى حركات الأجرام التى تتألف منها المجموعة الشمسية لا يمكن أن يحمل على التصادف . . . وما الشيء الذى ندعوه التصادف إلا نتائج القوة الغيبية التى تحيط بنا ، فلابد من الاعتراف بوجود سبب أصلى عام منظِّم لهذا النظام الدقيق .

والقرآن الكريم يتحدث عن المقاييس الدقيقة التى وضعت لهذه المجموعة الشمسية ، قال تعالى :

– والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدَّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم[٣] .

– والشمس والقمر بحسبان[٤] .

---

(١) دائرة المعارف مادة إله جـ ١ ص ٤٨٦ . (٢) الدين والعلم ص ٢١ .
(٣) سورة يس الآيتان ٣٨ – ٣٩ (٤) سورة الرحمن الآية ٥ .

ويعلق مولانا محمد على عَلَى هذه الآيات بقوله : إن العالم يسير وفق نظام محدّد ، وبتدبير محكم ، وكل كوكب فيه يسير فى طريقه المرسوم[١] .

بقى أن نقول إنه غير معقول إطلاقاً أن تسير آلة أيا كان نوعها وأيا كانت جوْدتها دون أن يكون هناك من يراقبها ويلاحظ سيرها ، وأية آلة تشبه هذا الكون الواسع البديع بما فيه من نظم وترتيب ؟ والذى يدل عليه العقل السليم أنّ عين الله لو غفلت لحظة عن هذا الكون لاختلّت نظمه واضطرب سيره ، ولكنه جل شأنه « وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم »[٢] .

ولما كانت نظم الكون واضحة الدلالة على وجود الله ، ولما كان الإنسان بما فيه من حواس ومواهب من أكبر الأدلة على الخالق الأعلى ، كان أولئك الباحثون فى الكون ونظمه ، وفى الإنسان وخلقه ، مِنْ أسبق الناس لمعرفة الله والإيمان به ، لأنهم أكثر عمقا فى بحوث الكون والإنسان ، ولأنهم لايقفون على هامش الحياة ، بل تدفعهم أبحاثهم ليقفوا وجها لوجه أمام المعجزات الكبرى التى يخرُّون لها سجداً ، معترفين اعترافا كاملا بالخالق العظيم ، وقد عبَّر القرآن الكريم عن ذلك بقوله : « إنما يخشى الله من عباده العلماء[٣]

وقد نشر الدكتور دينرت Dennert الألمانى بحثا حلل فيه الآراء الفلسفية لأكابر العلماء بقصد أن يعرف عقائدهم ، فتبين له من دراسة ٢٩٠ عالماً أنهم بالنسبة للعقيدة الدينية كما يلى :

---

(١) The Religion of Islam Vol I P. 78

(٢) سورة البقرة الآية ٢٢٥

(٣) سورة فاطر الآية ٢٨

٢٤٢ من هؤلاء أعلنوا إيمانهم الكامل بالله .

٢٨ لم يصلوا إلى عقيدة .

٢٠ لم يهتموا بالتفكير الديني[١] .

وهكذا نجد أغلبية ساحقة تزيد عن ٩٠٪ يعلنون إيمانهم بالله عن طريق أبحاثهم العلمية ، ونجد مَنْ سواهم لايزالون فى تردد أو لم يهتموا بالعقيدة الدينية فى أبحاثهم ، وأغلب الظن أن المترددين سيصلون يوماً ، وأن الآخرين الذين لم يهدهم العلم لساحة الله يعانون نقصا او تخلصوا منه لَوَصَلوا .

ونختم هذا البحث عن الدليل العقلى على وجود الله بأقوال بعض مشاهير العلماء والفلاسفة .

يقول هرشل العالم الفلكى الإنجليزى : كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلى لا حدّ لقدرته ولا نهاية ، فالجيولوچيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا وتضامنوا على تشييد صرح العلم وهو صرح عظمة الله وحده[٢] .

ويقول الدكتور وتز الكيماوى الفرنسى : إذا أحسستُ فى حين من الأحيان أن عقيدتى قد تزعزعت وجّهت وجهى إلى أكاديمية العلوم لتثبيتها[٣] .

ويقول فولتير ساخراً : لماذا تشككون فى الله ، ولولاه لخانتنى زوجتى وسرقنى خادمى .

---

(١) نقلا عن مجلة الأزهر المجلد ١٩

(٢) دائرة معارف وجدى مادة إله ج ١ ص ٥٠٣

(٣) مجلة الأزهر المجلد ١٩ .

الدليل النقلى : (*)

حفَل القرآن الكريم بآيات كثيرة تتحدث عن الله ؛ عن وجوده ووحدانيته وصفاته ، وقد كانت السور المكيَّة واسعة الاهتمام بالحديث عن الله وإظهار جلاله وكماله ، ولنأخذ سورة واحدة منها نموذجاً لذلك ، قال تعالى فى سورة الأنعام :

— الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ، هو الذى خلقكم من طين ، ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ، ثم أنتم تمترون ، وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سرَّكم وجهركم ويعلم ما تكسبون[١] .

— إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنَّى تؤفكون ، فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصَّلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقرٌّ ومستودع قد فصَّلنا الآيات لقوم يفقهون ، وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلْعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينْعِه إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون[٢] .

(*) أوردنا عند الكلام على الدليل العقلى آيات من القرآن ، وكان الاستشهاد بها من ناحية أنها تحث العقل على التفكير فى الله وصنعه ، فكانت بذلك جزءا من التدليل بالعقل على وجود الله . وهذا يختلف عن الاستشهاد بالآيات هنا كما سنرى .

(١) سورة الأنعام الآيات ١ — ٤ .

(٢) سورة الأنعام الآيات ٩٥ — ٩٩ .

وهناك آية أخرى فيها وعد وفيها قوة يجدر بنا أن نوردها هنا ، وهي قوله تعالى : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون »[1] :

ولا شك أن الدليل النقلى له احترامه وإجلاله عند المؤمنين ، ولكنا نريد مع هذا أن نستدلّ به بطريق آخر ، فقد سبق أن تحدثنا عن محمد ، وعن الأدلة التى أثبتت نبوته ، ووضحنا أن منها الملموس المحسوس الذى لا يتطرق إليه شك عند المنصفين ، كأن يأتى وهو رجل أمى بهذه النظم الخالدة فى الميراث والزواج والطلاق والسياسة والاقتصاد وغيرها ، وكأن يقول : إنى آخر الأنبياء ، ثم تمر القرون تلو القرون دون أن يجىء نبى بعده ، فإذا صدقنا دعوة محمد بعد هذا البحث وتلك الدراسة ، وآمنا أن محمداً رسول الله بلا شك ، كان على العاقل — فيما أرى — أن يؤمن بما جاء به محمد ما اتضح له وما لم يتضح ، ما دام قد آمن بصدق محمد ، فإذا قَصُرَ فكرُه عن فهم الإسراء والمعراج مثلا فليؤمن بهذه الحادثة إيمان يقين ، تصديقاً لمحمد الذى آمن برسالته بعد تمحيص وبحث ، وإذا قصر فكره عن سبب ركعات الصلوات ، فليقبل ذلك قبول إيمان من الرسول الذى صدّق به واعتنق الدعوة التى جاء بها ، وإذا قصر فكره وخياله عن واهب الوجود الفرد الصمد ، فليؤمن به إيمان يقين لأن القرآن المعجز تحدث عنه ، ولأن محمداً الذى صدقناه والذى هو أكثر منا صفاء وأسمى مكانة حدثنا عنه وعلّمنا جلاله وجبروته ، والاعترافُ بالله أسمى ما جاء به الأنبياء .

أما إذا ظل الإنسان بعد إيمانه يبحث فى مواضع الشُّبَه ، وكان عقله قاصراً عن فهمها فإنه يوشك أن يزلّ ، وهذا يسبب لعقيدته الاهتزاز لتعرضها لأحداث أسمى من مستواه .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٦

تعال بنا نقارن ذلك بحياة الإنسان ؛ إذا كنت مثلا تريد أن تذهب إلى طبيب فإن لك أن تبحث عن طبيب ماهر ، وتسأل الناس عنه ، وتتأكد من مقدرته وإجادته لفنّه ، فإذا تمّ لك اختياره وذهبت إليه ، فليس لك أن تسأله عن الدواء الذى سيصفه إليك ومناسبته للمرض ، والعناصر التى يتكون منها ، ونسبة هذه العناصر فيه ، ولو ذهبت تسأله عن ذلك لضاق بك ولما استطعت أن تفهم ما يقول .

وإذا كنت تريد أن تتزوج فإن من حقك أن تبحث صفات المرأة التى ستتزوجها ، ابحث جمالها وخلقها ودينها وكل مطالبك فيها ، فإذا كانت نتيجة البحث اطمئنانك ورضاك وتمّ بذلك الزواج ، فهل من الخير بعد ذلك أن تستمر فى البحث والاختيار ؟ وهل تقبل زوجتُك أن تَمْتَحِنَ دائماً عفتها وشرفها ؟ أغلب الظن أنها لن تقبل ، وأن هذا سيسبب اهتزازاً للحياة الزوجية ، فانعدام الثقة يعتبر بدء النهاية .

وكذلك الحال إذا أردت أن تشترى سيارة أو بيتاً ، لك أن تختبر وتبحث فإذا استقر رأيك على الشراء واشتريت ، فلا تواصل بحثك وإنما عليك أن تدبّر أمرك وأن تنظّم لنفسك حياة استقرار ودعة .

وقد قلت فى كتابى : « تاريخ التربية الإسلامية » عند الحديث عن الإجازات العلمية[1] ، إنه منذ مئات السنين كان على من يريد أن يعمل مدرساً أن يعلن ذلك ، ويحدد اليوم الذى سيبدأ فيه إلقاء دروسه ، وكان الطلاب يجتمعون إليه ويُعِدُّون له الأسئلة المعقدة ، ويجرى حوار بينه وبينهم ، فإن استطاع أن يشرح لهم ما أرادوه ثبتت قدمه ، واعتبر ذلك إجازة له ليشتغل بالتدريس حتى ولو أخطأ بعد ذلك ، أما إذا عجز عن الإجابة فإنه يقوم معهم ويلتحق مرة أخرى بإحدى حلقات الشيوخ ، ومر

---

(١) انظر هذا الفصل ص ٣٥٤ وما بعدها .

الزمن وأصبحت هناك امتحانات وإجازات دراسية ، ولكن الطلاب لايزالون حتى اليوم يسيرون على نهج السابقين تقريبا ، فإننى أذكر أنه كلما دخلتُ جامعة لأعلِّم فيها لأول مرة ، تنهال علىّ أسئلة الطلاب وأرى فى عيونهم التحفز ومحاولة التعجيز ، فإذا أقنعتهم بكفاءتى ووضحت لهم ما غمض عليهم سَلِسُوا لى وألقوا إلىّ الزمام .

والخلاصة أنك إذا قبلتَ الإسلام دينا ، وارتضيتَ محمداً رسولا ، كان عليك أن تعتقد بما جاء به ، حتى بتلك النقاط التى لم يتضح لك كُنْهُهَا وتظهر لك أسبابها ، والقرآن الكريم هو قمة ما جاء به محمد ، فليكن نورا نهتدى به ، وشعاعاً يبين لنا الطريق .

التجربة الشخصية :

هناك طريق آخر لمعرفة الله ، وللإيمان بأن للعالم خالقا يدبِّره وينظمه ، وذلك الطريق هو التجربة الشخصية ، وطريق التجربة الشخصية طويل ، يحتاج إلى شيء من الدقة والصبر ، ولكنه يؤدى إلى غاية دقيقة لا تحتمل الشك ولا التردد . وقد قال بهذا الطريق بعض مشاهير العلماء وفى قمتهم الإمامُ الغزالى ، ولا يقصدون أن يقدموا لك دليلا على وجود الله وصفاته ، بل أن يصفوا لك طريقاً لتجد أنت خلاله الدليل ، وحينئذ لا تجادل ولا تناضل .

والتجربة الشخصية يمكن أن يقوم بها شخص واحد ، ويمكن أن تقوم بها نخبة محدودة من الأصدقاء ، وفحواها أن يُثْبِتَ الإنسان أدقّ الأحداث التى تمر به أو تحدث أمامه ، ويؤكد القائلون بهذا الرأى أنه بعد فترة ليست طويلة ستجد ألاّ مناص لك من الإيمان بالله والاعتراف به ، فستدرك أن الأحداث التى مرت بك ليست من المصادفات إطلاقاً ، وإنما هى ترتيب محكمٌ دبَّره صانع حكيم .

وليس لدىَّ ما أقوله أكثر من هذا عن طريق التجربة الشخصية ، لأن هذا الطريق متروك لك أنت ، وبمقدار صفاء نفسك ورغبتك فى المعرفة ، وبمقدار الدقة وبُعد النظر فى فهم التجارب التى تمر بك ، بمقدار ذلك ستكون النتيجة سريعة أو بطيئة .

لقد اتبعت أنا نفسى هذه الطريقة وعرفت بها الله معرفة يقين لا يعرف الشك ، هل تريدنى أن أقص عليك بعض تجاربى فى هذا المجال ؟ سأفعل ، ولكن لا لأدفعك بها إلى الإيمان ، بل لأذكر لك أنها دعمت إيمانى وزادتنى يقينا ولأذكر لك كذلك أن هذه نماذج لتجارب قد تواجه أنت أقوى منها :

فى قرانا بريف الجمهورية العربية المتحدة تزوج شاب قليل الثقافة يشتغل بالزراعة من إحدى فتيات القرية ، وكان عمرهما متقارباً يزيد الشاب عن العشرين قليلا وتنقص الفتاة عن العشرين سنةً أو سنتين ، وحملت الفتاة بعد الزواج بسرعة كعادة أغلب الريفيات حيث لا تعرف وسائل تأجيل الحمل أو التحكم فيه ، وبعد انتهاء مدة الحمل ولدت طفلين ، ومرت فترة قصيرة حملت بعدها أيضاً ثم وضعت طفلين كذلك ، ومعنى ذلك أنه فى أقل من سنتين أصبح فى البيت أربعة أطفال ، وسرعان ما حملت للمرة الثالثة ، فاستشاط زوجها غضباً ، وخاف أن تلد طفلين للمرة الثالثة فتجعل فى بيته الصغير ستة أطفال فى مدة وجيزة ، وهو رجل رقيق الحال ، وأقسم وهو فى ثورة غضبه أنها طالق إذا ولدت هذه المرة طفلين أيضا ، وبكت المرأة ، وسخر الناس ، وتمت أشهر الحمل فولدت المرأة . . . ولدت ثلاثةَ أطفال ، ومعنى ذلك أن يمين الطلاق لا يقع لأنه أقسم على اثنين فجاء ثلاثة ، ثم كيف يتحدى الخالق ؟ لتكن الهزيمة عليه ، ولكن هذا الرجل

صدمته هذه التجربة فاستغفر الله وتاب ، وأغدق الله عليه من الرزق ، والعجيب أن المرأة توقفت عن الحمل والولادة بعد ذلك ، كأنما أخرجت كل ما كان فى رحمها وفرغت من الحمل والولادة .

هذه تجربة ، وإليك تجربة أخرى :

فى أسرة غنية حملت سيدة من سيدات الطبقة العليا ، وولدت طفلا ذكراً جميلا ، ولكن بإحدى يديه إصبع زائدة ، ولما اغتمّت الأم لذلك هدّءوا روعها واستدعوا أمهر الأطباء حيث قطعوا تلك الإصبع ، ومرّ الزمن وحملت السيدة مرة أخرى وولدت ، ولكن طفلها هذه المرة كان بإحدى يديه أربع أصابع فقط ! ! ! يالله كأنّ هتافا يصيح بهم : إذا كنتم استطعتم أن تقطعوا الإصبع الزائدة بسرعة فهل تستطيعون أن تضيفوا الإصبع الناقصة ؟

وإليك تجربة ثالثة :

كان عمدةٌ من عمد الريف بالجمهورية العربية المتحدة ، وكان كأغلب العمد يفتح بيته لجلسات الريف حيث يتحاكم المتنازعون وتُفَضُّ المنازعات ، واشتهر الرجل بحب التوفيق بين الناس فكان يُسْتَدْعى لمثل هذه الجلسات بالقرى المجاورة ، أو كانت منازعات تلك القرى تأتى إليه .

وكان لهذا العمدة ابن تدرج فى التعليم حتى دخل كلية الحقوق ثم تخرج منها واشتغل بالمحاماة ، وكانت هذه الحادثة نقطة تحول فى تاريخ الرجل ، فلم يعد الرجل يحب فض المنازعات بل ربما أثار الخصومات ، وكان يقصد بذلك أن يدفع لابنه المال عن طريق القضايا التى أصبحت ترسل للمحاكم ، بعد أن كانت لا تتجاوز دوّار العمدة المسكين .

ولكن الرجل لم يفرح بابنه ولم يدفع له الثراء ، وإنما جلب على ابنه سخط الناس ، فذبل الابن وسقط مريضاً ، وأنفق الرجل على ابنه أضعاف ما دفع إليه من مال .

وتجربة رابعة :

أحد باشوات العهد الماضى بالجمهورية العربية المتحدة كان يبعث بابنه إلى المدارس ، وكان الابن يركب السيارة الفاخرة كل يوم فى ذهابه وغدوه ، وكان للباشا طباخ أسمر اللون له ابن فى عمر ابن الباشا ، تقريبا ، وقد التحق ابن الطباخ بالمدارس الأولية فأظهر استعدادا طيبا ، ثم ألحقه أبوه بالمدارس الابتدائية ، ولكن الباشا صاح فى وجهه : إذا كان ابنك يريد أن يتعلم فمن سيكون طباخ ابنى ؟ وأوشك الطباخ أن يخضع لرغبة الباشا ، وما كان له إلاّ أن يفعل ، ورسم لابنه أن يتعلم الطبخ ليصبح طباخ ابن الباشا فى المستقبل ، ولكن الولد كان يقرأ فى غفلة من الباشا ومن ابن الباشا ، وكان يستعمل كتب ابن الباشا ، وشجّعه على ذلك مدرس صغير لمح ذكاءه ، وتقدم ابن الطباخ للشهادة الابتدائية من الخارج فحصل على مجموع كبير يضمن له المجانية فى التعليم الثانوى ، وتمرّد ابن الطباخ على أبيه وأصر على أن يتعلم ، وهجر بيت الباشا إلى بيوت أخواله والتحق بالمدرسة ، وعانى ابن الطباخ حياة مُرّة فقيرة ولكنه صبر ، وكان يكتفى بمصباح ضئيل يستذكر عليه دروسه ، وأتم دراسة الجامعية وكان أول الناجحين فأرسلته الجامعة مبعوثاً على نفقتها للحصول على الدكتوراه فى الخارج .

وبدأ الحظ يلمع لابن الطباخ وعاد دكتورا فى الهندسة ، وفُتِحَ أمامه الباب ، وبدأ يكوّن ثروة ليست بعيدة عن منطقة نفوذ الباشا ، وجاء العهد الجديد لمصر ، وألغيت الألقاب وحددت الملكية ، واضطر الباشا

أن يبيع من أملاكه ما زاد عن القدر المسموح به . فاشترى ابن الطباخ أو الدكتور المهندس بعض هذه الأطيان ، ثم مات الباشا واقتسم أبناؤه ثروته فأصبحوا إلى الفقر أقرب منهم إلى الغنى ، وأصبح للدكتور مكانة أسمى وعدد من الطباخين ، ولكنه لم يخطر بباله قط أن يعتقد أن ابن الطباخ لا بد أن يكون طباخاً لابنه ، لأنه انتفع بالدرس الذى عاش فيه وعاناه .

وتجربة خامسة :

تزوج شاب متوسط الثقافة والثراء من فتاة أحلامه ، وبعد فترة رزق منها بطفلة سمحة كانت مبعث سرور أبويها ، ثم حملت الزوجة مرة أخرى ووضعت طفلة ، ولم يحسن الأب استقبال الطفلة الثانية فقد كان يتمنى أن يرزق طفلا ، وحملت المرأة للمرة الثالثة ووضعت طفلة كذلك ، وهنا أظهر الرجل من سخطه ما كان قد كتمه فى المرة السابقة ، ولم يرض بقضاء الله ، وربما أهمل بعض مطالب الفتيات الصغيرات ، وأصبح شغفُه بابنٍ حديثَ الناس ، وحملت المرأة للمرة الرابعة ، وأخذ قلبها يدق ويضطرب ، وأخذت الهواجس تلعب بنفس الرجل الذى نفد صبره ، ووضعت المرأة ذكراً هذه المرة ، وقامت الزينات ودقت الطبول ، واتجهت كل العناية للطفل الذكر ، وفى غمرة الفرح اكتشف الطبيب أن خلق الطفل ليس سويا ، وأن بإحدى رجليه عرجاً واضحاً . . . ومرت سنون رأى الأب فيها ابنه مصدر شقاء له ومبعث ألم لانحراف صحته وعدم استواء عوده ، أما الفتيات فكان مرور الأيام يزيدهن روعة وجمالا ، وكن لأبيهن مصدر اليمن والسعادة والنعيم .

وتجربة سادسة :

شاب فى مقتبل العمر ، تزوج فتاة أحلامه ، وكان يعمل مدرساً ،

وكانت زوجته تشتغل أيضاً بالتدريس ، وأنجبا طفلا فَرِحا به أشد الفرح ؛ ولكن سرعان ما أحسَّا بالعناء الشديد لصعوبة الجمع بين رعايته وبين عمل أمه ، وكان يمرض أحيانا ، أو كانت الخادم تتغيب أو تنقطع ، فيضطر الأب أو الأم للتخلف عن العمل ، أو يتركان الطفل فى رعاية بعض الأقارب أو الأصدقاء ، وفكر الزوجان فى أن تتوقف الأم عن العمل ، ولكن ظروفهما الاقتصادية كانت ترغمهما على طرح هذه الفكرة .

وفوجئ الزوجان بأعراض الحمل تظهر على الزوجة ، وجُنَّ جنونهما ، فقد ناءا بطفل ، فكيف باثنين ، وأسرعا لطبيب ليساعدهما على التخلص من الجنين ، ولكن الطبيب رفض أن يقوم بإسقاط الحمل ، وإزاء ضغطهما نصحهما بأن تَجْرِىَ الزوجة وتقوم ببعض الجهد الجسمانى ليتم الإجهاض ، وقبل الزوجان نصيحة الطبيب ، وراحا يصعدان الهرم ويهبطان ، وجريا شوطاً بعيداً ، ثم عادا إلى البيت ينتظران التخلص من الحمل ، وفى البيت اصطدما بعاصفة مريرة ، فقد وجدا طفلهما قد فارق الحياة إثر سقطة من فوق سلم كان يصعده فى غفلة من الخادم .

ولم يضع الزوجان وقتا فى النحيب ، بل سارعا للطبيب الذى كانا عنده منذ ساعات يطلبان عونه — هذه المرة — ليوقف الإجهاض ، ومرة أخرى قال الطبيب : لاأستطيع ، وليس إلا الله يستطيع عونكما ، وانطلق دعاء الزوجين أن يرفق الله بهما ، فاستجاب الله للدعاء ورعا الجنين الذى أصبح أملا لهما ، وكان منذ ساعات شرًّا يحاولان التخلص منه .

تلك نماذج من تجاربى لاأريد أن أطيل عليك بسرد سواها ولكنى أدعوك أن تبدأ تجاربك الشخصية التى تقودك قطعاً لاعتقاد جازم أن للكون مالكا سبحانه ، خلقه ويدبر أمره ويرعاه .

* * *

وبعد ، لماذا ينكرون الله وهو ملجأهم عند الهزيمة ، وملاذهم إذا أصابهم الفشل ؟ وطالما نسمع الشخص عند الإخفاق ينسب إخفاقه إلى إرادة الله ، ومعنى هذا عدم يأسه ، ومعناه كذلك أن يحاول العمل من جديد رجاء أن يكون عون الله معه فى الجولة الأخرى ، والإنسان دائما ينجح ويفشل ، ويعلو وينخفض ، ومن الخير أن يظل على صلة بالله يدعوه عند الشدة ويستعين به عند العجز ، فلا يحس أنه وحده فى الشدائد ، ولا يضعف أمام الصعاب لأنه يؤمن أن الله معه ، ومن كانت معه قوة الله استسهل الصعاب واستهان بالمشكلات .

وحدانية الله :

وحدانية الله فى التفكير الإسلامى تشمل الوحدة فى الوجود ؛ أى أنه إله واحد فليس فى الإسلام تعدد آلهة بأية صورة من الصور ، وتشمل كذلك الوحدة فى التركيب ، فليس الله مكوناً من أجزاء ، وتشمل ثالثاً الوحدة فى العبادة فليس هناك معبود إلا الله ، وليس هناك صاحب سلطان مطلق يصرِّف الأمر كله ، ونتَّجه له خاضعين ساجدين إلا الله الواحد القهار .

والتوحيد بهذا المعنى عظيم الفائدة للجنس البشرى ، لأنه يجمع البشر حول إله واحد ، وفى ذلك توحيد اتجاههم وغرس نظام الأخوة بينهم ، أما تفرق الآلهة فمعناه تفرق البشر ، وذهاب كل فريق إلى التعصب لما وُجِّهَ قلبه إليه ، وفى ذلك فساد النظام وخسارة للبشرية[1] .

ومن فوائد عبادة الله وحده عبادة مباشرة دون وساطة ودون زلفى ، تحريرُ الفكر البشرى من الخضوع لغير الله من إنسان أو حيوان أو جماد ،

(١) انظر رسالة التوحيد للإمام محمد عبده ص ٧٦ — ٧٧ .

ومن نبات وأجرام سماوية وقوى طبيعية ، ومعنى ذلك ألا يعبد الإنسانُ الإنسانَ ، فنى عبادة الإنسان للإنسان ذل وطبقيّةٌ لا يعرفها التفكير الإسلامى ، ومعنى ذلك أيضاً ألا يعبد الإنسان ما سخره الله للإنسان من حيوان أو نبات أو غيرهما فنى تخليص الإنسان من هذه العبادة وضعٌ له فى مكانه الطبيعى ، سيداً لمـا سُخر له ، لا عبداً أمام مخلوق ينقص فى تكوينه عن مستوى الإنسان[1] .

وتوحيد الله وعبادته دون سواه تُكْسِبُ المسلمَ الأنَفَةَ والعزة والشجاعة ، ما دام يدرك أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا[2] » وما دام يدرك أن موته وحياته بيد الله لا سلطان لمخلوق على ذلك « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا »[4] وأن الرزق منحة الله لا منحة غيره « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر »[3] .

وتوحيد الله وضع طبيعى حتى أنه يلجأ إليه من يقولون بالتعدد ، إذ يظل هؤلاء فى صراع بين التوحيد الذى تجذبهم له طبيعة الألوهية ، وبين اتجاهاتهم التى هى تعدُّدٌ بصورة من الصور ؛ فنجد المسيحيين يضيقون بالتعدد ، ويدركون ضرورة هزيمته أمام العقل فيلجئون إلى القول بأن اعتقادهم هو : وحدةٌ فى تثليث أو تثليث فى وحدة ، والمصريون القدماء تتعدد عندهم الآلهة ولكنهم يؤمنون بإله أعظم هو سيد الآلهة وكبيرهم ، ويرى المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز أنه لا يقول بالتعدد إلا العقل

---

(١) Mawlana Muh. Ali: The Religion of Islam Vol. I P. 51

(٢) سورة التوبة الآية ٥١ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٤٥ .

(٤) سورة العنكبوت الآية ٦٢ (انظر روح الدين الإسلامى للأستاذ عفيف طبارة ص ٦٥) .

القانع المتعجل الذى يقف عند أدنى مبادئ الغيب وغاياته ، فيرى أن وراء كل فصيلة من الظواهر الكونية مبدأ يدفعها وينظمها ، فيقوده ذلك إلى الاعتقاد بوجود إله للريح وإله للشعر وإله للحرب وهكذا ، أما العقول الواعية الطليقة المتسامية ، فإنها ترى أن خلف هذا كله قوة واحدة أسمى وأعظم ، تصرّف جميع الشئون ، فهى لا ترضى بآحاد القوانين ، ولكنها تسمو إلى قانون القوانين وتستشرف إلى اليد التى جمعت تلك القوانين ونسقتها[١] .

ولما كان التوحيد ضرورياً فإنه كان قاعدة الأديان السماوية كلها قبل أن تفسدها الأفكار الطارئة الضالة ، قال تعالى « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون »[٢] .

وقد لجأ القرآن الكريم للعقل يحكّمه فى مسألة التوحيد والتعدد ، ويثبت بأسلوب منطقى أن خالق الكون ومدبّره لا بد أن يكون واحداً ، كما أن لكل دولة رئيساً واحداً ، وللسيارة سائق واحد ، وللمدرسة ناظر واحد ، وهكذا ، اقرأ معى هذة الآيات :

– لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا[٣] .

– ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض[٤] .

– ولا تدع مع الله إلهاً آخر ، لا إله إلا هو ، كل شىء هالك إلا وجهه[٥] .

---

(١) انظر « الدين » ص ٨٩ (٢) سورة الأنبياء الآية ٢٥ .
(٣) سورة الأنبياء الآية ٢٢ . (٤) سورة المؤمنون الآية ٩١ .
(٥) سورة القصص الآية ٨٨ .

ويقدم علماء الكلام على توحيد الله دليلا سهلا قاطعاً هو إذا كان هناك تعدد آلهة فهل كل إله يستطيع أن يعمل وحده كل شيء أو أنه عاجز وحده عن ذلك ؟ فإذا كان يستطيع وحده أن يعمل كل شيء فما فائدة الآلهة الآخرين ؟ وإن عجز وحده عن ذلك كان بعيداً عن طبقة الألوهية ، فالإله لا يمكن أن يكون عاجزاً ولا أن تتوقف قوته على سواه .

صفات الله :

قصدنا بهذا العنوان « صفات الله » أن نوضح أن ذات الله توصف ولا تدرك ؛ فالله سبحانه وتعالى خالق الكون ، وطبيعة الخالق مخالفة لطبيعة المخلوق ، كما يختلف النجار عن الباب الذى يصنعه ، وعلى هذا يرشدنا القرآن إلى معرفة الله (بآثاره الدالة على صفاته ، وكمال جلاله وجماله ، وتنزهه عن المماثلة لخلقه ، أو الاتحاد ، أو الحلول فى شيء مما خلق ، وأوصد أمامه باب التطلع إلى معرفة حقيقته وذاته وصرفه عن محاولة التفكير فى هذا الباب . . . . والعجزُ عن إدراك حقيقة الذات الأقدس عقيدة من عقائد الإيمان بالله ، وهو نفسه برهان على سمو الألوهية الحقة عن الدخول فى دائرة التفكير العقلى المحدود بطبيعته ، والذى لا يجد مجالا لتخطى ما وراء الكون)(١) .

ويقول الإمام محمد عبده إن النظر فى الخلق يهدى بالضرورة إلى المنافع الدنيوية ويضىء للنفس طريقها إلى معرفة مَنْ هذه آثاره ، وعليها تجلت أنواره . . . . . . وأما الفكر فى ذات الخالق فهو طلب للاكتناه من جهة ، وهو ممتنع على العقل البشرى ، لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين ، ولاستحالة التركيب فى ذاته ، وتطاولٌ إلى ما لم تبلغه القوة البشرية من

---

(١) الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ص ٢٠ .

جهة أخرى ، فهو عبث ومهلكة لأنه يؤدى إلى الخبط في الاعتقاد ولأنه تحديد لما لا يجوز تحديده وحصر لما لا يصح حصره[١] .

وقد قال القرآن الكريم موضحاً ذلك المعنى « ليس كمثله شيء »[٢] وقال « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير »[٣] وقال « ولا يحيطون به علما »[٤] وقال صلى الله عليه وسلم (تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله) وقال أيضاً (تفكروا فى كل شيء ولا تفكروا فى ذات الله) .

أما صفات الله كما يراها الإسلام فإن مصدرها القرآن الكريم ، وهى فى مجموعها تصوّر الكمال المطلق ، وليس للمسلم أن يناجى ربه باسم أو صفة لم يضعه الله لنفسه ، فهو أعلم بما يدل على ذاته وآثاره وصفاته[٥] وإليك آيات من القرآن الكريم تحمل بعض صفات الله :

– بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين[٦] .

– ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها[٧] .

– تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذى الطول ، لا إله إلا هو إليه المصير[٨] .

– يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور[٩] .

---

(١) رسالة التوحيد ٤٨ – ٤٩ . (٢) سورة الشورى الآية ١١
(٣) سورة الأنعام الآية ١٠٣ (٤) سورة طه الآية ١١
(٥) الشيخ محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ص ١٩ .
(٦) سورة الفاتحة الآية ١ – ٤ . (٧) سورة الأعراف الآية ١٨٠ .
(٨) سورة غافر الآية ٢ – ٣ . (٩) سورة غافر الآية ١٩ .

— هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصوِّر له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم(١) .

— إن بطش ربك لشديد ، إنه هو يبدئ ويعيد ، وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد فعَّالٌ لما يريد(٢) .

— وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق ، ويوم يقول كُنْ فيكون ، قوله الحق ، وله الملك يوم ينفخ فى الصور ، عالم الغيب والشهادة ، وهو الحكيم الخبير(٦) .

سبِّح اسمَ ربك الأعلى ، الذى خلق فسوَّى ، والذى قدر فهدى ، والذى أخرج المرعى(٤) .

— ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم(٥) .

* * *

وبعد ، فالإيمان بالله على النحو الذى وصفنا ، قمةُ العقائد الإسلامية ، ويجىء بعد الإيمان بالله ، الإيمانُ بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والإيمانُ بأن محمداً خاتم الرسل ، ولا شك أن مَنْ آمن بالله آمن بكلامه ووعده ووعيده ، فأصبح سهلا عليه أن يؤمن بما جاء به رسل الله من توجيه وتعليم ، ولا شك أن العقل السليم يقنع دون تردد أنه لابد من معاد ، وأن الحياة الدنيا لايمكن أن تكون نهاية الكون ، ولو كانت كذلك لطغى الناس فيها وبغوا ، ونالوا ما أحبُّوا أن ينالوه بأية وسيلة من

---

(١) سورة الحشر الآية ٢٢ — ٢٤ .
(٢) سورة البروج الآية ١٢ — ١٦ . (٣) سورة الأنعام الآية ٧٣ .
(٤) سورة الأعلى الآية ١ — ٦ . (٥) سورة السجدة الآية ٦ .

الوسائل غير هيابين ولا خائفين ، ولكن النفس البشرية من تلقاء نفسها تدرك أن بعد هذه الحياة حياة ، وأن بعد العمل حسابا .

ويتضح من مبادئ الدين الإسلامى سماحتُه مع أَتْباع كل الديانات ، إنه يجمع الناس جميعاً على إله واحد ، ويجعل من مبادئه الاعتراف بالرسل السابقين وبكتبهم . فهو يمد يده لأتباع الديانات السماوية ليلتفوا حوله ، ويمد يده لمن لا دين له ليدخل حظيرة النور .

ومن مفاخر الدين الإسلامى أنه سوَّى بين الناس ، ولم يجعل لجنس على جنس مزيَّة فكان بذلك دينا يقاوم الطبقات ويقاوم تسلط الشعوب على الشعوب ، ويقول أستاذنا الإمام محمد عبده(١) فى ذلك الموضوع : رَفَعَ الإسلام كلَّ امتياز بين الأجناس البشرية ، وقرَّر لكل فطرة شرف النسبة إلى الله فى الخلقة ؛ وشرف اندراجها فى النوع الإنسانى فى الجنس والفصل والخاصة ، وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذى أعده الله لنوعها ، على خلاف ما زعمه المنتحلون من الاختصاص بمزايا حُرِم منها غيرهم ، وتسجيل الخسَّة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم ، فأماتوا بذلك الأرواح فى معظم الأمم ، وصيروا أكثر الشعوب هياكل وأشباحاً .

---

(١) رسالة التوحيد ص ١٥٩ – ١٦٠ .

النبـــوة

الحاجة إلى الرسل (*) :

يتفق الناس على أن من الأعمال ما هو نافع ومنها ما هو ضار ، وبعبارة أخرى منها ما هو حسن ومنها ما هو قبيح ، ومن عقلائهم وأهل النظر الصحيح والمزاج السليم منهم من يمكنه إصابة وجه الحق فى معرفة ذلك ، ولكنهم يختلفون فى النظر إلى كل عمل بعينه اختلافهم فى أمزجتهم وسحنهم ومناشئهم فلذلك ضربوا إلى جانب الشر ، وكلٌّ يظن أنه إنما يطلب نفعا ويتقى ضررا ، فالعقل البشرى وحده ليس فى استطاعته فى الغالب أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته فى هذه الحياة .

وجمهور الناس لا تساعدهم عقولهم لمعرفة بعض الغيبيات ، كمعرفة الله والتحقق من الحياة الآخرة ، ومعرفة الملائكة والجن ، كما لا تستطيع عقولهم أن تقرِّر لكل نوع من الأعمال جزاءه فى الدنيا والآخرة ، فعقوبة السارق ، وعقوبة قاطع الطريق ، وثواب الصبر والاحتساب ، وثواب الصلاة والزكاة ، كل هذا وسواه مما يعجز العقل العام أن يصل إليه ويحدده .

(*) [ا] من أهم المراجع عند الحديث عن الحاجة إلى الرسل كتاب « رسالة التوحيد » لأستاذنا الإمام محمد عبده ، وقد اقتبسنا منه بتصرف بعض العبارات فى هذه المقدمة (انظر ص ٧٦ — ١٠٠) .

[ب] النبىء بالهمز ويخفف ، هو من يتلقى نبأ عن الله ، وقد يكون النبى رسولا ، فهو نبى فى تلقى النبأ ، ورسول فى تبليغ الرسالة ، وقد يستعمل اللفظان أحدهما مكان الآخر ، وقد يستعملان مجتمعين (انظر كتاب الدين الإسلامى لمولانا محمد على ص ١٥٢) .

وحياة الإنسان قصيرة ، ويُقْضَى شطر كبير منها بين ضعف الطفولة وجهلها ، فليس لدى الإنسان فرصة كافية للتجارب والمحاولات والخطأ والصواب .

وجمهور الناس يحيون للذة المادية ، ويهملون لذة أدوم وأعمق وهى اللذة الروحية ، فطبيعة الإنسان أن يسعد بالطعام اللذيذ ، والفراش الوثير ، والمرح والحبور ، أكثر من سعادته بالوفاء ، وعوْن الضعيف ، وكلمة الحق لنصرة المظلوم .

ومن طبيعة الإنسان كذلك حبه لنفسه ، وتقديمه الأقربين إليه على الأبعدين عنه ، وفى ظل هذه الأنانية لا يستقيم المجتمع الإنسانى ولا يسير قدماً إلى النجاح .

لهذه الأشياء وسواها من نظائرها جاء الرسل : جاءوا ليرشدوا العقل إلى الخير والشر ، ولوصف النعيم الذى ينتظر المطيع ، والعقاب الذى سينزل بالعاصى .

جاءوا ليرشدوا العقل إلى معرفة الله وما يجب أنْ يعرف من صفاته ، وليبينوا كذلك أن ذات الله ليست موضع بحث ولا يصل إليها عرفان .

جاءوا ليعلِّموا الناس من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده فى العلم به كالملائكة والجن وأحوال الآخرة مما لو صعب على العقل اكتناهه لم يشقّ عليه الاعتراف به .

جاءوا ليبلغوا الناس أوامر الله ونهيه ، ووعده ووعيده ، وليشرحوا لهم ما فرضه الله عليهم من عبادات وما قرره من وسائل للمعاملات .

جاءوا « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل »[1] .

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٥ .

جاءوا لئلا يقول الناس « ربنا لو أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى »[1] .

جاءوا ليدعوا الناس إلى تحويل اهتمامهم من اللذائذ الفانية إلى الرغائب السامية ، من عبادة المادة إلى التمتع بالروحانيات ، ليضعوا بذلك الأسس لمجتمعات صالحة فيها تعاون وفيها إيثار .

جاءوا على العموم لتحقيق خير الناس فى دنياهم وآخرتهم ، على أن يحملوا للناس ما تحتمله عقول الناس من إرشادات .

ومن الواضح أنه ليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرسين ومعلمى الصناعات ، فليس مما جاءوا له تعليم التاريخ ، ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب ، ولا بيان ما اختلف من حركاتها ، ولا ما استكن من طبقات الأرض ، ولا مقادير الطول فيها والعرض ، ولا ما تحتاج إليه النباتات فى نموها ، ولا ما تفتقر إليه الحيوانات فى بقاء أشخاصها وأنواعها ، وغير ذلك مما وضعت له العلوم وتسابقت فى الوصول إلى دقائقه الفهوم ، فإن ذلك كله من وسائل الكسب والبحث ، هدى الله إليه البشر بما أودع فيهم من الإدراك والعقول . وكلُّ دَخْلِ الأديان فى ذلك هو حراسة العقول حتى لا تشط أو تزل ، فتحدث بأبحاثها رَيْباً فى الاعتقاد بالأساس العام لهذا الكون ، وهو تقرير إله واحد خالق له ، متصف بكل صفات الكمال . وإذا كان قد ورد فى كلام الأنبياء بعض إشارات للكون وأحوال الأفلاك ، فالمقصود توجيه النظر إلى حكمة المبدع وقدرة الصانع ، أما التفاصيل العلمية للكون والأفلاك فأبحاث يطلبها من استطاع من مجالتها العلمية .

---

(١) سورة طه الآية ١٣٤ .

الرسالات الخاصة والرسالة العامة :

عند حديثنا فى مطلع هذا الكتاب عن « تطور الرسالات » وضّحنا أن الرسالات كلها من عند الله ، وأنها تتفق فى الأصول العامة المهمة كتوحيد الله وترك عبادة الأوثان ، ثم تتطور بعد ذلك بتطور الجنس البشرى واستعداده لتلقى تفاصيل أوسع ودراسات أعمق وتبعات أكثر . وعن الرسلات التى سبقت الإسلام ، يقول القرآن الكريم :

— وإن من أمة إلا خلا فيها نذير[١] .

— ولكل أمة رسول ، فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون[٢] .

— ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت[٣] .

— ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات[٤] .

— وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون[٥] .

— قال (نوح) : يا قوم إنى لكم نذير مبين ، أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون[٦] .

وهكذا كانت الرسالات التى سبقت الإسلام غير شاملة ؛ بالنسبة للدعوة نفسها ، فلم تكن الدعوة كاملة التفاصيل ، وإنما حوَت ما يستطيع العقل آنذاك هضمة وفهمه ، وكانت كذلك غير شاملة بالنسبة للبشرية ،

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٤ .
(٢) سورة يونس الآية ٤٧ .
(٣) سورة النحل الآية ٣٦ .
(٤) سورة الروم الآية ٤٧ .
(٥) سورة الأنبياء الآية ٢٥ .
(٦) سورة نوح الآيتان ٢ — ٣ .

فقد كانت الرسالة محدودة لقوم معينين ، وجاءت رسالة الإسلام ، وهى خاتمة الرسالات ، ومن هنا تحتّم أن يوجد فيها من العناصر ما يجعلها تناسب كل زمان ومكان ، ومن أهم هذه العناصر : شمولها لألوان من التعاليم واسعة فى الميادين المختلفة كنظام الميراث والزواج والطلاق والسياسة والاقتصاد وغيرها ، ومنها كذلك وجود الاجتهاد فيها وإباحته للعلماء الذين يصلون إلى مستواه من أى جنس وأى لون ليشرحوا لأقوامهم ما يجدّ من أحداث داخل الإطار العام الذى نظّمه الإسلام ، ثم كان من عناصر هذه الرسالة أن تعترف بالرسالات السماوية السابقة ، وبما جاء به هؤلاء الرسل من كتب ، وذلك وضع طبيعى ، فكلى هذه الرسالات من الله ، وتلك الكتب تعليمات منه ما لم يمسها تحريف ، فإذ جاءت الرسالة الأخيرة فمن الطبيعى أنها تحوى الرسالات السابقة وتزيد عليها .

وعلى هذا نص القرآن الكريم على أنه يجب على المسلم أن يعترف بالرسل السابقين ، وبكتبهم الصحيحة ، وبما جاءوا به من مبادئ ، لأنها مبادئ لم تتغير وإنما زاد الإسلام عليها أو عدّل فيها حسبما اقتضاه تطور الحياة . قال تعالى :

– شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه[١] .

– وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاكم رسول مصدق لما معكم[٢] .

– قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا و ما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون[٣] .

---

(١) سورة الشورى الآية ١٢ . (٢) سورة آل عمران الآية ٧١ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٣٦ .

ـ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله[١] .

وهكذا يتضح من هذه الآيات أن الإيمان برسالات الرسل السابقين جزء من الإسلام ، كما يتضح من الآية الأخيرة أن الإسلام لا يفرق بين الرسل وأنهم جميعاً متساوون ، وعلى هذا يدخل الناس جميعا الإسلام وكلٌّ يعرف أن دينه موضع احترام ، وأن نبيّه مكان إجلال ، والكتاب الذى أنزل على رسوله لا يزال موضع تقدير .

بيد أن الإيمان بما جاء به الرسل السابقون يحتّم أن نصل إلى حقيقة ما جاءوا به ، وذلك يقتضى أن نزيل الخرافات والترهات التى أدخلها بعض أتباع هذه الديانات على دياناتهم .

لماذا كانت رسالات السابقين خاصة ؟ وجاءت رسالة محمد عامة ؟

الإجابة على هذا السؤال سهلة ، فقد كان من الطبيعى أن تتعدد رسالات السابقين ، وأن يكون كل منها لجماعة محدودة ، وذلك للسببين الآتيين :

١ ـ كان الاتصال بين الأمم السابقة غير موجود ، وكانت كل أمة تعيش فى عزلة أو شبه عزلة عن الأمم الأخرى لعدم وجود المواصلات والروابط غالبا ، ولاختلاف العادات وطرق الحياة ، ثم لتعدد اللغات وقلة الذين عُنوا بتعلُّم لغات أجنبية ومن ثَمَّ أرسل الله لكل أمة رسولا ، وما كان رسول واحد يستطيع أن يوفّيَ بالغرض من الرسالات .

٢ ـ سبّبت العزلةُ التى تحدثنا عنها آنفا اختلافا فى درجة الثقافة ، فأصبح ما يلائم جماعة من البشر لا يلائم جماعة أخرى .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٥ .

ولهذين السببين أرسل الله لكل أمة رسولا يعلمهم المبدأ الديني العام وهو توحيد الله والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . . . ثم يعالج أمراضهم المتفشية بينهم ، أما رسالة محمد فقد كان من الطبيعي أن تكون عامة ، إذ انتفى السببان السابقان فلم يَعُد العالم مجزأ إلى أقاليم يعيش كل إقليم في عزلة ، بل امتدت المواصلات بين أجزاء العالم ، وكثر تعلم اللغات الأجنبية فاتصلت الأمم ، وأصبح سهلا أن تعم رسالة واحدة جميع البشر ، ثم إنَّ درجة الثقافة قرَّبت بين أكثر الأمم ، إذ انتشرت الطباعة وانتقل المدرسون والطلاب بين أطراف العالم بسبب سهولة المواصلات ، فتبودلت بذلك الثقافات ولم تعد الهوة واسعة في الفكر والثقافة بين أمم العالم ، وكان ذلك إيذانا بإرسال رسول واحد لجميع البشر[١] .

وقد جاءت آيات كثيرة من القرآن الكريم تقرر عموم رسالة محمد ، وتقرر أنها خاتمة الرسالات ، اقرأ قوله تعالى :

ـ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا[٢] .

ـ يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً[٣] .

---

(١) لا نزال نرى في عالمنا الحاضر بلادا تتخلف كثيرا في حضارتها عن بلاد أخرى ، ولكن هذا التخلف عمل صناعي اقتضاه الاستعمار . ولو لم يوجد الاستعمار لأمكن للدول المتخلفة أن تلحق بركب الحضارة وأن تتقارب الثقافات بين أطراف العالم ، وهذا يلاحظ في التطور السريع الذي تصل إليه الدول بعد أن تتخلص من الاستعمار أو شبه الاستعمار ، ولنذكر في هذا المجال الجمهورية العربية المتحدة والصين وغيرها .

(٢) سورة سبأ الآية ٢٠٨ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٥٧ .

– تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا[١] .

– وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين[٢] .

– ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين[٣] .

وقد سبق أن ذكرنا أن الزمن أكد عموم رسالة محمد وأنه خاتم النبيين ، فإنه قد مرت القرون تلو القرون دون أن يخرج للعالم من يدعى الرسالة بعد محمد ادعاءً ذا بال ، وقد كان الرسل قبل محمد متقاربين أو متَّحدين فى الزمن .

ويقول مولانا محمد على[٤] : لم يُرسَل محمد إلى الناس كافة ورحمة للعالمين فحسب ، وإنما جاء ليبشر بدين واحد للناس ، أساسه الإيمان برسول كل أمة من أمم الأرض ، وهذا أمر لا يدفعه الناس حيث أنه يدعو إلى المساواة والوحدة بين جميع الأمم .

صفات الرسل فى التفكير الإسلامى :

يتصف الرسل بعلوّ الفطرة ، وصحة العقول ، والصدق فى القول ، والأمانة فى تبليغ ما عُهِدَ إليهم أن يبلغوه ، والعصمة من كل ما يشوه السيرة البشرية ، وسلامة الأبدان مما تنبو عنه الأبصار ، وتنفر منه الأذواق السليمة ، ويلزم الاعتقاد بأن الرسل ممدودة أرواحهم بمدد من الجلال الإلهى لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليهم سطوة روحانية .

---

(١) سورة الفرقان الآية الأولى . (٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٧ .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٤٠ .

(٤) The Religion of Islam Vol I. P. 161

وإنما لزمت لهم هذه الصفات لأنهم لو انحطَّت فطرهم عن فطر أهل زمانهم ، أو تضاءلت أرواحهم لسلطان نفوس أخرى ، أو مس عقولـهم شيء من الضعف ، لما كانوا أهلا لهذا الاختصاص الإلهى الذى يفوق كل اختصاص ، وهو اختصاصهم بالوحى والكشف لهم عن أسرار علم الله . ولو لم تَسْلَم أبدانهم عن المنفرات لكان انزعاج النفس لمرآهم حجة للمنكِر فى إنكار دعواهم ، ولو كذبوا أو قبحت سيرتهم لضعفت الثقة بهم ولكانوا مضلِّين لا مرشدين ، فتذهب الحكمة مِنْ بعثهم ، والأمر كذلك فيما يتلق بنسيان ما عُهِدَ إليهم تبليغه من العقائد والأحكام .

أما فيما عدا ذلك فالرسل بشرٌ يعتريهم ما يعترى سائر أفراد البشر ، يأكلون ويشربون وينامون ويسهرون ، وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام ، ويمرضون ، وتمتد إليهم أيدى الظَّلَمَة ، وينالهم الاضطهاد ، وقد يُقْتَلون[1] .

والسبب فى كون الرسل بشراً أن حكمة الله اقتضت أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم ، حتى يكونوا أكثر صلة بالناس وأعرف بمشاعرهم وأحاسيسهم ، وحتى يكونوا قدوة للناس فى تنفيذ ما يبلغونه من تعليمات وإرشادات ، وفى بشرية الرسل يقول القرآن الكريم :

ـ ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ، فأرسلنا فيهم رسولا منهم[2] .

ـ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم[3] .

ـ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزوجاً وذرية[4] .

---

(١) الأستاذ الإمام فى رسالة التوحيد : مقتبسات من ص ٧٩ — ٨٢ مع تقديم وتأخير .

(٢) سورة المؤمنون الآيتان ٣١ — ٣٢ .

(٣) سورة يوسف الآية ١٠٩ وسورة الأنبياء الآية ٧ .

(٤) سورة الرعد الآية ٣٨ .

— وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيِّنَ لهم(١) .

ويحمل الملَك الرسالاتِ إلى الرسول فيبلغها الرسول إلى المرسل إليهم قال تعالى « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس(٢) » ولا يحمل الملَكُ الرسالات إلى الناس مباشرة لأن عالم الملائكة يختلف عن عالم الإنسان فى طبيعته ، وصدق الله حين قال « لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزّلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا(٣) » .

ومسألة بشرية الرسل مسألة هامة فى التفكير الإسلامى ، ولعل العناية الكبرى التى وُجهت فى الإسلام لإيضاح هذه المسألة تسببت عن الضلالات التى سبقت الإسلام ، وهى تأليه الأنبياء أو حتى تأليه النابهين من المفكرين ، فقد ألّه المسيحيون عيسى وأله البوذيون بوذا وهكذا ، ولذا نجد محمداً — كما يقول المستشرقون — يقفل كل باب يَظُنُّ أنه يوماً ما يكون مسلكاً لتأليهه أو حتى يشْبِهَ التأليه ، فإذا وقف له بعض أتباعه صاح بهم : لا يقفوا كما تقف الأعاجم ، فلست بملك ، وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة ، ويختار مكاناً ليعسكر فيه فى غزوة بدر ، ثم يشير عليه أحد الصحابة بمكان أفضل فيقبل رأيه وينتقل إليه ، أما القرآن الكريم فقد وفّى هذا الموضوع وجلاه ، فلم تَقُمْ شكوك من أى نوع حول بشرية محمد ، وإنما أصبحت بشريتُه حقيقة واضحة مسلماً بها ، اقرأ هذه الآيات :

— قل إنما أنا بشر مثلكم(٤) ..

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٤ . (٢) سوة الحج الآية ٧٥ .

(٣) سورة الإسراء الآية ٩٥ .

(٤) سورة فصلت الآية ٦ وسورة الكهف الآية ١١١ .

– قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرتُ من الخير وما مَسَّنىَ السوء[١] .

– قل إنى لا أملك لكم خيراً ولا رَشَداً[٢] .

– قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا[٣] .

– قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً إلا ماشاء الله[٤] .

– وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟[٥] .

الأنبياء والعصمة :

بقى موضوع يتصل ببشرية الرسل أيضاً ، وهو جواز الخطأ على الأنبياء ، وهذا الموضوع دقيق للغاية ، وأغلب الكتَّاب يتحرَّزون من الخوض فيه خشية القول بجواز الخطأ على الأنبياء ، ومنهم من خاض فيه باحثاً عن البراهين التى تساعده على القول بعصمة الأنبياء ، وعدم إمكان وقوع الخطأ منهم ، وفى قمة هؤلاء ، الشيعةُ الذين يُثبتون عصمة الأنبياء وعصمة الأئمة أيضاً ، ويرون أن الرسول لو لم يكن معصوماً من الزلل لقلَّت الثقة به ولانتفت فائدة البعثة[٦] .

وهناك كتب خصصها الشيعة لبحث ذلك الموضوع ولتأويل كل ما يحتمل خلاف العصمة ، ومن أهم هذه الكتب كتاب « تنزيه الأنبياء » للسيد الشريف المرتضى ، وفى هذا الكتاب يقرر المؤلف أن الشيعة يرون أنه

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٨ .
(٢) سورة الجن الآية ٢١ .
(٣) سورة الجن الآية ٢٢ .
(٤) سورة يونس الآية ٤٩ .
(٥) سورة آل عمران الاية ١٤٤ .
(٦) السيد محمد صادق الصدر : الشيعة ص ٢٢٧ .

لا يجوز على الأنبياء شيء من المعاصى والذنوب كبيراً أو صغيراً لا قبل النبوة ولا بعدها ، ويقولون فى الأئمة مثل ذلك[١] .

والعجيب أن قول الشيعة بعصمة الأنبياء تسرَّب إلى أهل السنة ، وأصبح رأى جمهور المسلمين ، ولم يجد هذا الاتجاهُ معارضة تذكر من العلماء والباحثين المسلمين المحدثين لأنه موضوع يتصل بالأنبياء ، ويدفع الورعُ أغلبَ الباحثين فلا يتعرضون لردِّ ما قال به الجمهور ، ولذلك نجد أستاذنا الإمام محمد عبده يذكر رأى الجمهور ويعلق عليه بقوله « ومن العسير إقامة الدليل العقلى أو إصابة دليل شرعى يقطع بما ذهب إليه الجمهور[٢] » .

تعال بنا نبحث الموضوع بشىء من الانطلاق لنحق الحق ، والذى أراه أن هناك أموراً مسلماً بها هى :

١ – يلزم الإجماع على عصمة الأنبياء فى التبليغ وقد سبق الحديث عن ذلك .

٢ – يلزم الإجماع على أنهم بعد الرسالة لا يرتكبون الكبائر قط ولا الصغائر عمداً ، قال تعالى « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا »[٣] ، والأئمة والهداة لا يمكن أن يعملوا الكبائر أو يتعمدوا الصغائر .

٣ – يلزم الإجماع على أنهم قبل البعثة نخبة مصطفاة من أحسن معاصريهم سيرة وخلقا ، قال تعالى « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس[٤] » والآية واضحة فى أن الرسل صفوة الخلق وخيارهم . وقد

---

(١) اقرأ كتاب تنزيه الأنبياء فى عدة أمكنة واقرأ كذلك تاريخ التربية الإسلامية للمؤلف ص ٣٩٣ – ٣٩٥ .

(٢) رسالة التوحيد ص ٨٣ .

(٣) سورة الأنبياء الآية ٧٣ . (٤) سورة الحج الآية ٧٣ .

هتف قوم صالح به يقولون فيما رواه القرآن الكريم : « يا صالح قد كنت فينا مَرْجواًّ قبل هذا »[١] ممسا يدل على مكانة الأنبياء بين ذويهم قبل بعثهم .

٤ — يلزم أن نتذكر حقيقة هامة يقررها القول الشائع « حسنات الأبرار سيئات المقربين » ، فإذا قُلْنَا ببشرية الأنبياء وجواز الخطأ عليهم فى غير ما تلزم العصمة فيه ، فليس معنى هذا أن الأنبياء يخطئون كما نخطئ نحن ، فمن الواضح أن العالم لا يرتكب الخطأ الذى يقع فيه الجاهل ، فكذلك لا يمكن أن يتساوى الأنبياء مع بقية البشر فى نوع الخطيئة ، أى أنهم إنْ أخطأوا فزلات بسيطة وهفوات يسيرة لأنهم بطبيعة الحال أكثر دقة وهداية ورعاية من الله .

فإذا قارنَّا هذه المبادئ ببشرية الرسل التى تحدثنا عنها آنفاً ، جاز لنا أن نثبت أن الرسول عندما يتحدث أو يعمل كرسول ، أى مبلغاً أو داعياً أو معلما فهو معصوم ، أما إذا كان يتحدث أو يعمل من عند نفسه فى الأمور العامة التى ليست جزءاً من الرسالة ، فهو بشر ، يمكن أن يخطئ ويغلب أن يصيب ، وقد وضَّح الرسول ذلك بقوله فى الحديث الذى رواه رافع ابن خديج « إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشىء من أمر دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر » وكان المسلمون فى الصدر الأول للإسلام يفرِّقون بين محمد النبى ومحمد الإنسان ، ويتضح ذلك من المثال الذى أشرنا إليه آنفاً والذى حدث فى غزوة بدر ، فإن الرسول اختار مكاناً ليهيئ فيه جنده للقتال ، فسأله أحد قادة المسلمين سؤالا واضحاً هو : هل هذا الاختيار وحى من الله أو اجتهاد من عندك ؟ وأجاب الرسول : بل اجتهاد من عندى فقال الرجل : إذا كان الأمر كذلك فهناك مكان

---

(١) سورة هود الآية ٦٢ .

أصلح من هذا . ودرس الرسول رأى الرجل وانتقل إلى المكان الذى أشار به(١) .

وقد سبق أن ذكرنا الآيات التى فيها عتاب للرسول على بعض تصرفات لم يقرها العزيز الحكيم ، وهى كما رأيت هنات خفيفة وزلات سهلة ، وهى كذلك صادرة من محمد الإنسان لا محمد الرسول ، ويقول فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت فى ذلك الموضوع : أما فى غير ما يبلّغونه عن الله من الآراء أو الأحكام أو الأفعال الشخصية ، فهم — كغيرهم — يصيبون ويخطئون ، وقد عاتب الله نبيه محمداً على بعض تصرفات فعلها من تلقاء نفسه « عبس وتولى أن جاءه الأعمى . . . »(٢) .

وتميل كتب التفسير إلى هذا الاتجاه ففى البيضاوى عند قوله تعالى « عفا الله عنك ، لِمَ أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ؟(٣) » . يقول المؤلف : عفا الله عنك : كناية عن خطئه فإن العفو من روادفه(٤) . ويقول الأستاذ سيد قطب عند تفسير هذه الآية ما نصه : إنه لُطْفُ الله برسوله ، فهو يعجل له بالعفو قبل العتاب(٥) . وهذا هو الاتجاه العام فى أكثر التفاسير عند الحديث عن أمثال هذه الآيات .

معجزات الرسل :

المعجزة أمر خارق للعادة يُعْجِزَ البشر عن الإتيان بمثله ، يجىء على يد رسول من رسل الله . ويقدِّمُ الرسولُ المعجزةَ دليلا على صدقه ،

---

(١) انظر أمثلة أخرى مماثلة فى « السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى » للمؤلف ص ٥٥ — ٥٦ .

(٢) الإسلام عقيدة وشريعة ص ٣٤ . (٣) سورة التوبة الآية ٤٣ .

(٤) تفسير البيضاوى ص ١٩٥ . (٥) فى ظلال القرآن جـ ١٠ ص ٧٠ .

وكان على الناس أن يتبعوه إذ أن المعجزة تحمل معنى قول الله تعالى : صدق عبدى فيما يبلغه عنى .

وتتناسب المعجزة مع الدعوة ؛ فأديان المرحلة الأولى التى سبق أن تحدثنا عنها(١) ، أى الأديان التى تدعو لتوحيد الله وترك عبادة الأوثان ، لا تحتاج إلى معجزة ، فالتوحيد وترك عبادة الأوثان هدف طبيعى يصل إليه العقل بذاته ، ولذلك فالأدلة التى يقدمها أنبياء هذه المرحلة عبارة عن حث الناس على استعمال عقولهم ، وتذكيرهم بنعم الله عليهم ، وتخويفهم من عذابه ، وتهديدهم إن تمادوا أن ينزل بهم ما نزل بأمثالهم من السابقين الضالين ، وقد روى لنا القرآن الكريم صورا مما قدمه أنبياء هذه المرحلة لأقوامهم ، ونحن نقتطف فيما يلى بعضها :

من قول نوح :

استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ويمدكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ، ما لكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا ، ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجاً ، والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ، والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا(٢) .

من قول هود :

— واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح(٣) .

— فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به ويستخلف ربى قوما غيركم(٤) .

— واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم(٥) .

(١) ص ٢١ — ٢٢ .

(٢) سورة نوح الآيات ١٠ — ٢٠ . (٣) سورة الأعراف الآية ٦٩ .

(٤) سورة هود الآية ٥٧ . (٥) سورة الشعراء الآيات ١٣٢ — ١٣٥ .

من قول صالح :

– أتتركون فيما هاهنا آمنين فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ، فاتقوا الله وأطيعون[١] .

من قول إبراهيم :

– واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ، قال : هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرونكم ، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، قال أفرأيتم ماكنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ، الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين[٢] .

وقد توجد معجزة فى أديان هذه المرحلة ، وذلك إذا طلبها أصحاب الرسول ، كقوم صالح الذين هتفوا به :

– ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت الصادقين[٣] .

فجاءتهم الناقة معجزة لهم .

أما أديان المرحلتين الثانية والثالثة فالمعجزة ضرورية فيهما ، ولذلك تأتى مع الدعوة وبدون طلب ، وذلك لأن فى أديان هاتين المرحلتين تكاليف يتوقف تصديقها واتباعها على المعجزة المُقْنِعة ، ففى أديان

---

(١) سورة الشعراء الآيات ١٤٦ – ١٥٠ .

(٢) سورة الشعراء الآيات ٦٠ – ٨٢ .

(٣) سورة الشعراء الآية ١٥٤ .

بنى إسرائيل تشريع كما سبق أن أوضحنا ، ودين الإسلام انقلاب اجتماعى وفكرى لما كانت عليه البشرية قبله .

على أنه يمكن أن يقال إن الإسلام مرَّ بمرحلتين ، كان قبل الهجرة يدعو للتوحيد وترك عبادة الأوثان ، فسار على نمط أديان المرحلة الأولى من الحث على استعمال العقل والتخويف والإنذار :

قال تعالى :

– أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ؛ فذكر إنما أنت مذكر ليست عليهم بمسيطر(١) .

– إن سعيكم لشتى ، فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وما يغنى عنه ماله إذا تردى(٢) .

وبعد الهجرة – حيث التشريعات الواسعة – برزت معجزات الإسلام التى تحدثنا عنها عند الكلام عن « دعوة فى الميزان » وسنزيدها هنا وضوحا .

وقد تجىء المعجزة أمراً خارقاً للعادة على العموم كمعجزة إبراهيم إذ لم تحرقه النار ، وكناقة صالح التى قال بعض المفسرين إنها خرجت من الصخرة أو التى كان لها شرب ولهم شرب يوم معلوم ، كما ورد فى القرآن الكريم ، وقد تجىء المعجزة من جنس شىء اشتهر فى عهد المرسل إليهم كاشتهار السحر فى عهد موسى ، والبلاغة فى عهد محمد ، ولذلك تجىء معجزة موسى أشبه بالسحر ولكنها أعلى مستوى ، ويجىء القرآن معجزةً

---

(١) سورة الغاشية الآيات ١٧ – ٢١ .

(٢) سورة الليل الآيات ٤ – ١١ .

لمحمد . وهو فى أعلى درجات البلاغة ، أو قل فى درجة من البلاغة لا يعرفها مستوى البشر .

وتتناسب المعجزات مع طبيعة الرسالة ، فالرسالات التى سبقت الإسلام كانت لأقوام معينين ، كما كانت موقتة ، ولذلك جاءت المعجزات من جنس ما اشتهر عند هذه الأقوام ، كما كانت المعجزة نفسها موقتة ، فهى تحدث مرة أو عدة مرات ، ويكفى أن يراها المرسل إليهم ليعترفوا بالرسل إذا كان الله قد كتب لهم الهداية . أما الإسلام وهو دين عام ودائم ، فقد جاءت معجزته مناسبة لهذا الوضع أى جاءت عامة ودائمة ، فالقرآن الكريم لا يزال بأسلوبه ومعانيه معجزاً ، ولا يزال متجدداً يقيم الدليل كل يوم على صحة رسالة محمد ، وقد سمعته الأجيال الأولى فدهشت له ، مَنْ آمن منهم ومَن لم يؤمن ، حتى كان قادة المشركين يتسللون ليلا خفية ليتسمعوا لمحمد وهو يتلو القرآن(١) ، وسمعته بعد ذلك أجيال وأجيال ، ونسمعه حتى اليوم ونقرأه ، فيخرُّ البلغاء له ساجدين ، ويعترفون بأنه نسيج وحده ، وأن له نسقا لا يطاوَل ولا يدانى(٢) .

وبالإضافة إلى القرآن الكريم ، وهناك أيضاً تلك النظم الخالدة التى أشرنا إليها عند حديثنا عن « دعوة فى الميزان » وقد انبثقت هذه النظم من القرآن الكريم ، ومن الحديث الصحيح ، فكيف لمحمد الأمىّ أن يضع فى

---

(١) اقرأ هذا الموضوع كاملا فى كتاب « التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية للمؤلف جـ ١ ص ٢٧١ — ٢٧٢ .

(٢) هناك كتب كثيرة فصلت القول فى موضوع إعجاز القرآن ، ونكتفى بالإشارة إليها هنا ليرجع إليها من يشاء وأهمها : إعجاز القرآن للباقلانى ، وإعجاز القرآن للرافعى ، والتصوير الفنى فى القرآن لسيد قطب ، والقرآن والعلم الحديث لعبد الرازق نوفل ، ومجازات القرآن لمحمد عبد الغنى حسن .

حقبة قصيرة من الزمن ألوانا من التشريعات عبرت القرون والأقطار وهى حية نامية تتفق مع كل زمان ومكان ؟ يالله !! إن لجاناً علمية ضخمة تجتمع لبحث مشكلة واحدة ، وتنفض وتجتمع ، وتقرأ وتدرس ، ثم تقترح ، ويعدّل اقتراحها عدة مرات ، ثم يصدر ، وبعد سنين قليلة يلحظ الناس أن هذا التشريع لم يعد يناسب العهد الذى جدّ ، فتجتمع لجان أخرى وتبحث من جديد وهكذا دواليك . أين هذا من الشئون التى نظّمها محمد فى عشر سنوات فجاءت مع تنوعها وهى فصل الخطاب ؟

والجديد كذلك فى معجزات محمد أنها — بالإضافة إلى خلودها — ليست عصا تنقلب ثعباناً ولا ناقة تشرب النهر ، إنما هى من طبيعة عمل الرسول ، فإذا جاء رجل يدّعى الطب ، فإن خير دليل يدعم به دعواه طِبُّه ودواؤه الناجع ، وإذا جاء مدرس يدعى الإحاطة بعلم الفلسفة فإن خير برهان يقدمه هو أن يقف محاضراً فيعرض أفانين من الفلسفات ، وكذلك محمد ادّعى أنه نبى جاء برسالة تنظم شئون الدين والدنيا ، شئون الروح والجسد ، ثم برهن على ذلك بأن نظّم النظم وقنّن القوانين وأتى بالتشريعات التى حققت ما قال ، ولاتزال تحققه حتى العهد الذى نعيش فيه ، وأى معجزة أكبر وأقوى من تلك المعجزة الخالدة ؟

وأخيراً فهناك اتجاه جديد أيضاً فى معجزات محمد ، ذلك الاتجاه هو استعمال العقل بيسر وهدوء ، فقد كانت المعجزات السابقة تشدهُ العقول وتفحم ، فلا تتيح للإنسان فرصة التفكير ، من ذا الذى يستطيع أن ينجو من نار ألقى فيها ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يجعل عصاه ثعبانا يلقف الثعابين ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يُحيى الموتى أو يُبرئ الأكمه دون دواء ؟ ولكن هذه العقول سرعان ما تعود إلى نفسها وتفكر فيما رأت ، فتعتقد أو يعتقد أكثرها أن ما شاهدت إنما هو ضروب من السحر والكهانة فتكذّب الرسول فى دعواه ، وهذا المعنى هو الذى عبر

عنه القرآن بالآية : « وما منعنا أن نُرسل بالآيات إلا أن كذّب بها الأولون »[١] . أما معجزات محمد فاتجاه آخر إنها معجزات فيها تحدٍّ ولكن فى يسر وهدوء ، فاذهب إلى بيتك واخل إلى نفسك أو اجتمع بصديق ، وخذ معك القرآن ، أو استعرض النظم التى جاء بها محمد فى مختلف الشئون ، وناقش تلك المعجزات ، وتذكر أن التحدّى لايزال قائماً ، هل تستطيع ومعك أساطين البلاغة أن تأتوا بسورة من مثله ؛ هل تستطيع — ولا تخصص لك ، أو حتى مع التخصص — أن تضع أمثال هذه النظم أو تخطيطا خالدا لتنظيم فى مسألة واحدة ؟ فكّر وتدبر أمرك بهدوء وتأنٍّ فإذا عجزت كما عجز الملايين قبلك فالإسلام يمدُّ لك يده ، ويفتح إليك بابه ، ويرحب بك لتدخل فى زمرة أتباعه .

وفى ذلك يقول الأستاذ العقاد[١] : والنبى فى الإسلام ليس بصاحب الخوارق والأعاجيب التى تشل العقول ، وتهول الضمائر ، وتخاطب الناس من حيث يخافون ويعجزون ، ولا تخاطبهم من حيث يعقلون ويتأملون ويقدرون على التمييز .

إن معجزات الإسلام لا تزال تعيش حتى اليوم ، وستظل تعيش إلى يوم الدين ، وهى معجرات من طبيعة تختلف عن طبيعة المعجزات التى جاء بها الأنبياء من قبل .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٥٩ .

الروح والمادة فى التفكير الإسلامى

هناك شخص يتطلّع للذّة ويعيش لها ، حياتُه كلها صراع ليُحقّق مالاً وفيراً ، ومنزلا فخما ، وطعاماً شهياً ، ومركباً فاخراً وغير ذلك من ملذات الحياة ، وهناك شخص ، أهمل الدنيا ، وقتل رغبات الجسم ، وهجر الحياة بما فيها من خير وشر ، ولجأ إلى كهف أو معبد يمضى به حياته فى عبادة تكاد تكون متصلة .

ومثل ذلك المجتمعات ؛ فهناك مجتمعات اتجهت لعبادة المادة وعُنيت بها ، وأنكرت الحياة الروحية وسخرت منها ، كما تعيش الدول الرأسمالية والشيوعية جميعاً ، وعلى العكس من هذه المجتمعات ، دعوةُ المسيحية التى ترى أن دخول الجمل فى سُمِّ الخياط أسهل من دخول الغنىِّ ملكوت الله ، والتى تدفع الناس للرهبانية وهجر الحياة الدنيا .

كِلاَ الاتجاهين لا يقرُّه الإسلام لا فى الفرد ولا فى الجماعة ، ذلك لأن الإسلام دين الفطرة ، والفطرة التى خلق الله الإنسان عليها هى أنه جسم وروح فيلزم — لإسعاده — العناية بهما جميعاً ، ومن أجل هذا اتجهت ثقافة الإسلام إلى تربية جسم الشخص وتربية روحه ، والجماعات عبارة عن مجموعة من الأفراد ، فسلامة الفرد جسما وروحا معناه سلامة المجتمع جسمياً وروحانيا كذلك .

ومن اهتمام الإسلام بالناحية المادية فى المسلم أن أحلّ له الطيبات ، وحثه على التمتع بزينة الحياة الدنيا ، وأوجب عليه المحافظة على الصحة ، وحبَّبَ إليه العمل لخير الدنيا لنفسه ولذوية ، والآيات والأحاديث فى هذا المضمار عديدة واضحة نذكر منها :

— يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إن الله لا يحب المسرفين ، قُل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق[١] .

— كلوا من طيبات ما رزقناكم[٢] .

— والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون[٣] .

— هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه[٤] .

— هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً[٥] .

— يا أيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا طيبات ما أحلّ الله لكم[٦] .

— إن لبدنك عليك حقاً .

— المؤمن القوىُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير .

وهناك حديث يرويه أستاذنا الإمام « محمد عبده » بعد مقدمة ، فيها مقارنة رائعة . قال رحمه الله تعالى : وصاحب هذا الدين صلى الله عليه

(١) سورة الأعراف الآيات ٣١ — ٣٢ .
(٢) سوره البقرة الآية ٥٧ . (٣) سورة النحل الآيات ٥— ٨ .
(٤) سورة الملك الآية ١٥ . (٥) سورة البقرة الآية ٢٩ .
(٦) سورة المائدة الآية ٨٧ .

وسلم لم يقل : « بع ما تملك واتبعني » ، ولكن قال لسعد بن أبي وقاص ، وقد أراد أن يتصدق بثلثي ماله ، أو بماله كله : الثلث ، والثلث كثير ، إنك إن تذر ورثتك أغنياء ، خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس(١) .

وسنتكلم فيما بعد عن العبادات ، وأنه أريد بها خدمة الجسد والروح ولهذا فإن المسلم يُعفى منها أو تُخَفَّف عنه طريقة أدائها ، إذا كان فى أدائها على الوجه العادى ما يمكن أن يسبب ضرراً للجسم ، فالوضوء والغسل يسقطان عن المسلم إذا خيف الضرر ، أو إذا عرضت مشقة فى تحصيل الماء ، ولا يجب صوم رمضان على الحامل ، أو المريض ، أو المسافر ، ولا يلزم القيام فى الصلاة لمن يشقُّ ذلك عليه ، ولا يلزم السعى لصلاة الجمعة إذا كان هناك وحل أو مطر يضران بالساعى ، وهكذا تتحقق القاعدة . « صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان » .

ومن النظم التى وضعها الإسلام للوقاية ، ولحفظ الجسم من الأمراض أن حثَّ المسلم على الاستياك ، وقص الأظافر والشعر ، والاستنجاء ، والنظافة عامة بالوضوء أو الغسل .

ومنها أن حرَّم عليه أكل ما يضر ، أو شُرب ما يؤذى الصحة ، فحرَّم أكل الدم والميتة ، وما أكل السبع ، وحرَّم لحم الخنزير ، وشرب الخمور ، وما ماثلها من مواد تؤثر على العقل والجسم . كالحشيش والأفيون بل والدخان فى رأى بعض العلماء ، كما حرَّم وطء الحائض ، وحرَّم الزنا ، وألزم التعجيل بدفن الميت ، وغير هذا من الأشياء التى لو حللناها واحداً واحداً لوجدنا السبب الرئيسى فيها هو المحافظة على الجسم ووقايتـه من

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ٧٨ .

الأمراض التى أكَّد الطب الحديثَ حدوثها لو أُهملت هذه التعاليم[١] .

ومن رعاية الإسلام للجسم ، أنْ أباح للمسلم الجائع أن يأخذ ما فضل عند صاحبه ، رضِيَ صاحب الفضل أو لم يرض ، فانْ قاتَلَ المحتاج لذلك فله الحق ، فإن قُتِل مات شهيداً ، وعلى قاتله القود ، وإن قَتِلَ صاحب القود فلا قَوَدَ على القاتل[٢] .

ومن رعاية الإسلام للأبدان كذلك أن حث على الرياضة ، وقد وردت أنواع منها فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد روى عنه قوله :

— ألا إن القوة فى الرمى .

— حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمى .

— ما روته عائشة : سابقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته ، ثم سابقنى فسبقنى ، فقال : « هذه بتلك » .

ووردت أحاديث أخرى تحثُّ على المبارزة ، بالحراب ، والمصارعة ، وغيرهما من أنواع الرياضة ، والمقصود منها جميعاً هو تنمية قوة الأجسام ، والمحافظة على نشاطها .

أما اهتمام الإسلام بالروح فقد بلغ الغاية ، وقد كان من الواضح فى التفكير الإسلامى أنَّ حصْر الاهتمام بالجسم وبالقوى المادية لن يُنتج تقدماً للعالم بقدر ما ينتج الدمار له .

---

(١) اقرأ « كتاب الإسلام والطب الحديث » للدكتور عبد العزيز إسماعيل ، وكتاب « الطب الحديث يترسم خطا الإسلام » للدكتور حامد الغوابى .

(١) ابن حزم الأندلسى : المحلى ج ٦ ص ١٥٩ .

وقد قلت فى كتابى « المجتمع الإسلامى »[1] إن النهضة العلمية التى وصل إليها الغرب هى فى الحقيقة نهضة مدمرة ، تهدد العالم كله بالفناء ، وتتركه قبل الفناء يعيش فى خوف ووجل ، متوقعاً الخراب والدمار . وبعبارة أخرى : يعيش يترقب الفناء ، مئات الملايين من الجنيهات يمكن أن تُسْعِدَ البشر ، ولكنها بدلا من ذلك تنفق لإنتاج القنابل الذرية والهيدروجينية التى تُعَدُّ للقضاء على البشر ، وكل ذلك لأن هذه المدنية ملحدة ، مدنية بُنيت على نظام اقتصادى ، وأباحت للإنسان أن يقتل أخاه الإنسان ليحصل على ما فى يده من طعام أو كساء ، ولم يدخلها عنصر الأخلاق ولا عنصر الإيمان . ومن هنا : فهى سراب يضىء ، ولكنه ضوء خدّاع .

لقد بلغت النهضة الصناعية فى ألمانيا غايتها قبل الحرب العالمية الثانية ، وكانت ألمانيا فى المقدمة بين دول العالم مدنية وحضارة ، ولكن هذه المدنية المدمرة كلفت العالم ملايين البشر يخرُّون صرعى وجرحى فى الحرب التى شنتها ألمانيا ، أو التى دُفعت إليها ألمانيا من الدول المماثلة .

وكان تفتيت الذرة أرقى ما وصل له الفكر الإنسانى ، ولكن سرعان ما دمر وأفنى فى اليابان قبل أن يعرف الناس من خيره قليلا أو كثيرا .

ومن أجل هذا عنى الإسلام بالروح عنايته بالجسم ، ووضعهما فى كفتى ميزان بحيث لاترجح إحداهما الأخرى ، فحث الإنسان على الإيمان بالله الواحد الأحد ، وعلمه ألواناً من الخلق السامى ، وكرّه إليه رذائل الأخلاق ، امتدح التعاون وألزمه ، وحبب للمسلم الإيثار ، والتآخى فى الإسلام ، وفرض ألواناً من العبادات التى تهذب الروح ، ووضع نظماً أخلاقية نادرة تُكسب النفس صفاء ، وتَهَبُ الروح سماحة ونبلا ، اقرأ معى هذه الآيات :

---

(١) المجتمع الإسلامى : أسس تكوينه ، أسباب تدهوره ، الطريق إلى إصلاحه ، ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .

– وتعاونوا علي البر والتقوي ، ولا تعاونوا علي الإثم والعدوان[١] .

– ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة[٢] .

– إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم[٣] .

– واذكر ربك إذا نسيت[٤] .

– لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون[٥] .

– ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم[٦] .

– خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين[٧] .

– ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا[٨] .

– وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين[٩] .

– يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب[١٠] .

– يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا[١١] .

---

(١) سورة المائدة الآية ٣ .
(٢) سورة الحشر الآية ٩ .
(٣) سورة الحجرات الآية ١٠ .
(٤) سورة الكهف الآية ٢٤ .
(٥) سورة آل عمران الآية ٩٢ .
(٦) سورة فصلت الآية ٣٤ .
(٧) سورة الأعراف الآية ٢٠٠ .
(٨) سورة الإسراء الآية ٣٦ .
(٩) سورة الإسراء الآيتان ٢٦ – ٢٧ .
(١٠) سورة الحجرات الآية ١١ .
(١١) سورة الحجرات الآية ١٢ .

– يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم[١] .

هذا ويكثر فى الإسلام أن ترى الآية أو الحديث تجمع بين فوائد الدنيا والآخرة ، بين صحة البدن وسلامة الروح ، لأن كلا منهما ككفة الميزان إن رجحت فعلى حساب الأخرى ، اقرأ قول الله وقول الرسول :

– وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا[٢] .

– فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق ، ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقِنَا عذاب النارۚ أولئك لهم نصيب مما كسبوا[٣] .

– يا أيها الذين آمنوا إذا نودىَ للصلاة من يوم الجمعة فاسعوْا إلى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، فإذا قُضِيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله[٤] .

– اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا .

وهكذا يوفق الإسلام بين المادة والروح دون أن يَدَعَ أحدا منهما يطغى على الآخر أو يتغلب عليه ، فإذا تغلبت المادة على الروح فى المسلم هتف به القرآن الكريم :

– مَنْ كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نُوَفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايُبْخَسون ، أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها ، وباطلٌ ما كانوا يعملون[٥] .

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣ .
(٢) سورة القصص الآية ٧٧ .
(٣) سورة البقرة الآيات ٢٠٠ – ٢٠٢ .
(٤) سورة الجمعة الآيتان ٩ – ١٠ .
(٥) سورة هود الآيتان ١٥ – ١٦ .

— اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخرٌ بينكم ، وتكاثرٌ فى الأموال والأولاد كمثلِ غيث أعجبَ الكفارَ نباتهُ ، ثم يهيجُ فتراهُ مصفرًّا ، ثم يكونُ حُطاما[1] .

وإذا تغلبت الروحانيات على المادة فى مسلم صدمته مصادر الإسلام التى تُحتِّم أن يهتم المسلم بالجانب المادى فيه اهتمامه بجانب الروح ، فقد رُوِىَ أن قوما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن فلانا يصوم النهار ويقوم الليل ويكثر الذكر . فقال الرسول : أيُّكم يكفى طعامه وشرابه ؛ فقالوا : كلنا . فقال : كلكم خير منه . ويُروى أن عمر بن الخطاب نظر إلى رجل يظهر النسك حتى ضعف جسمه واعتلّت صحتُه ، فخفقه عمر بالدرَّةِ وقال : ليس هذا الفعل من ديننا .

تلك هى سياسة الإسلام تجاه الروح وتجاه المادة ، وهى لاشك سياسة رشيدة تدفع المجتمع تجاه التقدم ولكنها تحمى تقدمه من الدمار والفناء .

(١) سورة الحديد الآية ٢٠ .

فلسفة العبادات فى الإسلام

العبادات فى الإسلام تنحصر فى أربعة أنواع ، هى : الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ، وربما لايتسع هذا الموجز للحديث عن تفاصيلها ، فلهذه التفاصيل مظانّ أخرى . وإنما نكتفى بكلمة قصيرة نمهد بها لموضوعنا ، وهو الحديث عن فلسفة هذه العبادات .

والصلوات المفروضة خمس صلوات فى اليوم والليلة ، وهى صلاة الصبح ، والظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء .

وصلاة الصبح ركعتان ، وصلاة المغرب ثلاث ركعات ، وما عدا هذين فأربع ركعات ، ويصليها الإنسان منفرداً ، ويحسن أن يصليها فى جماعة .

وهناك صلاة واحدة يلزم أن تُؤدى فى جماعة ، وهى صلاة الجمعة التى تحلُّ محلّ ظهر يوم الجمعة ، وهى ركعتان .

وبجانب هذه الصلوات المفروضة على المسلمين جميعاً هناك صلاة أخرى تسمى فرض كفاية ، أى أن أداءها من بعض المسلمين يعفى الآخرين من القيام بها ، وهى صلاة الجنازة .

وهناك بجانب هذه الصلوات صلوات مندوبة ، كصلاة العيدين ، والنوافل .

ولا بد من الطهارة قبل الصلاة ، تلك الطهارة التى تتحقق بالاستحمام عند حدوث جنابة ، أو بالوضوء إذا لم تكن هناك جنابة ، ويلزم كذلك طهارة الملبس ومكان الصلاة .

* * *

وتجب الزكاة فى خمسة أنواع هى : النقد (الذهب والفضة) وعروض التجارة والسوائم والزروع والثمار ، ويشترط لوجوب الزكاة فى كلٍّ من هذه الأنواع أن يصل المال إلى مقدار معيّن جَعَلَه الشارع دليلا على الغنى واليسار ، فإذا لم يصل المال إلى هذا النصاب فلا زكاة واجبة فيه . ويشترط كذلك الحول والنماء ، وأن تكون الماشية سائمة ، وأن تبلغ الزروع حد قُوّتها ، وأن تطيب الثمار ويبدو صلاحها .

وأول نصاب الإبل خمس وفيها شاة . فإذا بلغت عشراً ففيها شاتان .

وأول نصاب البقر ثلاثون وفيها تبيع أتمّ ستة أشهر ، فإذا بلغت أربعين ففيها مُسنَّة أتمت سنة . . .

وفى أربعين شاةً شاةٌ إلى مائة وعشرين ، فإذا بلغت مائة وإحدى وعشرين ففيها شاتان ، وفى مائتين وواحدة ثلاث شياه ، وفى أربعمائة أربع شياه ، ثم فى كل مائةٍ شاةٌ

وزكاة النقد وعروض التجارة ربع العشر .

وزكاة الزروع والثمار العشر إذا سُقيت بالسيح أو الأمطار ، فإذا سقيت بالآلات فزكاتها نصف العشر .

وقد أورد القرآن الكريم مصارف الزكاة فى الآية الكريمة : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل »[١] ، وإذا لم تَكْفِ الزكاة لحاجة الأفراد أو الدولة كان للحاكم أن يأخذ من أموال الأغنياء ما يفى بهذه الحاجة مهما بلغ من قدر ما يأخذه[٢] .

* * *

(١) سورة التوبة الآية ٦٠ .

(٢) انظر تفاصيل ذلك فى « السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى » للمؤلف ص ١٩٠ – ١٩٢ .

والصوم هو الامتناع عن الأكل والشرب والملابسة الجنسية من الفجر إلى غروب الشمس ، وهو فرضٌ خلال شهر رمضان على المسلم البالغ القادر الذى ليس له عذر شرعى كالمرض أو السفر أو الشيخوخة أو حيض المرأة أو نفاسها .

* * *

والحج هو قصد البيت الحرام بمكة للعبادة فى وقت معين هو شهر ذى الحجة ، على أن يتم الوقوف بعرفة فى التاسع من هذا الشهر ، وينتهى الحج بالطواف حول بيت الله الحرام بمكة ويجب الحج مرة فى العمر .

* * *

وكثيراً ما تُخفف هذه العبادات ، وكثيراً ما تسقط على النحو الواضح فى كتب الفقه ؛ فالصلاة للمريض يمكن أن تؤدى وهو قاعد أو وهو مضطجع ، ويمكن أن تؤدى حتى بإيماءات خفيفة أو برمش العين ، فالمقصود فقط أن يظل المسلم على صلة بربه فى صحته ومرضه ، وتُجْمَعَ الصلاة وتُقصر للمسافر ، وتسقط على الحائض والنفساء .

ولا تجب الزكاة إلا على القادر الذى وُجِدَ عنده النصاب ، ولا يعتبر النصاب كاملا إلا بعد تقدير إسقاط الديون ، ويرى فضيلة الأستاذ الشيخ محمد شلتوت أن الزكاة « لا تجب على الغنى إلا فيما فضل عن حاجته وحاجة من ينفق عليهم[1] » .

ويؤجَّل الصوم فى حالة المرض والسفر والحيض والنفاس ، وتستبدل به كفارة فى حالة الشيخوخة .

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة ص ٨٤ .

ولا يجب الحج إلا على القادر عليه من حيث الصحة والتكاليف وأمن الطريق .

* * *

تلك هي العبادات في الإسلام ، وهي فيما نرى ويرى المنصفون رياضات جسمانية ورياضات روحانية ، وهي كذلك تنظم شئون الفرد وترتب شئون الجماعة ، وفيها رعاية أحوال الدنيا وبها صلاح حال الدين ، وهي « غذاء للإيمان وعلامة الصدق فيه »[1] وسنعود إلى كل من هذه العبادات نستوضح الهدف من فرضه ، ونستلهم المزايا منه ، ولكننا نبادر فنقرر أن بعض الأحكام لا يتفق الناس على فهم أسبابها ، بل ترى بعضها وكأنما ليس له علة ظاهرة ، واعتقادى أن غموض بعض العلل كسبب عدد الركعات في الصلوات وكالنصاب في بعض ما تجب الزكاة فيه ، فلسفة لها مغزاها المهم ، إنها ترمى إلى تعليم الطاعة أحيانا ولو لم يظهر سبب الأمر ، وما ألزَمَ الطاعة المطلقة في كثير من الأحيان ، فالجند يلزم أن يطيعوا أوامر القائد دون أن يتساءلوا عن سببها ، والمرضى يلزم أن يتبعوا نصائح الطبيب وإن لم يعرفوا دوافعها ، وهكذا ، فإذا ظهرت لنا العلة واضحة في الصلاة والزكاة فليس هناك داع أن نتتبع كل الجزئيات بالتعليل والبحث عن الأسباب .

ونعود الآن لهذه العبادات لنسرد طرفا من فلسفة الإسلام فيها : —

الصلاة :

من الواضح أن حركات الصلاة حركات رياضية ، وأن تلك الحركات تشمل الجسم كله ، وهي منتظمة كالانتظام الحديث للرياضة البدنية ،

---

(١) الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت : منهج القرآن في بناء المجتمع ص ١٧٤ .

ولو نظرت إلى المصلين في صلاة الجمعة أو الجماعة وهم يركعون معا ، ويسجدون معا ، ثم يقفون ، لحسبتهم يؤدون حركات جسمانية للرياضة كتلك التي يؤديها الشباب فى الساحات الرياضية .

وقد حثَّ الإسلام على انتظام الصفوف فى الصلاة وعدم ترك فرجة فيها ، وذلك بلا شك تعليم للنظام وترتيبِ الأمور ، وقد وحَّد الإسلام قِبلةَ المسلمين ، فاتجهوا جميعاً نحو مكان واحد هو مكة المكرمة ، ووقفوا يرددون نفس الكلمات ، وتتجاوب فى نفوسهم نفس المعانى ، وهناك تصوير جميل وضعه باحث مسيحى يصوز به المسلمين وهم يصلون ، ونحن نقتبسه فيما يلى : وإذا نظرت إلى العالم الإسلامى فى ساعة الصلاة بعين طائر فى الفضاء وقُدِّر لك أن تستوعب جميع أنحائه بقطع النظر عن خطوط الطول والعرض لرأيت دوائر عديدة من المتعبدين تدور حول مركز واحد هو الكعبة ، وتنتشر فى مساحة تزداد قدرا وحجما[1] .

ويلتقى فى المسجد الغنى والفقير ، والكبير والصغير ، ويسجد الجميع لله ، وله يركعون ، وهذا تأكيد لخلق المساواة ، ووضع للنظرية الإسلامية فى المساواة موضع التنفيذ :

وفى صلاة الجماعة وصلاة الجمعة التقاء عائلى على نطاق واسع ، يعرف أهل المحلة خلاله أحوال بعضهم البعض ، فإذا غاب شخص تساءلوا عنه ، وتعرفوا سبب غيابه ، فإن كان مريضاً عادوه ، أو محتاجاً ساعدوه ، كما أن الاجتماع يكون فرصة لتسرى الأخبار داعية للتعاون المنشود .

ويلتقط خطباء الجمعة الأخبار المهمة فى داخل المحلة وخارجها ليجعلوا منها مادة لوعظهم ، فيحاربون الضلال ، وينشدون البرَّ والهدى والرَّشاد .

(1) Hitti : History of the Arabs Vol. I. pp. 130—131

وفى الصلاة ثروة روحية عالية ، فهى تبدأ بتكبيرة الإحرام « الله أكبر » وتلك العبارة تحمل صراخاً فى وجه المتكبرين والمتجبرين بأن الله أكبر منهم وأعظم ، أو أن قواهم ليست شيئاً وجبروتهم ليس إلا خيالا ، وبتكبيرة الإحرام يبدأ المسلم رحلة إلى الله ، رحلة روحانية ، لم يتزوَّد لها المسلم بطعام أو شراب ، وإنما تزود لها بقراءات وأدعية ، ويخلو المسلم إلى الله فترة من الزمان ، بعد أن خلَّص نفسه من علائقها المادية ، واتجه اتجاها تاماً إلى ربه ، فلا يطعم ولا يشرب ، ولا يكلم أحداً إلا الله . فيناديه ويناجيه ؛ يحمده على نعمه . ويستغفر له من ذنبه . ويطلب منه الهداية والتوفيق للطريق القويم .

ويركع المسلم ويسجد ، وهو يناجى ربه بأن الخضوع لا يكون إلا لك ، والإنحناء لا يليق إلا أمام جلالك وعظمتك .

وتختم الصلاة بمجموعة من « التحيات » يذكر المصلى فيها ربه ويكرر تعظيمه وإجلاله ، ويذكر النبى الكريم الذى حمل هذه الرسالة فقاد أتباعه إلى شاطئ السلامة ، ويذكر كذلك إخوانه المسلمين ؛ ويدعو لهم بالخير والصلاح .

وكل صلاة من الصلوات الخمس لا تستغرق أكثر من خمس دقائق فى وضعها العادى . ولكن كثيرين من الناس يستكثرون هذه اللحظات .

والسبب فى ذلك واضح هو أنهم لا يحسون بحلاوة القرب من الله ، ولا بلذة المناجاة . لأنهم حين يصلُّون ليسوا قريبين منه . وحين يتكلمون لا يناجونه . إنهم يدخلون الصلاة ليقوموا بأعمال أوتوماتيكية . ولتنطق ألسنتهم بما لا تعيه عقولهم .

إن فكرهم بعيد عن الله . إنهم يرتبون وهم يصلون ما سوف يعملون بعد الصلاة ، وقد يكون ما يرتبونه ضلالا أو شرا ، أو يستعرضون ما مر بهم من أحداث ، وكثيرا ما كانت تلك ضلالا أو شرا كذلك .

إنهم أشبه بأعمى تضعه أمام لوحة فنية ممتازة ، أو أصم تصحبه إلى حفل موسيقى ، فسرعان ما يضيق به هذا وذاك ، لأن كلا منهما لا يستمتع بما فيه من لذة ، ولم يصل إلى شغاف نفسه ما به من جمال .

قل لى بربك : مَنْ ذا الذى يضيق بجلسة مع خالقه ورازقه ، ومن ذا الذى يضيق بحديث يوجهه إلى ربه يشكره ويذكره ويدعوه ؟

ما من لحظة يلتقى الإنسان فيها التقاء صحيحاً بربه إلا وتمنى أن تطول ، فإذا ضقت ذرعا بالصلاة فلنبحث عن الداء الذى دفعك إلى هذا الضيق ، وأغلب الظن أنه ماديتك ، أى أنك مرتبط بالمادة منجذب لها ، فلا تستطيع أن تصل إلى سماء الروحانيات ، واسأل نفسك كم ساعة تضيع كل يوم فى الأكل والشرب واللهو ، وسترى أن وقت الصلاة ضئيل جداً إذ قيس بأوقات الماديات التى تحيط بك .

وهناك مقياس واضح وضعه الإسلام لتعرف به مقدار البر فى صلاتك ؛ قال تعالى : « أقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر[1] » ويعنى هذا أن وقفتك الحقيقية أمام الله مصلياً ستطهر نفسك وتبعد الرجس عنك ، وكلما رأيت رجل يصلى ولكنه يقدم على الفحشاء والمنكر ، فلتعرف أن صلاته حركات لا مغزى لها ، وأقواله خالية من المعانى .

الزكاة :

ماذا نقول عن الزكاة فى الإسلام وما بها من ثقافة روحية ؟ لقد طاف العالم برحلة طويلة منذ بدء البشرية حتى الآن ، وشهد العالم فى أثناء هذه الرحلة فيضاً من الدماء وألواناً من الحروب التى تسببت عن المال بسبب التزاحم عليه والتكالب لنيله ، وقد وصف الإسلام الدواء للبشرية منذ

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٥ .

أربعة عشر قرناً ، ولكن كثيرين من الناس صموا آذانهم ولم يعوا هذه الدعوة ، وهبت الحروب وأُريقت الدماء ، ثم وجد العالم ألا بُدَّ من أخذ قسط من مال الغنى ورده إلى الفقير ، بل بالغت التشريعات فأزالت الملكية بتاتاً ، وحدَّت التوارث أو منعته ، وجعلت الناس متساوين فيما يملكون ، والطريقان بعيدان عن الصواب ، فحصر الثروات فى أيد قليلة شر لا يقرُّه الإسلام « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم »[1] والمساواة التامة بين الناس شيء يناقض الطبيعة ؛ فالطبيعة فاوتت بين الناس فى الصحة والذكاء والجمال والصوت وغيرها ، والطبيعة تجعل الأبناء يرثون عن آبائهم هذه الصفات أو أكثرها والطريق الوسط هو اشتراكية الإسلام ، وسنعود لها بحديث فيما بعد ، وقد أوضحناها إيضاحاً كاملا فى كتاب آخر[2] .

و « المال والبنون زينة الحياة الدنيا »[3] وطبيعة الإنسان الشح « قل : لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذاً لأمسكتم خشيةَ الإنفاق ، وكان الإنسان قتورا[4] » والإنسان يعمل لينمِّىَ ماله فى تجارة أو زراعة أو غيرها ، ثم يقدِّم الزكاة من هذا المال العزيز الذى كدَّ فى جمعه وتنميته ، والذى هو زينة الحياة الدنيا على الرغم من طبيعته الشحيحة ، إنها رياضة نفسية رائعة فرضها الإسلام ليسمو بالمسلمين عن دنيا المادة إلى صفاء الروح ، وليعلمهم الحياة الاجتماعية السمحة التى لا يُشْغَل فيها الشخص بنفسه وآله ويدع من سواهم ، فالإسلام بالزكاة ينقل الإنسان من الأنانية إلى الإيثار ، ومن الفردية إلى الجماعة ، فيحس أنه فرد فى هذا المجموع ينتفع به وينفعه[5] .

---

(١) سورة الحشر الآية ٧ .

(٢) السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى للمؤلف ص ١٧٥ وما بعدها .

(٣) سورة الكهف الآية ٤٦ . (٤) سورة الإسراء الآية ١٠٠ .

(٥) المجتمع الإسلامى للمؤلف ص ٥٧ .

وقبل الإسلام كانت هناك ضرائب ، ولكنها كانت مفروضة على الفقير يدفعها للغنى ، يدفعها من عرقه وجهده ، فإن لم يَكْفِ العرق والجهد سجن فيها أو دفعها من دمه ، فجاء الإسلام وصحح الوضع فجعل الضريبة على الغنيّ يدفعها لصالح الفقير .

وشهد التاريخ ثورات شبت نتيجة الضغط والقسوة ، وكانت ثورات قامت بها الشعوب ضد الملوك ، ولا تزال نظائر لها تحدث فى عهدنا الحاضر ، إذ يضيق الشعب بحاكمه الذى يأخذ الخير كله لنفسه ، فيهبُّ فى وجهه ، وتراق الدماء وتكثر الضحايا من الجانبين ، ولكن الإسلام شهد حرباً من نوع آخر ، إنها حرب أشعلها الحاكم لمصلحة الشعب ، إنها تلك الحرب التى قادها أبو بكر وهو يهتف : « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يعطونها لرسول الله لقاتلتهم عليها » ولم يتوقف أبو بكر حتى أخذ للفقراء حقهم من الأغنياء وأصحاب النفوذ .

وهكذا نجد الزكاة أداة تطهير روحانى بالغ الغاية ، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك أبلغ تعبير ، قال تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها[١] » وقد وضع النظام الإسلامى أسس الاشتراكية فى أسمى معانيها فجعل (المال ملكا للأمة ، تحفظه اليد المستحقة فيه وتنميه ، ثم تنتفع به الأمة كلها ، يخرج من أحد جانبيها ويقع فى الجانب الآخر ، فهو منها كلها ، وهو إليها كلها ، وما اليد المعطية واليد الآخذة إلا يدان لشخصية واحدة كلتاهما تعمل لخدمة تلك الشخصية ، ولا خادم فيها ولا مخدوم ، وإنما هما خادمان لشخصية واحدة هى شخصية المجتمع الذى الذى لا قوام له ولا بقاء ، إلا بتكافل هاتين اليدين على خيره وبقائه[٢]) .

---

(١) سورة التوبة الآية ١٠٤ .

(٢) الإسلام عقيدة وشريعة للأستاذ الشيخ محمود شلتوت ص ٨٧ – ٨٨ .

الصوم :

الصوم من العبادات التى تهذب الجسم والروح أيضاً ، وكثيرون من الناس يلجئون إلى ما يسمونه Regime وهو التخفيف من الطعام ، أو إلغاء بعض الوجبات ، أو عدم تناول نوع معين أو أنواع معينة من الأطعمة ، ويقصدون بذلك الهرب من الترهل أو يقصدون بعث النشاط إلى الجسم ، وإراحة المعدة من التخمة ، وقد عبر الرسول عن هذا المعنى بقوله : (نحن قوم لانأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لانشبع) ولما كان أغلب الناس لا يقوون على الحدّ من نهمهم من تلقاء أنفسهم ، وكانت الرغبة فى الطعام تدفعهم إلى أن يأكلوا بدون حساب ، فقد جاءت فريضة الصوم لتعالج هذا الداء ، وتيسر السلامة للأجسام ، وأعرف بعض المسيحيين أدركوا ما فى الصوم من فوائد للأجسام ففرضوه على أنفسهم وقاموا به على النحو الذى يتبعه المسلمون مع استمرارهم على اعتناق المسيحية .

أما الناحية الروحية للصوم فجلية واضحة ، وقد أدركت البشرية منذ عهود سحيقة ما يسببه الصوم من تهذيب للنفس وسمو للروح ، وأدركت أن الصوم معناه إهمال الماديات واحتقارها ، وفى ذلك تقوية للجانب الروحى فى الإنسان ، فلجأ الفلاسفة القدامى للصوم ، أو قل : للحرمان ، وبالغوا فيه يقصدون القضاء على الجانب المادى فى الإنسان أو كما فهمته الهندوكية والبوذية يقصدون إفناء الجسم الذى هو قفص تُحْبَس فيه الروح ، معتقدين أن القضاء على هذا القفص سيترتب عليه انطلاق الروح وتحررها ، وقد هذّب الإسلام هذه العبادة ، ولم يقصد بها القضاء على الجسم ، وإنما قصد بها هدفاً مزدوجا هو ترقية الجسم وترقية الروح جميعا .

والذى يفكر فى الصوم كما نظمه الإسلام يجد أنه رياضة روحية سامية ، وأنه ترجيح لجانب الروح فى صراعها مع الجسم ، وأنه عن طريق الصوم

يتحرر الإنسان من العادات التى خضع لها على مر الزمن ، كتناول الطعام فى وقت معين ، وكالتدخين والمرح ، تلك العادات التى يمكن أن يقال إنّ الشخص أصبح عبداً لها لا يستطيع أن يتخلف عنها .

كم استاء زوج لأن زوجته تأخرت فى إعداد الطعام عن موعده ، وكم اضطرب رجل لأن لفافات الدخان نفدت منه فى وقت لا يستطيع أن يشترى بدلها ، كأن يكون فى الليل أو فى رحلة ، وفى كثير من الأوقات يصبح الواجد معدما ، على أن الغنىّ وهو فى أوج غناه تأتى عليه ظروف يحتاج فيها إلى كوب ماء فلا يجده ، أو كسرة خبز فتعزّ عليه ، فكم من الأغنياء يعطش وهو فى جلسة عامة أو فى دار الخيالة وليس للماء فى العادة سبيل آنذاك ، وكم اضطرت الأعمال ذوى الأعمال أن يتأخروا عن مواعيد طعامهم وقتا طويلا أو قصيراً ، وليس الصوم إلا مدربا يُعِدُّ الشخص للتغلب على العادة التى اعتادها ، ويساعده على عودة السيطرة على جسمه ونفسه وهيئه لما قد يلم به من مشكلات وأزمات .

وقد حدث لى باندونيسيا حادث وثيق الصلة بموضوعنا هذا فى خلال كتابة تلك النقطة من هذا الكتاب ، ولم يحدث لى وحدى وإنما حدث لرفاق معى أيضاً ، وقصة ذلك أن فضيلة الأستاذ الأكبر (المرحوم) الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر كان فى زيارة رسمية لاندونيسيا وكان فى خطة تنقلاته بها أن يزور مدينة ميدان بسومطرة وأن أرافقه مع آخرين فى هذه الرحلة ، وكانت الطائرة على أن تغادر مطار جاكرتا فى الثانية بعد الظهر ، فكان مطلوبا منا أن نكون فى المطار فى الساعة الواحدة لنسلم حقائبنا ونؤشر على تذاكر سفرنا ، ومعنى هذا أننا خرجنا من بيوتنا حوالى الساعة الثانية عشرة ، ثم تأخر موعد قيام الطائرة من الثانية إلى منتصف الثالثة تقريباً ، وعلى هذا بدأنا الرحلة وليس فينا شخص واحد تناول طعام الغداء ، معتقدين أن الطائرة ستقدّم لنا

هذه الوجبة ثم ظهر أن الطائرة لا تقدم تلك الوجبة على اعتبار أن الرحلة تبدأ بعد فترة الغداء ، واستغرقت الرحلة حوالى أربع ساعات ، وهكذا كنا نسير بين الأرض والسماء ونحن جياع ، وفى جيوبنا أموال ولكنها لا تسمن ولا تغنى من جوع ، والعجيب أننا بعد أن نزلنا وجدنا أنفسنا أمام استقبال رسمى وخطط مرسومة فلم نر الطعام إلا بعد الساعة العاشرة .

وقد أدركت من هذه الحادثة مغزى هاما من دوافع الصوم ، فالصوم يعلمنا الصبر ويجعل مثل هذه الأحداث أمرا عاديا ، فالصائم الذى يقضى حوالى ست عشرة ساعة كل يوم دون طعام أو شراب يستطيع أن يواجه أمثال هذه الظروف بابتسامة ورضا ، لأن الجوع ليس غريبا عليه إذ يعانيه شهرا كل عام .

ومن الفوائد الروحية الجليلة للصوم غرس خلق المراقبة الذاتية فى النفس ، فالصوم واجب فى رمضان ، والاستحمام جائز أو واجب أحيانا ، وفى حالات كثيرة يشتد العطش بالمسلم فى نهار رمضان ، ثم يلقى بنفسه بين الماء ليستحم ، ويعمه الماء من كل جهة ، وهو شديد الحاجة إلى كوب منه يطفىء به ظمأه ويرد عطشه ، ولكنه لايفعل مع أنه لارقيب من البشر عليه ، ولن يعلم أحد من الناس ما ارتكب . وهذا الخلق نوع من التربية السامية يغرسه الإسلام فى المسلم ليسير فى الحياة مستقيما ، لاخوفا من القانون فطالما استطاع كثير من الناس أن يخدعوا القانون ، ولاخوفا من الناس فطالما أفلت المجرم من عيون الناس ، ولكن خوفا من نفسه ومن ضميره ومن الله الذى « لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء »[١] والذى « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور[٢] » .

---

(١) سورة آل عمران الآية الخامسة . (٢) سورة غافر الآية ١٩ .

الحج :

ربما كان مفيدا ونحن على باب الحديث عن الحج وما به من فوائد مادية وروحية أن نتذكر الإحصائيات الخاصة بالسياحة فى العالم ، وسنرى بلا شك آلاف الناس يقطعون ملايين الأميال كل عام لرؤية أهرام الجيزة أو للاستمتاع بشمس أسوان ، وللانزلاق على الجليد فى سويسرة ، ولرؤية صورة أقرب إلى الحياة الطبيعية أو البدائية ببعض أجزاء جزيرة بالى فى اندونيسيا ، وهكذا يسعى الناس من الشرق للغرب ومن الغرب للشرق ،لا بدافع دينى ، ولا لهدف روحى ، وإنما لما تحققه الرحلات من مزيد فى التجارب ومزيد فى المتعة الجسمانية والعقلية ، ولاشك أن رحلة المسلمين حتى يصلوا إلى البلدان المقدسة سيكون لها فى هذا المجال نصيب وافر ربما كان وحده دافعا إلى القيام بها ، على النحو الذى يدفع إلى القيام بالرحلات المماثلة .

ولا يظن ظان أن شمس أسوان هى التى تدفع الرحالة إلى هناك ، لا ، فكثير من الناس يرحلون وهدفهم الرحلة فقط وما يعود على الإنسان منها من فوائد ذات بال ، بدليل أن الرحلات تنتظم كل بلاد العالم ، فإذا كانت حلوان مثلا تمتاز بمائها المعدنى وجوها الجاف الرائع الذى يعد علاجا لبعض الأمراض ، فإن أهل حلوان وما جاورها من المدن يرحلون أيضا ويتجهون برحلاتهم إلى أمكنة أخرى بعيدة عن حلوان ، ومن الواضح أن الإنسان يعد نفسه للرحلة ، ويهيئ لها المال والوقت ثم يحدد المكان ، فإذا لم يُيَسَّر له مكان اختار سواه لأن الرحلة فى ذاتها مطلوبة ، ولأن الإحساس بالرغبة فى الترحال إحساس يكاد يكون عاما ينتظم اليافع والراشد والذكر والأنثى . تلك حقيقة ليس فيها شك أو خلاف ، وتثبت الإحصائيات الرسمية أن عددا كبيراً من غير المسلمين يرحلون إلى

المملكة العربية السعودية ، ويقربون فى رحلاتهم من مكة والمدينة وإن كانت القوانين لا تبيح لهم أن يدخلوا هاتين المدينتين المقدستين .

ذلك حديث موجز عن رحلات المتعة واللذة التى يقوم بها آلاف الناس كل عام ، فإذا جئنا إلى رحلات الرياضة والعمل والمؤتمرات وجدناها تكاد لا تنقطع فى كل أطراف العالم ، ووجدنا البنات والنساء والرجال يرحلون دون انقطاع لما فى ذلك من فوائد عظيمة . وقد أشار القرآن الكريم إلى تحققها أيضا فى رحلة الحج بقوله : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم[1] » وكلمة « منافع » عامة شاملة تفيد التعارف بين المسلمين وتفيد التعاون فى مختلف الميادين سياسية أو اقتصادية أو ثقافية أو غيرها .

ومن الرائع أن نتذكر أن الإسلام منذ حوالى أربعة عشر قرنا هتف باجتماع سنوى حدّد زمانه ومكانه ليلتقى فيه المسلمون من مختلف الأقطار ليبحثوا مشكلاتهم وليشهدوا منافع لهم ، ومرت الأزمنة والعصور وتطورت المدنية وخطت الإنسانية خطوات واسعة تجاه المعرفة والتقدُّم فى كل مجال ، ولكن هذه الإنسانية فى أقصى درجات رقيها لم تجد بدأً من أن تستوحى التعاليم الإسلامية وأن تسير على نهجها فقررت الأمم المتحدة اجتماعا سنويا لها ، حددت زمانه ومكانه ، وذهب له المندوبون من مختلف الأقطار يقصدون التعاون أيضاً فى مختلف الميادين .

ولكن المدنية الحديثة حينما حَذَتْ حَذْوَ الإسلام وسايرت تعاليمه ، لم يكن فى وسعها أن تقتبس اتجاهاته كاملة ، فقنعت الأمم المتحدة بأن أخذت من الحج جزأه المادى وهو الاجتماع السنوى ، ونسيت أن التشريع الإسلامى هيأ الحج تهيئة روحية ، وأحاطه بظروف تحقق له أقصى

---

(١) سورة الحج الآيتان ٢٧ — ٢٨ .

درجات النجاح ، تعال بنا نستعرض بإيجاز تلك الظروف الروحية التى توحى بالحب والصفاء والتى لو استُغِلَّت الاستغلال الطبيعى لآتت أطيب الثمرات .

فالمكان الذى اختير للحج هو منزل الوحى ، هو هذه الأرض التى درج عليها محمد ، وتلقى بها رسالة ربه ، هو مكة ، حيث الصراع الطويل الذى دار بين الحق والباطل ، هو الموطن الذى شهد رسول الإسلام وهو يقهر الأحداث ، ويهزأ بما حسبته قريش انتصارات لها فى نضالها ضد النور المنبثق ، هذا المكان له إيحاءاته ، وله صفاؤه ، وله تاريخه ، إنه يهيئ زواره إلى درجة من الطهر والنقاء يصغر معها متاع الحياة وماديّاتها .

وقبل أن يدخل الحاج مكة يلزمه أن يُحْرِم ، والإحرام درجة فى الروحانية ذات بال ، يخرج المسلم بها من لباسه ومن زينته ، ولايمس طيباً ، ولا يلبس مخيطاً ، ولا يقص ظفراً ، ولا يحلق شعراً ، ويكتفى بقماش ساذج يوارى به عورته ، ونعل بسيطة تحمى قدميه ؛ فالإحرام بعبارة أخرى إلقاء زينة الحياة الدنيا جانبا ، وتخلصٌ من المتع الزائلة ، وإشعار بالمساواة والأخوَّة بين المسلمين .

ويلتقى الحجيج جميعا فى التاسع من ذى الحجة بعرفات ، فى ذلك الجبل الفسيح بين الرمل والحصا ، وفى ذلك مزيد من الصفاء ، وتخلص من ماديات الحياة وأنوارها الـمُشِعَّة ، وما بها من جاذبية مؤقتة تسحر العيون ، وفتنة زائلة تشغل القلوب .

وهنا وهناك ترتفع الحناجر بالتلبية : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لاشريك لك » ، ولا يستطيع قلم أن يصور الانفعال الضخم الذى يشمل الحجيج وهم يهتفون هذا الهتاف الخالد ، ولا نزاع أنه عند ما تمتزج أصواتهم بالتلبية ، تمتزج

أرواحهم بالحب ، فيتناسون أوطانهم واتجاهاتهم ، ويلتقون جماعة واحدة لها إله واحد وتتبع رسالة واحدة ، تجعل منهم أمة واحدة وتجعل لهم هدفاً واحداً .

ذلك طرف من الحديث عن روحانية الحج ، ولا شك أنه فى مثل هذه الظروف يمكن أن يكون الحج مؤتمراً دانى الثمرات محقق النفع ، فقد هيأت هذه التعاليم الحجيج لصفاء روحانى يجعل هدفهم أسمى من المادة ومن التكالب عليها والسعى لنيلها ، ويجعلهم يسعون للخير ، لا للانتصار على حساب الآخرين كما نرى فى الصراع الذى يدور دون انقطاع فى أروقة الأمم المتحدة ، وصدق الله العظيم حينما قال : « فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج[1] » .

بقيت بعد ذلك نقاط نريد أن نستكمل بها حديثنا عن الحج ، وأول هذه النقاط أن الحج اجتماع شعبى ، لم يُخْتَرْ له مندوبون يمتازون بالحِجَاج والجدل ، بل تُرِك الباب مفتوحاً لمن يستطيع أن يأخذ فى هذا المؤتمر الشامل بنصيب ، والحجيج على هذا يمثلون كل الأقطار بل كل القرى ، ويمثلون كل الثقافات وكل الطبقات .

ولا يتجه الحجاج المسلمون فى حجهم إلى قبور يزورونها ويعظمون أصحابها كما تفعل كثير من الديانات ، لأن من مبادئ الإسلام التى لقيت كامل العناية فى التفكير الإسلامى إبعادَ المسلم عن كل ما فيه شبهةٌ تجاه تعدد الآلهة ، وعن مهزلة عبادة الإنسان أو عبادة الأصنام .

ولذة الحج يدركها الحجاج أكثر مما يدركها أولئك الذين يكتبون عن الحج دون أن يقوموا به ، ويمكننا أن ندرك هذه اللذة لو عرفنا أن آلاف الحجاج كل عام يقومون بالحج للمرة الثانية أو الثالثة أو السابعة أحياناً ،

---

(١) سورة البقرة الآية ١٩٧ .

فلأى شىء جُهْد هؤلاء ورحلتهم ونفقاتهم الباهظة بعد أن أدّوا الفريضة بحجهم الأول ؟ إنها ليست إلا للذة والمتعة التى يحسون بها والتى تفوق عندهم ما يبذلون من جهد وما يدفعون من مال ؟

ومما يتصل بهذا الموضوع أيضا ما نلاحظه فى مختلف البلدان الإسلامية من أن أكثر الذين يحجون ليسوا مكلفين بهذه الفريضة ، فقد أوضحت الشريعة الإسلامية أن الحج يجب على صحيح البدن ، بشرط أن يملك تكاليف الرحلة ، ويملك الإنفاق على نفسه خلالها عن سعة ، ويملك ما يتركه لأهله ليعيشوا فى رخاء مدة غيابه ، على أن يكون هذا المال خاليا من الديون والحقوق . ولو قارنا هذه الشروط بآلاف الحالات لوجدنا أن غالبية الحجاج يقومون بالحج لا إسقاطا للفريضة لأنها فى الحق ليست واجبة عليهم ، بل يقومون بالحج للذة والمتعة والبهجة والسرور .

بقيت كلمة تتصل بالحجر الأسود ، ذلك الحجر الذى كانت تعظمه قريش فى الجاهلية لأنه من بقايا الكعبة التى بناها أبوهم إبراهيم ، والذى يبدأ عنده الطواف حول الكعبة ، ولما كان بعض المسلمين قد اعتادوا أن يقبّلوه فقد فهم المستشرقون من ذلك أن فى الإسلام بقيّةً من وثنية الجاهلية ، وردُّنا عليهم أن الحجر الأسود لم يكن من بين أصنام العرب وأوثانها ، وهذا شىء واضح تمام الوضوح لدارس وثنية العرب[1] ، فأصنام العرب معروفة دون شك ولم يكن من بينها قط الحجر الأسود أو الكعبة ، وإذا اتضح أن العرب فى جاهليتهم لم يقدسوا الحجر الأسود ولم يجعلوه بين أوثانهم فكيف يجوز الاعتقاد بأن المسلمين قدسوه ؟

ولندع العرب فى جاهليتهم ولنعد إلى الإسلام ، وهناك رواية شائعة تقرر أن عمر بن الخطاب قبّل الحجر الأسود ولكنه وضّح مكانة ذلك

(١) اقرأ كتاب الأصنام لابن الكلبى ، وانظر مبحث الدين فى الجزء الأول من « التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية » للمؤلف .

الحجر وسبب تقبيله له بقوله : والله إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك .

هل هذه الرواية صحيحة ؟

الحق أننى كنت أظنها رواية مجمعا عليها ، ولكنْ حدث أننى ألقيت بالمذياع حديثا عن هذا الموضوع ضمن سلسلة أحاديث دينية ، وتكلمت عن الحجر الأسود مع التسليم بهذه الرواية والتعليل لتقبيل عمر للحجر مفترضا حدوث ذلك ، ثم اتصل بى بعض الباحثين وذكروا أن هذه الرواية موضوعة ، وأنكروا بأدلة ذكروها أن الرسول قبّل الحجر أو أن عمر قبّله .

وعلى هذا فإنكار هذه الرواية يضع حدا للموضوع ، ولكن إنكار هذه الرواية ليست موضع إجماع ، فلْنسر فى الموضوع على فرض حدوث التقبيل :

لماذا قبّل الرسول الحجرَ الذى لا يضر ولا ينفع ؟

فى الإجابة عن هذا السؤال نذكر أولا — أن تقبيل الرسول للحجر عمل شخصى لا تشريعى ، ولهذا فليس تقبيله واجبا على الناس ، ثم — ثانيا — يبدو لى أن الرسول قبّلهُ لحادث خاص تاريخى له صلة بالرسول ، وكلنا يذكر أن قريشا جدّدت بناء الكعبة ومحمد فى الخامسة والثلاثين من عمره ، أى قبل البعثة ، فلما أتمت قريش البناء وأرادت وضع الحجر الأسود فى مكانه اختلفت البطون فيمن يكون له شرف حمله ووضعه ، واشتد الخلاف حتى أوشكت الحرب أن تشتعل بينهم ، ثم اتفقوا على أن يحكّموا أول داخل عليهم من باب شيبة ، فكان محمد أول داخل منه ، فقالوا : هذا هو الأمين ، رضيناه حكما . وأخبروه الخبر .

وهكذا ألقت قريش مقاليد أمورها في يد محمد في ثقة واطمئنان ، وكأنّ ذلك كان امتحانا له ، وهو امتحان قاس لمن أراد أن يُرضى الجميع ، ووجد محمد الحل ، فبسط رداءه ووضع الحجر عليه ، ودعاهم ليأخذ كل بطن بطرف من الثوب وأن يحملوا الحجر معا . وهكذا انتصر محمد ورضى الجميع بما اقترح ، ونال محمد بذلك شرفا كبيرا تحدث به الناس ، فأصبح لذلك الحادث — فيما أظن — أثر فى نفس محمد دفعه إلى تقبيله ، وربما كان هناك دافع غير هذا ، ولكن الموضوع على كل حال شخصي لا تشريعى كما سبق القول .

ومن الأحداث المماثلة لموقف الرسول من الحجر الأسود ما حدث للملكة فيكتوريا ، إذ كانت تركب القطار ليلا ومعها كبار دولتها ، ثم رأى السائق شبحا يشير إليه إشارات غامضة كأنه شخص يومئ إليه أن يتوقف لخطر محدق بالقطار ، وتوقف السائق ونزل يستوضح الأمر ، فوجد فعلا خللا بالقضبان الحديدية كان سيؤدى بقطار الملكة إلى كارثة محقّقة ، وبحث السائق وأعوانه عمن أنقذهم وأنقذ الملكة ، فلم يجدوه شخصا ، وإنما كان فراشة ألقت بها الظروف فى الفراغ بين مصباح القطار والزجاجة الخارجية لهذا المصباح ، وكانت الفراشة تتراقص أمام المصباح فيدفع نور المصباح بخيال الفراشة إلى الخارج حتى ظهر للسائق فى الضوء البعيد كأنه إشارة خطر ، وهكذا دخلت هذه الفراشة التاريخ ، وحصل ارتباط بين حياة الملكة وبين هذه الفراشة ، فأصبحت فراشة مقدسة عند الملكة وقومها ، ولا يزال جثمانها يحتل مكانه فى المتحف البريطانى .

وأعرف رجلا كانت سيارته على وشك أن تهوى به فى سفح منخفض إثر ضربة من سيارة أخرى ، ولكن شجرة ردت سيارة الرجل قبل أن تهوى ، فأنقذت الرجل من موت محقق ، وأعرف هذا الرجل وقد بنى مسجدا بجوار هذه الشجرة ، وأصبح يؤدى فى هذا

المسجد أكثر صلواته ، ومن الواضح أن الرجل لم يعبد الشجرة ولم يعبد المكان ، ولكنها قصة خاصة من القصص التى لها عمق فى عواطف الإنسان دون أن يكون لها أى أثر فى تفكيره الدينى ، وليس الحجر الأسود عندى إلا كذلك بالنسبة للرسول صلوات الله عليه .

* * *

تلك هى العبادات فى الإسلام ، وتلك هى فلسفتها ومنها يتضح ما سبق أن أوردناه من أن العبادات تهذّب الناحيتين المادية والروحية فى الإنسان ، وهى متجددة متكررة حتى يظل المسلم أقرب إلى الطهر ، وحتى تجذبه العبادة إلى رحبات الله كلما دفعته ماديات الحياة إلى البعد عن هذه الرحبات .

بقى أن نوضح أن كلمة عبادة معناها الطاعة ، فعلى المسلمين أن يطيعوا خالقهم وأن يعبدوه كما أراد ، فهموا معنى العبادة أو لم يفهموها ، ولو ناقش خادم سيده فى كل أوامره وأبى أن يستجيب إلا لما يفهم سببه من هذه الأوامر ، لما طالت بينهما الصلة ولأسرعت العلاقة بينهما إلى الانفصام ، ثم أن هناك فرقا ملحوظا بين أن تتوضأ قاصدا النظافة وأن تصلى قاصداً رياضة البدن وتهذيب الروح ، وبين أن تعمل هذه الأشياء قاصـــدا الطاعة بالامتثال وإرضاء الله ، ولا شك أنه فى حالة الطاعة المطلقة تكون العبادة أمثل وأصدق تعبيرا عن المقصود ، ويروى أستاذنا الشيخ محمود شلتوت فى هذا المجال حديث الرسول (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى : فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) ويعلق فضيلته على هذا الحديث بقوله : فمن قصد بالوضوء النظافة فهجرته إلى غير الله ، ومن قصد الرياضة بالصلاة فهجرته إلى غير الله ، ومن قصد بالصوم العلاج

الصحى فهجرته إلى غير الله ، وهكذا من يفعل العبادة لغير وجه الله خالصة فهجرته إلى ذلك الغير[1] .

هذه ناحية ، وناحية أخرى نريد أن نتحدث عنها وهى أن نسأل : لماذا لا يُعْفَى من إحدى العبـادات أو منها كلها مَنْ تجمعت فيه الاتجاهات التى تعمل هذه العبادات لتحقيقها ؟ بمعنى أنه إذا كان الهدف من الصوم مثلا أن يحس الصائم بجوع الفقير ، أو أن يتعود الجوع استعدادا لما قد ينزل به من مشقات طارئة أو دائمة ، فلماذا لا يُعْفَى الفقير نفسه من الصوم ؟ ولماذا لا يعفى منه كريم اليد السخى بالعطاء ؟ وقُلْ مثل هذا فى باقى العبادات .

وللإجابة على هـذا نوضح أن الفلسفات التى سبق أن أوردناها إنما هى ألوان من الاجتهاد الإنسانى على مَرِّ العصور للبحث عن أسباب هذه العبادات ، وليس بعيدا أبدا أن تكون هناك أسباب لم نعرفها بعـد ، أو أن تكون عقولنا قاصرة عن إدراك أسباب حقيقية ستظل مطوية عنا .

ثم كيف جاز لنا أن نفكر فى أن نعفى من الوضوء الرجل النظيف ، وأن نعفى من الصوم الرجل الكريم ؟ مع أن النظيف اليوم قد يهمل النظافة غدا ، والكريم اليوم قد يبخـل الأيام التالية ، فكثيرون من الناس أهملوا مظهرهم بعد أن كانت عنايتهم بالمظهر على أشدها ، وكثيرون منهم شحوا بعد كرم وجود .

على أن وحدة التشريع هامة جدا فى التفكير الإسلامى ، ومعنى هذا أن العمل الجماعى مقصود ، فالدين دين الناس جميعا ، والتشريع جاء

---

(١) من توجيهات الإسلام ص ٣٥٧ .

للمسلمين جميعاً ، ولا يمكن أن يُهْمَل الجانب الجماعى فى التكاليف ، ذلك الجانب الذى يرمى إلى خلق وحدة بين المسلمين ، فصومهم معا وصلاتهم معا . . . . لها مغزى سامٍ[1] ولو طُفتَ العالم الإسلامى فى رمضان ورأيت صوما هنا وصوما هناك لأدركت سمو الهدف الذى قصد إليه الإسلام .

(١) انظر المجتمع الإسلامى للمؤلف ص ١٥٣ وما بعدها .

لا رهبانية فى الإسلام

عبر القرآن الكريم عن الطبيعة البشرية السليمة أصدق تعبير عند ما قال : « فمن الناس من يقول : ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق ، ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة [1] » فقد قسم الله تعالى الناس قسمين أحدهما يريد الدنيا فقط والآخر يريد الدنيا والآخرة ، وأهمل سبحانه وتعالى جماعة شذت عن الطبيعة البشرية ، وأهملت الدنيا إهمالا تاما ، وحسبت أن من الخير لها أن توجه كل اهتمامها للآخرة ، فلجأت إلى الصوامع والبيع والكهوف ، وجعلت دستورها الرهبانية والتبتل . وجدير بهذه الجماعة أن يُهملها الإسلام ، لأن سلوكها ليس طبيعيا ، والإسلام دين الطبيعة والفطرة .

والاتجاه للرهبنة والتبتل يعطل ما منحه الله للإنسان من قوى التفكير والإرادة والعمل ، كما يُبْقِى أسرار الكون ومنافعه كامنة ، وقد سخرها الله جميعها للإنسان وسلَّطه عليها ، ومهَّد له طريق إظهارها وعمارة الكون بها[2] ثم إنه يتنافى مع توجيهات الله التى أباحت الطيبات وحثت عليها . اقرأ معى هذه الآيات التى أوضحت هذه الاتجاهات :

ـ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون[3] .

ـ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى[4] .

ـ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه[5] .

---

(١) سورة البقرة الآيتان ٢٠٠ – ٢٠١ .

(٢) اقرأ كتاب منهج القرآن فى بناء المجتمع للأستاذ الشيخ محمود شلتوت ص ١٧ .

(٣) سورة التوبة الآية ١٠٥ . (٤) سورة النجم الآية ٣٩ .

(٥) سورة الملك الآية ١٥ .

– وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها[١] .

– والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين[٢] .

– وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره[٣] .

– ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة[٤]

– وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين[٥] .

– كلوا من طيبات مارزقناكم[٦] .

– قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق[٧] .

وطالب الإسلام بالعمل كل من يقدر عليه وجعل ذلك العمل عبادة ، فقد روى أن الرسول كان جالسا يوما مع أصحابه ، فرأوا شابا ذا جلد وقوة قد بكّر يسعى ، فقال أحد الجالسين : ويح هذا ، لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله . فقال عليه السلام : لاتقولوا هذا ، فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو فى سبيل الله ، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفهم فهو سبيل الله .

---

(١) سورة النحل الآية ١٤ .
(٢) سورة النحل الآية ٨٠ .
(٣) سورة إبراهيم الآية ٣٢ .
(٤) سورة لقمان الآية ٢٠ .
(٥) سورة الزخرف الآيتان ١٢ – ١٣ .
(٦) سورة البقرة الآية ٥٧ .
(٧) سورة الأعراف الآية ٣١ .

وهناك موقف للرسول جعل فيه المسلمَ المكافح خيرا من المتبتل المترهب ، فقد روى أن قوما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن فلانا يصوم النهار ، ويقوم الليل ؛ ويكثر الذكر . فقال : أيكم يكفى طعامه وشرابه ؟ فقالوا : كلنا . قال : كلكم خير منه ، وقد أوردنا هذا الحديث من قبل .

وقد صح أن أناسا جاءوا إلى زوجات الرسول يتعرفون عن طريقهن ألوان العبادة التى يقوم بها صلى الله عليه وسلم ، والتى سببت أن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وقد روى أن هؤلاء بدءوا يعلنون استعدادهم للتضحية بمتع الحياة ظانين أن فى ذلك ما يقربهم إلى الله ، فقال أحدهم : إنى لا آكل اللحم أبدا . وقال آخر : وأنا لا أتزوج النساء أبدا . وقال ثالث : وأنا أقوم الليل ولا أنام على فراش . فلما عرف الرسول ذلك خرج وصاح فيهم : ما بال قوم يقولون كذا وكذا ، والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم ، ولكنى أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وآكل اللحم ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى .

وروى عنه قوله : ليس فى دينى ترك النساء واللحم ولا اتخاذ الصوامع .

ويروى أن عمر بن الخطاب نظر إلى رجل مظهر للنسك متماوت ، فخفقه بالدِّرة ، وقال : لا تُمِتْ علينا ديننا أماتك الله[1] .

ومما سبق ندرك أن الإسلام لا يعرف الرهبانية ، وإنما هو دين اعتقاد وعمل وعبادة ، وللعمل وقته وللعبادة وقتها ، وقد فصَّل الله هذا الاتجاه فى قوله تعالى : يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن

---

(١) المبرد : الكامل جـ ٢ ص ٥١٠ .

كنتم تعلمون ، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله[1] » ومن أجل هذا يرى الباحثون المسلمون أن العمل عبادة ، وأن الله يثيب عليه لأنه أمَرَ به ، ففأس الزارع ، ومبرد الصانع ، ولسان المعلم ، وقلم الكاتب ، وعين المدير ، ومثيلاتها ، مصدر ثواب ورحمة لأصحابها ، وينمو ذلك الثواب كلما نما إخلاص المرء ، وكلما راقب الله فى حسن أداء ما وُكلَ إليه من عمل .

(١) سورة الجمعة الآيتان ٩ — ١٠

غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى

فى أكثر الأقطار الإسلامية يعيش عدد كبير من غير المسلمين ، فعلى مر التاريخ يوجد مسيحيون ويهود ، الجمهورية العربية المتحدة وإندونيسيا والعراق والمغرب وغيرها ، كيف عاش هؤلاء فى الماضى وكيف يعيشون الآن ؟

وفى مقابل ذلك عاش المسلمون فى بلاد غير المسلمين أى فى بلاد حكوماتها غير إسلامية ، كما عاشوا فى الأندلس بعد سقوط الحكومات الإسلامية ، وكما عاشوا فى فلسطين وقت انتصار الصليبيين ، وكما عاشوا فى الهند حتى عهد قريب ، وكما يعيشون فى إسرائيل الآن ، كيف عاش المسلمون فى تلك المجتمعات غير الإسلامية ؟ وكيف يعيشون ؟

الإجابة عن هذين السؤالين واضحة ، تراها فى الواقع الذى نعيش فيه ، وتقرؤها عن الماضى مما كتبه المسيحيون أنفسهم ، ففى العهد الحاضر ترى غير المسلمين فى المجتمعات الإسلامية يستمتعون بالحقوق الواسعة التى كفلها لهم الإسلام وينعمون بالتعاون والود وطيب العشرة التى اشتهر بها المسلمون ، وتطوف العالم الإسلامى فهيهات أن ترى شكاة من مسيحى أو يهودى ضد المواطنين المسلمين ، وكثيراً ما ترى الثروات الضخمة والتجارات الكبيرة يملكها يهود أو مسيحيون يعيشون فى ظل حكومات إسلامية.

أما حاضر المسلمين الذين يعيشون تحت حكومات غير إسلامية فيدلك على الآلام والقسوة والحرمان والطرد والصراع المرير ، إنهم هكذا يعانون فى إسرائيل ، حتى هجروا ديارهم ثم لم يسمح لهم بالعودة إليها ، وهم كذلك عانوا فى الهند قبل التقسيم حتى اضطروا إلى أن يستقلوا بقطعة من أرض الهند أطلقوا عليها الباكستان .

والماضي صورة من الحاضر فى الحالتين ، فقد لقى المسلمون من الحكومات غير الإسلامية ضنوف الاضطهاد والتنكيل ، ويحدثنا غوستاف لوبون[١] عن ضرب من ضروب القسوة والبربرية التى كانت طابع حكم الصليبيين فى فلسطين فيقول : (لم يكتف قومنا الصليبيون الأتقياء بضروب العسف والتدمير والتنكيل التى اتبعوها ، فعقدوا مؤتمراً أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود الذين كان عددهم ستين ألفاً فأفنوهم عن آخرهم فى ثمانية أيام ، ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولداً ولا شيخاً ، ويقول غليوم الصورى إن : الصليبيين كانوا من السفهاء الفاسدين والملاحدة الفاسقين ، ولو أراد كاتب أن يصف رذائلهم الوحشية لخرج من طور المؤرخ ليدخل فى طور القادح الهاجى) .

أما نتيجة انتصار المسيحيين بالأندلس على المسلمين فيحدثنا عنها الواقع الذى يرينا أنه ليس فى أسبانيا الآن مسلم واحد ، لقد ألقوا بالمسلمين فى قاع البحر ، أو أسالوا دماءهم وأزهقوا أرواحهم ، أو أرغموهم إرغاماً على ترك الإسلام والدخول فى دينهم ، فقد نشر فى فبراير سنة ١٥٠٢ أمر بطرد أعداء الله المغاربة (المسلمين) من إشبيلية وما حولها إذا لم يقبلوا التعميد ، وعليهم أن يغادروا أسبانيا قبل شهر أبريل ، وألا يصحبوا معهم ذهباً ولا فضة ، وألا يذهبوا فى طريق يقودهم إلى أرض إسلامية ، والنتيجة التى جاءت أثراً لهذه الشروط موت الجميع ودمار الجميع .

وهكذا تدرك فى يسر وسهولة أن المسلمين لقوا فى المجتمعات غير الإسلامية ألواناً من الاضطهاد والإبادة ، وكانت النتيجة التى سعت إليها هذه المجتمعات وحققتها أن تُفْنِيَ الإسلام وتُرْغِمَ ذويه على الارتداد عنه ، فإذا تمسك بعض المسلمين بدينهم أسلموهم إلى الدمار والفناء .

---

(١) حضارة العرب ص ١٩٤

أما غير المسلمين فى المجتمعات الإسلامية فقد شهد التاريخ أنهم نعموا فى ظل الإسلام بالرخاء والأمن والسلامة ، فقد رسم القرآن الكريم وأحاديث الرسول الطريق القويم للمسلمين فى معاملة غير أتباع ديانتهم وسار السلف الصالح فى ضوء ذلك ، وانحدر هذا الاتجاه خلال عصور التاريخ حتى أثنى عليه وامتدحه الكتاب المسيحون أنفسهم ، تعال بنا نقتبس من هذا الضوء بعضا منه دليلا على ما أوردناه هنا .

يحث الله تعالى المسلمين أن يحسنوا معاملة غير المسلمين وأن يكونوا معهم بررة وعدولا ، قال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين(١) » .

ويبيح الإسلام للمسلمين أن يؤاكلوا غير المسلمين وأن يصاهروهم ، ولا شك أن المصاهرة تخلق امتزاجاً بين هؤلاء وأولئك ، فأخوال الأولاد سيصبحون من أهل الكتاب ، وفى هذا رباط كبير أباحه الله بين المسلمين وغيرهم ممايدل على أن الإسلام دين الإنسانية ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وطعام الذين أوتوا الكتاب حلٌّ لكم وطعامكم حلٌّ لهم ، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم(٢) » .

وقد يدخل الابن الاسلام ويظل الأب على غير الإسلام ، وهنا يدعو الاسلامُ الابنَ أن يظل طيب الصحبة مع أبيه مع اختلاف الدين ، قال تعالى : « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا(٣) ».

ويوضح القرآن للمسلمين أدب الجدال بينهم وبين أهل الكتاب ، ومن هذا الأدب أن يعلن المسلمون إيمانهم بأديان أهل الكتاب تقرباً منهم ،

---

(١) سورة الممتحنة الآية ٨ . (٢) سورة المائدة الآية ٥ .
(٣) سورة لقمان الآية\١٥ .

وتضييقاً للهوَّة بينهم ، قال تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أُنزل إلينا وأُنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون[١] » .

ومن تسامح الإسلام مع أهل الكتاب أنه أباح لهم ما أباحته لهم أديانهم وإن حرمها الإسلام على المسلمين ، فليس هناك من حرج على أهل الكتاب أن يشربوا الخمر ، أو يأكلوا لحم الخنزير ، وليس للمسلمين أن يمنعوهم من ذلك .

أما الرسول صلى الله عليه وسلم فقد كان مثلا أعلى فى معاملة أهل الكتاب ، فقد رُوى أنه كان يحضر ولائمهم ويشيع جنازاتهم ، ويعود مرضاهم ، ويزورهم ويكرمهم ، حتى روى أنه لما زاره وفد نصارى نجران فرش لهم عباءته وأجلسهم عليها ، وروى أنه كان يقترض من أهل الكتاب نقوداً ويرهن عندهم أمتعته ، حتى أنه توفى ودرعه مرهون عند بعض يهود المدينة فى دين عليه ، وكان يفعل ذلك لا عَجْزاً من أصحابه عن إقراضه إذ كان منهم المؤثرون الذين هم مستعدون لأن يضحوا بأنفسهم وأموالهم فى مرضاة نبيهم ، بل كان يفعل ذلك تعليما للمسلمين وإرشاداً[٢] .

ويروى عنه صلى الله عليه وسلم قوله : من آذى ذميا فليس منى . وكان حِرْص المسلمين على الوفاء لأهل الذمة حقيقة مشهورة معروفة ، حتى أنه يروى أن واصلا بن عطاء زعيم المعتزلة قابل مرة عصابة من الخوارج الذين يستحلُّون دماء المسلمين الذين يخالفونهم فى العقيدة ، ورأى واصل أن الطريق لنجاته هو وصحبه من موت محقق ، أن يدَّعى أنه هو وصحبه ذميون ، وهكذا فعل وهكذا نجا[٣] .

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٦ .

(٢) عفيف طبارة : روح الدين الإسلامى ص ١٩٩ .

(٣) المبرد : الكامل فى اللغة والأدب حـ ٢ ص ٢٥٤ .

ومن الطبيعى أن السلف الصالح ساروا فى معاملة أهل الكتاب سيرة القرآن وسيرة الرسول ، ولنأخذ عمر بن الخطاب نموذجاً للسلف الصالح ، ففى عهده اتسع العالم الإسلامى وضم آلافاً من غير المسلمين ، وفيما يلى سطور من نور عنه تبين جانباً من أدب الإسلام وخلفاء الإسلام .

تحقق النصر لجيوش المسلمين التى تحارب فى إيلياء ، ولكن عمر كان حريصاً على السلم أكثر من حرصه على النصر ، ولذلك تجده يرحل بنفسه إلى هذه المدينة ، ويكتب بينه وبين المسيحيين بها عهداً جاء فيه :

« . . . . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، سقيمها وبريئها وسائر ملتها : أنه لا تُسكن كنائسهم ، ولا تُهدم ، ولا يُنتقص منها ولا من خيرها ، ولا من صليبهم ولا من شىء من أموالهم ، ولا يُكْرَهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يَسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . . . . » .

وكتب للنصارى فى بيت المقدس أمانا على أنفسهم وأهليهم ، يتعهد فيه بسلامة كنائسهم ، فلا تُهدم ، ولا تُسكن ، ولهم أن يباشروا طقوس دينهم وعبادتهم دون أى تدخل أو ضغط .

وكان عمر لا يكتفى بهذه العهود يقطعها لهم عليه وعلى قومه ، بل كان يشفعها بوصاياه المتكررة إلى ولاته أن يمنعوا المسلمين من ظلم أهل الذمة ، وأن يوفوا لهم بعهدهم ويخففوا عنهم ، وألا يكلفوهم فوق طاقتهم ، وقد سجل ذلك فى وصيته قبل موته .

ومن الناحية العملية نجد أن عمر وفّى بما وعد بل زاد عليه عطفاً وتسامحاً وحسن معاملة ، فبينما هو فى كنيسة القيامة إذ دخل وقت الصلاة ، فخرج عمر وصلى خارجها ، وقال للبطريرك : لو صليتُ داخل الكنيسة خفت أن

يقول المسلمون من بعدى : هذا مُصَلَّى عمر ، وأن يحاولوا أن يقيموا فى هذا المكان مسجداً .

وروى أنه رأى شيخاً يهودياً يسأل الناس ، فسأله عمر : ما الذى حملك على السؤال ؟ فأجاب الرجل : الحاجة والسن . فأخذ عمر بيده وذهب إلى منزله حيث أعطاه عطاء سخياً ، ثم أرسله إلى خازن بيت المال مع رسالة قال فيها : انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم خذلناه عند الهرم ، إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، وهذا من مساكين أهل الكتاب .

ومر وهو فى أرض الشام بقوم مجذومين من النصارى ، فأمر أن يُعْطَوْا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت بانتظام[1] .

وبلغ من حرصه على الرحمة بأهل الكتاب أن عزل والياً أحس أنه ضاق ذرعاً ببعض أهل الكتاب فى ولايته ، فخاف عمر أن يجور عليهم ، روى أن نصارى تغلب كانوا يناوئون واليهم الوليد بن عقبة ، فنفد صبر الوليد ، مما كانوا يعملون ، فقال شعراً يتوعدهم ويهددهم ، وسمع عمر بعض هذا الشعر فخشى أن يقسو الوليد عليهم ، وأن يبطش بهم ، فعزله عن ولايته ، وعيَّن أميراً غيره

وكان أهل الكتاب يدفعون الجزية للمسلمين ، يدفعها منهم القادر على حمل السلاح ، ولا تدفعها المرأة ولا الصبى ولا الشيخ ولا الأعمى . . . . والجزية مقدار ضئيل من المال يتفاوت بتفاوت حالة الذمى المالية ، فهى على الأغنياء ٤٨ درهماً فى العام (حوالى جنيهين) وعلى المتوسطين ٢٤ درهماً وعلى العمال والصناع ١٢ درهماً .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٥ .

وتدفع الجزية لسببين :

١ ــ ينتفع أهل الكتاب بالمرافق العامة مع المسلمين ، كالقضاء والشرطة وغيرها ، والمرافق العامة تحتاج إلى نفقات يدفع المسلمون قسطها الأكبر ، ويسهم أهل الكتاب بالجزية فى تكاليف هذه المرافق .

٢ ــ لا يكلَّف القادرون من أهل الكتاب أن يحملوا السلاح ويدافعوا عن البلاد بل يقوم بذلك المسلمون ، ولذلك يدفع أهل الكتاب هذه الضريبة نظير إعفائهم من هذا الواجب الكبير ، ويسجل التاريخ أنّ بعض أهل الكتاب قاموا بنصيبهم فى الدفاع فى بعض الأحوال فسقطت عنهم الجزية وكان ذلك فى عهد عمر أيضاً[1] .

ويروى البلاذرى[2] أن المسلمين عندما دخلوا حمص أخذوا الجزية من أهل الكتاب الذين لم يريدوا أن يدخلوا الإسلام ، ثم عرف المسلمون أن الروم أعدوا جيشاً كبيراً لمهاجمة المسلمين ، فأدرك المسلمون أنهم قد لا يقوون على الدفاع عن أهل حمص ، وقد يضطرون للانسحاب ، فأعادوا إلى أهل حمص ما أخذوه منهم ، وقالوا لهم : شُغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم ، فأنتم على أمركم . فقال أهل حمص : إن ولايتكم وعدلكم أحبُّ إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعنّ جند هرقل عن المدينة مع عاملكم . ونهضوا بذلك ، فسقطت الجزية عنهم .

والذى نريد أن نسجله هنا أنه مع بساطة هذه الجزية ، ومع سياسة المعاملة الكريمة التى اتبعها عمر ورعاها ، دخل كثير من أهل الكتاب فى عهده دين الإسلام أفواجاً ، لا هربا من الجزية ، ولا تحاشيا لسوء معاملة ، وإنما إعجاباً بعدل الإسلام وخُلُق خليفة المسلمين .

---

(١) هناك مسألة واضحة ولكن لا مانع من ذكرها دفعاً لأية شبهة عند بعض القراء ، وهى أنه بناء على الدراسة السابقة لا يُلزم الإسلام أهل الكتاب فى العصر الحاضر أن يدفعوا الجزية ، لأنهم يدفعون الضرائب التى يدفعها المسلمون ويحملون السلاح فى الجيوش مع المسلمين .

(٢) فتوح البلدان ص ١٤٣ .

وسار المسلمون فى أكثر عصورهم سيرة عمر بن الخطاب ، سار عليها الخلفاء الأمويون عند انتصارات المسلمين في الهند والأندلس ، وسار عليها نور الدين زنكى فى انتصاراته ضد الصليبيين ، وسار عليها صلاح الدين الأيوبى والظاهر بيبرس والأشرف خليل ، هؤلاء الأبطال الذين قضوا على حكم الصليبيين فى فلسطين ولكن دون تنكيل ودون وحشية ، ونختم هذا البحث بنماذج من أقوال بعض الكتاب المسيحيين يعترفون فيها بما ناله المسيحيون فى ظل الإســـلام من سلام وعون .

يقول عيشو يابه أحد البطاركة المسيحيين : إن العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العـــالم يعاملوننا كما تعرفون ، إنهم ليسوا بأعداء للنصرانية ، بل يمتدحون ملّتنا ، ويوقّـرون قسيسينا ، ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا (١)

ويقول آدم متز(٢) إن ما يميز المملكة الإسلامية عن أوربا النصرانية فى القرون الوسطى أن الأولى يسكنها عدد كبير من معتنقى الأديان الأخرى غ الإسلام ، وليست كذلك الثانية ، وإن الكنائس والبِيَعَ ظلت فى المملكة الإسلامية كأنها خارجة عن سلطان الحكومة ، فكأنها لا تكوّن جزءاً من المملكة ، معتمدة فى ذلك على العهود وما أكسبتها من حقوق ، وقضت الضرورة أن يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين ، فتسبب عن ذلك خلق جو من التسامح لم تعرفه أوروبا فى القرون الوسطى .

---

(1) Thomas of Marga : Books of Governors Vol 2 P,156

نقلا عن « روح الدين الإسلامى » ص ٢٠١ .

(2) An Introduction to the Islamic civilisation, translated by Khuda Bakhsh

الدين المعـــاملة

اتجه كثير من المسلمين بالإسلام اتجاه عبادة ، وحسبوه صلاة وصوماً وتسبيحاً ، وتناسوا جانب المعاملة فيه ، ونحب أن نوضح أن الإسلام يهتم اهتماماً كبيراً بالمعاملة ، ومن القواعد التى وضعها الأصوليون أن حقوق الله مبنية على المسامحة وحقوق الناس مبنية على المشاحجة ، فإذا قصَّر مسلم فى حق من حقوق الله فإن التوبة تغفره وعفو الله قد يشمله ، ولكن إيذاء الناس لا يُغْفَر إلا إذا عفا الناس ، فردُّ الحقوق شرط أساسى لقبول التوبة ، وحُسْن المعاملة بكل ما تحتماه هذه الكلمة من معنى ، أصل من أصول الإسلام ، بل أصل مهم جدا ، فالإسلام ينظم علاقات الناس بالناس على أسس من الحب والعدالة مع اتباع النظم الإسلامية فى البيع والشراء والميراث والزواج والطلاق والهبة وغيرها ، ومع اتباع آداب الإسلام فى معاملة الناس ، والإخلاص للعمل ، والتضامن فى أداء الواجب ، والبعد عن إيذاء الناس ، كل هذا وما يماثله أجزاء مهمة من الدين الإسلامى ، ولا يكمل الدين بسواها .

وقد ورد أن رجلا قال للنبى : يا رسول الله ، إن فلانة تكثر الصلاة والصوم والصدقة ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها ؛ فقال : هى فى النار .

ولست أنوى فى هـــذا البحث أن أكتب عن خلق المسلم ، وأصور اهتمام القرآن الكريم والحديث الشريف بجانب المعاملة فى هذه الخاق فإنَّ هذا بحث طويل يجدر به أن يكون مستقلا ، وقد عُنى به كثير من الباحثين القدامى والمحدثين[1] ، ولكننا هنا لا نجد بُدًّا من تخصيص فراغ

(١) اقرأ الإحياء للإمام الغزالى وخلق المسلم للشيخ محمد الغزالى .

محدود جدا نذكّر فيه المسلم بأخلاق الإسلام . تلك الأخلاق التى يجمعها الحديث الشريف « الدين المعاملة » فالمعاملة ليست فقط جزءا من الدين وإنما هى الدين كله كما وضحه هذا الحديث ، وفيما يلى صورة سريعة لأخلاق المسلم كما رسمتها مصادر الشريعة موضحةً بها النهج الذى يجب على المسلم أن يتبعه فى سلوكه ومعاملته :

الرجل الكامل فى القرآن :

يقول المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل(١) : لقد طالما صور الكُتّاب فى مختلف العصور والأمم صورة الرجل الكامل ، صوّره الشعراء والكتاب والفلاسفة والمسرحيون ، صوّروا هذه الصورة فى العصور القديمة ، وما يزالون يصوِّرونها حتى اليوم ، ومع ذلك لن تجد صورة لهذا الرجل الكامل كهذه الصورة الفذة التى وردت فى سياق سورة الإسراء ، وهى ليست إلا بعض ما أوحى الله إلى رسوله من الحكمة ، لا يقصد بها إلى تصوير الرجل الكامل وإنما يقصد بها أن يذكِّر الناس ببعض ما يجب عليهم ، يقول تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغنَّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل : رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنَّه كان للأوَّابين غفورا ، وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ، إن المبذِّرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربِّه كفورا ، وإما تُعْرِضَنَّ عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا ، ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ، إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ،

---

(١) حياة محمد ص ٣٤ .

ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا ، ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ومن قُتِلَ مظلوما فقد جعلنا لوليِّه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ، وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا ، ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسئولا ، ولا تمش فى الأرض مرحا ، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ، كل ذلك كان سيِّئُه عند ربك مكروها(١) .

وهكذا تجد بهذه المجموعة من الآيات ألوانا من حسن المعاملة والإرشاد لتعاون كامل ، فهى تبدأ بالإحسان للأبوين ، وتعرج على ذوى القربى ، ثم المحتاجين عموما ، وتوص بالأولاد ، وتنفر من الزنا وقتل النفس بغير حق ، وتوصى باليتيم وتخوف من ماله ، وتحث على إيفاء الكيل والميزان ، وتصل القمة عندما تذكِّر الإنسان أنه سُيسأل عن سمعه وبصره وعقله ، فعليه ألا يسيء استعمال هذه المنح الإلهية ، ثم تذكِّر الإنسان بضعفه وقلة شأنه ، فينبغى له أن يدع الكبر وأن يتخلق بالتواضع ، ولا شك أن من اتبع هذه التعاليم كان جديرا أن يكون كاملا أو أقرب إلى الكمال .

الإسلام والمساواة :

من الحق علينا أن نتخذ التؤدة دستورنا ونحن نتحدث عن موقف الإسلام من المساواة ، فقد وقف الإسلام نحوها موقفاً فريداً بين الاتجاهات القديمة والاتجاهات الحديثة ، فالهندوسية قسَّمت أتباعها أقساماً متميزة ، وجعلت الحقوق تتفاوت بتفاوت هذه الأقسام ، وجاءت البوذية فألغته

(١) سورة الإسراء الآيات ٢٣ – ٣٨

الطبقات ولكن بشرط الدخول فيها ، فلم تتخذ البوذيةُ المساواة مبدأً لذاتها ، ولكنها جعلت كل البوذيين – لا كل البشر – متحدين . وفى بلاد فارس وُجِدَت نظرية « الحق الإلهى المقدس » التى تجعل الملوك آلهة أو ممثلين للآلهة ، وتقول بأن دماً إلهياً يجرى فى عروقهم دون سائر البشر . وجاءت اليهودية فبارك أتباعها أبناءَ يعقوب ولعنوا أبناء أخيه الأكبر عيسُّو ، وسار اليهود على مبدأ التفريق بين البشر إلى أبعد الشوط ، فجعلوا الرحمة والعطف والإخاء والمودة وقفاً على فقراء اليهود ومحرمة على سواهم ، وحرموا الربا مع اليهود وأباحوه مع غيرهم ، وورد بالعهد القديم عن ذلك «للأجنبي تقرض بربا ، ولكن لأخيك لا تقرض بربا لكى يباركك الرب إلهك فى كل ما تمد إليه يدك(١) » .

وجاءت المسيحية لترد اليهود عن جشعهم وتعلُّقهم بالمادة ، ولتحث على إطعام الفقير ورعاية البائس ، ولكن سرعان ما تحولت المسيحية بفعل رجال الكنيسة إلى خَلْق الطبقات والتفريق بين شعب وشعب ، وكذلك إلى عزل الكنيسة عن المجتمع وعزل الدين عن الحياة ، وطالما ناصرت الكنيسة الباطل ، ورعت الحكام الجائرين ، وأباحت لهم الشهوات واللذائذ ، وجعلتهم طبقة أرفع من طبقات البشر ، كما فعلت الكنيسة القيصرية(٢) .

ذلك هو الاتجاه القديم ، فكيف اتجهت المدنية الحديثة حيال المساواة ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال لا تحتاج إلى كبير عناء ، فالتفرقة العنصرية التى يعامل بها البيضُ سكانَ المستعمرات تدل دلالة واضحة على الطبقية المسعورة التى خلقتها هذه المدنية الزائفة ، ومن ذلك ما يعانيه الزنوج بأمريكا من اضطهاد وعسف ، وقد دفع كنيدى حياته ثمناً لموقفه العادل من هؤلاء الزنوج ، فما إن نادى بالمساواة وعمل على أن يُلزِم بها المتعصبين حتى دُبِّرت جريمة اغتياله من الصهاينة ورعاة التفرقة العنصرية البغيضة .

---

(١) سفر الخروج الأصحاح الثانى والعشرين

(٢) انظر « الأديان » للأستاذ محمد فؤاد الهاشمى ص ١٢٧

فماذا كان موقف الإسلام من المساواة !

كان موقف الإسلام حاسماً حول هذا الموضوع ، إنه موقف يحدده القرآن الكريم والسنة وعمل الصحابة الأبرار ، قال تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم[١] » . فهذه الآية تذكّر الناس بوحدة المنشأ ، وتقرر أن التفاضل لا يتخذ أساسه أصول الناس وألوانهم ، بل ما يقدّمونه من عمق الإيمان والعمل الصالح .

ومن السنة ينطلق قوله عليه السلام فى خطبة الوداع : أيها الناس ، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى ، ألاهل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

وروى أن أبا ذر الغفارى كان يناقش عبداً فى حضرة الرسول ، فاحتد أبو ذر وصاح بالعبد : يآ ابن السوداء . فالتفت له المعلم العظيم وألقى فى وجهه بتعبير يعتبر غاية فى الاستنكار ، هو : طفّ الصاع ، طفّ الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بعمل صالح . وقد أدرك أبو ذر من كلام الرسول مدى الخطأ الذى ارتكبه بتفكيره الطبقى ، فهوى من استعلائه فى لحظة قصيرة ، ووضع خده على الأرض وقال للعبد : قم فطأ خدى .

ولما سرقت فاطمة بنت الأسود المخزومية ، جاء أسامة بن زيد يشفع لها ، فأنكر الرسول على أسامة شفاعته لها ، وقال للناس حوله : إنما أهلك من كانوا قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣

ومن وصايا عمر بن الخطاب لولاته قوله :

— سوِّ بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف فى جنبك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك .

— اجعل الناس عندك سواء ، لا تبال على مَنْ وجب الحق ، ثم لا تأخذك فى الله لومة لائم ، إياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله .

وهكذا قرر الإسلام المساواة ولا يزال يوصى بها ، وإن شطت الاتجاهات القديمة ، أو ضعفت المدنية الحديثة عن التمسك بهذا الخلق القويم .

الإسلام والحرية :

إن موقف الأديان والمدنيات من الحرية ليس بعيداً عن موقفها من المساواة ، فالطبقات فى الهندوسية نصت على أن « الملك إله فى صورة إنسان فوق الأرض وإن كان طفلا رضيعاً » وألزمت طبقاتِ الشعب أن تقدم له أعمق الإجلال ، ولم تدع الحريةَ لأحد من هذه الطبقات أن ينقده أو يعلق على تصرفاته ، وقد جاء فى شرائع منو ما يلى : ويأمر الملك بصب زيت حار فى فم الشودرا وفى أذنيه إذا ما بلغ من الوقاحة ما يبدى به رأياً للبراهمة فى أمور وظائفهم(١) .

وحرّمت الديانة اليهودية على الشعب اليهودى مناقشة الأحبار والكتبة والقدّيسين ، وفى المسيحية سرعان ما استولت الكنيسة على مقاليد السلطة ، واستغلت الشعب المسيحى أسوأ استغلال مما أدى إلى وجود طوائف خارجة على الكنيسة ، ولما شعرت الكنيسة بوجود المفكرين الذين خرجوا عما رسمته من قواعد وأصول رأت فى ذلك ما يهدد سلطانها ويضعف مركزها أمام تيار الفكر الحديث والعلم الآخذ فى النماء ، فانطلقت تقاوم وتجاهد تلك الأفكار وذلك العلم ، فحاولت تكميم الأفواه البريئة ، وتعطيل الأفكار الحرة التى تناقض نظرياتها ، ومن هنا كان العداء الشنيع بين الكنيسة وحرية الفكر

---

(١) أديان الهند الكبرى للمؤلف ص ٥٩ .

منذ ذلك الحين ، وأصدرت قرارات بتحريم قراءة حوالى خمسة آلاف كتاب من بينها كتب جان جاك روسو وديكارت وفيكتور هوجو وغيرهم[١] وعندما ظهر القول بكروية الأرض – ذلك الأمر الذى عرفه المسلمون وصار رأياً لهم منذ أول خلافة بنى العباس – أحدث اضطراباً شديداً فى عالم النصرانية ، وهددت الكنيسة من يقول به[٢].

هذا عن حرية الرأى والبحث ، أما حرية التدين فقد ألغته الكنيسة واتخذت قرارات غاية فى القسوة سواء فى ذلك ضد اليهود أو ضد البروتستانت أو ضد المسلمين ، ففى ٣٠ مارس سنة ١٤٩٢ أصدرت الكنيسة بأسبانيا قراراً بأن كل يهودى لم يقبل العمودية فى أى سن كان وعلى أى حال يجب أن يترك أسبانيا قبل يوليو ، ومن رجع منهم إلى هذه البلاد عوقب بالقتل ، وفى فبراير سنة ١٥٠٢ نُشِر الأمر بطرد أعداء الله المغاربة (المسلمين) إذا لم يقبلوا التعميد ، وشُرِط على من يترك منهم أسبانيا ألا يذهب فى طريق يؤدى إلى بلاد إسلامية .

وقد أصدر البابا منشوراً سنة ١٨٦٤ جاء فيه لعن كل من يقول بجواز أن يفسر أحد شيئاً من الكتب المقدسة على خلاف ما ترى الكنيسة ، أو يرى بأن الشخص حر فيما يعتقد ويدين به لربه ، وأصدر منشوراً سنة ١٨٦٨ ينص على أن المؤمنين (المسيحيين) يجب عليهم أن يفدوا الكنيسة بأرواحهم وأموالهم ، وعليهم أن ينزلوا لها عن آرائهم وأفكارهم[٣] ، ولما ظهرت طائفة البروتستانت جعلت الكنيسةُ الكاثوليكية عقوبة الإعدام قانوناً يحكم به على كل من يخالف معتقد الطائفة ، ومن

---

(١) محمد فؤاد الهاشمى : الأديان ص ١٥٧ وعن الكتب التى حرمتها الكنيسة اقرأ كتاب « المسيحية » للدكتور أحمد شلبى ص ٤١

(٢) الإمام محمد عبده : الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ٤٢

(٣) الإمام محمد عبده : الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ١٤

أهم المذابح التى وقعت للبروتستانت مذبحة باريس سنة ١٥٧٢ التى سطا فيها الكاثوليك على ضيوفهم البروتستانت وقتلوهم خيانة وهم نيام[١] .

ولم يعرف العالم القديم حرية التملك فقد كان النظام الاقطاعى منتشرا ، وكانت الأرض ملكاً للحاكم ولقلةٍ من أعوانه ، أما الشعب فكان رقيقاً تابعاً للأرض ، لا حق له ولا حرية .

ذلك هو موقف الأديان والثقافات من الحرية قبل الإسلام ، فماذا كان موقف الإسلام ؟

فى الإجابة عن هذا السؤال نلجأ إلى اقتباسات من القرآن الكريم توضح بما لايدع مجالا للشك تقدير الإسلام للحرية فى كل مجالاتها .

فعن حرية الفكر نجد الإسلام يحث الناس على التفكير والتدبر والعمق ، قال تعالى :

– أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور[٢] .

– هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ، إنما يتذكر أولو الألباب[٣] .

– يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات[٤] .

– شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط[٥] .

وقال صلى الله عليه وسلم : الدين هو العقل ، ولا دين لمن لاعقل له . وقال : فقيه واحد أفضل عند ربه من ألف عابد .

---

(١) انظر المسيحية للمؤلف ص ٣٧

(٢) سورة الحج الآية ٤٦ (٣) سورة الزمر الآية التاسعة

(٤) سورة المجادلة الآية ١١ (٥) سورة آل عمران الآية ١٨

وعن حرية التدين يقول الله تعالى :

– لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى[١] .

– لكم دينكم ولى دين[٢] .

– ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة[٣] .

– فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر[٤] .

– قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله[٥] .

– ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن[٦] .

وعن الحرية السياسية جعل الإسلام للمسلم حق اختيار الحاكم ، ومناقشته ، والاعتراض على ما لا يُقْبَل من تصرفاته ، وحق عزله وسيأتى بعض التفصيل لذلك عند إيراد « لمحة عن النظم السياسية فى الإسلام »[٧] وحفل التاريخ الإسلامى بنماذج من الاعتراض على الحاكم تعد غاية فى الرقى والتطور ، ففى غزوة بدر أراد الرسول أن ينزل بجنوده منزلا ، فسأله الحُباب بن المنذر : هل أنزلك الله هذا المنزل أو هو اجتهاد من عندك ؟ فأجاب الرسول : إنه اجتهاد من عندى فقال الحباب : أما إذ كان الأمر كذلك فليس هذا بمنزل ، وأشار بمكان آخر فارتضاه الرسول وارتضاه المسلمون .

وفى غزوة الأحزاب اتفق محمد مع أهل الطائف على أن ينفضُّوا ويفكوا حصارهم عن المدينة ، وكتب معهم وثيقة بثلث ثمار الطائف نظير

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٦ (٢) سورة الكافرون الآية السادسة
(٣) سورة النحل الآية ١٢٥ (٤) سورة الغاشية الآيتان ٢١ – ٢٢
(٥) سورة آل عمران الآية ٦٤ (٦) سورة العنكبوت الآية ٤٦
(٧) لمزيد من الشرح اقرأ « السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى » للمؤلف

ذلك ، فسأله قادة الأنصار : هل هذا الرأى من عندك أو وحى من الله ؟ فأجاب بأن هذا الأمر من اقتراحه هو رجاء أن تنفض الغمة ، وحينئذ تناول سعد بن معاذ هذه الوثيقة ومزقها ووافقه المسلمون على ذلك[١] .

وخطب عمر بن الخطاب مرة يندب الناس للجهاد ، فوقف رجل وقال : لا سمعا ولا طاعة . فسأله عمر : لماذا ؟ فأجاب الرجل : لقد قسمت علينا أقمشة من بيت المال وكان نصيب الواحد لا يكفى ثوباً ، وأراه عليك الآن ثوباً كاملا وأنت رجل طويل . قال عمر لابنه عبد الله : أجبه يا عبد الله . قال عبد الله : لقد أعطيت أبى من نصيبى ما يكمل به ثوبه . قال الرجل : أما الآن فالسمع والطاعة .

واحترم الإسلام حرية الملك وحرسها ووضع الأسس لنقلها من المالك إلى ورثته .

* * *

تعال بنا بعد هذا نجلْ جولة سريعة مع الفكر الإسلامى لنقتبس من آيات القرآن الكريم ومن أحاديث الرسول ما يُكْمِل لنا بإيجاز رسم صورة للرجل المسلم :

المسلم لا يسخر من الناس :

يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابذوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون[٢] .

---

(١) الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت : من توجيهات الإسلام ص ٥٣٠
(٢) سورة الحجرات الآية ١١

المسلم لا يأخذ بالظن ولا يتجسس :

يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه[١] .

الإسلام يدعو للاتحاد :

ــ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا[٢] .

ــ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم[٣] .

الإسلام يدعو لأداء الأمانة والوفاء بالعهد :

ــ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها[٤] .

ــ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون[٥] .

ــ وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : كنا جلوساً عند الرسول فأقبل علينا رجل من أهل العالية فقال : أخبرنى يا محمد عن أشد شىء فى هذا الدين وألينه . فقال له : يا أخا العالية ، ألين شىء فى هذا الدين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وأشده يا أخا العالية الأمانة ، ألا إنه لادين لمن لا أمانة له وإن صام وصلى .

الإسلام يحذر من الغش ومن تطفيف الكيل :

ــ وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم[٦] .

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٢
(٢) سورة آل عمران الآية ١٠٢
(٣) سورة الأنفال الآية ٤٦
(٤) سورة النساء الآية ٥٨
(٥) سورة المؤمنون الآية ٨
(٦) سورة الإسراء الآية ٣٥ .

– ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون[١] .

الاسلام ينهى عن الحسد :

– ولا تتمنوا ما فضَّل الله به بعضكم على بعض[٢] .

– أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله[٣] .

– قل أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ، ومن شر غاسق إذا وقب ، ومن شر النفاثات فى العقد ، ومن شر حاسد إذا حسد[٤] .

الإسلام ينفر من القسوة على اليتيم ومن أكل ماله :

– فأما اليتيم فلا تقهر[٥] .

– أرأيت الذى يكذِّب بالدين فذلك الذى يَدُعُّ اليتيم[٦] .

– وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ، إنه كان حوبا كبيرا[٧] .

الاسلام يأمر بالعدل وينفر من الظلم :

– إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى[٨] .

– وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى[٩] .

---

(١) سورة المطففون الآيات ١ – ٣

(٢) سورة النساء الآية ٣١

(٣) سورة النساء الآية ٥٣

(٤) سورة الفلق كلها

(٥) سورة الضحى الآية ٩

(٦) سورة الدين الآيتان ١ – ٢

(٧) سورة النساء الآية ٢

(٨) سورة النمل الآية ٩٠

(٩) سورة الأنعام الآية ١٥٢

– يأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى[١] .

الإسلام ينفر من الرشوة :

– ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدلوا بها إلى الحكام لتأكلو فريقا من أموال الناس بالإثم[٢] .

– وقال صلوات الله عليه : الراشي والمرتشي فى النار .

الاسلام ينفر من شهادة الزور :

– فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور[٣] .

– والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مرُّوا كراما[٤] .

الاسلام يوصى بالجار :

– واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب[٥] .

– عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه .

الاسلام يدعو للتعاون والايثار :

– وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان[٦] .

---

(١) سورة المائدة الآية ٨

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٨

(٣) سورة الحج الآية ٣٠

(٤) سورة الفرقان الآية ٧٣

(٥) سورة النساء ٣٦

(٦) سورة المائدة الآية ٢

– لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون[١] .

– ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون[٢] .

– فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، والذين هم يراءون ويمنعون الماعون[٣] .

الإسلام يوصي بالحط عن المدين وعدم تعجيله :

– وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة[٤] .

– رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى .

– من سره أن ينجيه الله من كُرَبِ يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه .

تلك نماذج من المعاملة التى رسمها الإسلام لأتباعه ومعتنقيه ، وقد دلتنا هذه النصوص على أن سوء معاملة الناس دليل على عدم الانتفاع بتوجيهات الإسلام ، ومن ادَّعى الإسلام وبعُد عن أخلاقه وتوجيهاته ، كان كشجرة لا ثمر لها ، ولْنَسْتَعِدْ قول الرسول عن المرأة التى تكثر الصوم والصلاة ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها حيث قال : هى فى النار . وقوله : لا دين لمن لا أمانة له . فإذا أردْتَ أن تكون مسلما فلتتبْع حديث الرسول الذى جعلناه عنوانا لهذا البحث وهو « الدين المعاملة » .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٩٢
(٢) سورة الحشر الآية ٩
(٣) سورة الماعون الآيات ٤ – ٧
(٤) سورة البقرة الآية ٢٨٠

انتشار الإســـلام (*)

بين الدعوة والقوة

يعتقد بعض المستشرقين وبعض من لم تتح لهم الفرصة للتعمق فى الدراسات الإسلامية ، أن القوة كانت عاملا مهما فى انتشار الإسلام ، ويتخذون من الحروب التى حدثت فى حياة الرسول وبعد وفاته دليلا على ذلك ، ورداً لهذا الادعاء نأخذ فى شرح هذا الموضوع ، ونبدأ بأن نسأل سؤالين هامين :

١ – هل انتشر الإسلام بالدعوة أو بالقوة ؟ وما الدليل على ذلك ؟

٢ – وإذا كان قد انتشر بالدعوة فلماذا حدثت الحروب بين المسلمين وغيرهم ؟

للإجابة عن السؤال الأول نقول فى قوة وإصرار إن الإسلام لم ينتشر بالسيف وإنما انتشر بالدعوة ، ونضع البراهين الواحد بعد الآخر فى سلسلة من آيات القرآن ، ثم فى سلسلة من أحداث التاريخ بحيث لا يبقى للشك مجال :

فأما القرآن الكريم وهو دستور المسلمين الواجب الاتباع ، فقد وضّح فى عدة آيات أن الدعوة هى الطريق إلى الإسلام ، وأنه لا يجوز إجبار أحد على تغيير دينه ، قال تعالى :

– لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى(١) .

(*) انظر ما كتبناه عن هذا الموضوع فى الجزء الأول من كتابنا « التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية » .

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٦

– ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة(١) .

– لكم دينكم ولى دين(٢) .

– فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب(٣) .

– فذكِّر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر(٤) .

وأما سلسلة التاريخ فتُرينا بوضوح أن الإسلام سلك طريقَهُ بالدعوة ، متبعاً هذه الآيات البينات ، ومُبْتَعِداً كل البعد عن القسوة . وإلى القارئ بيان ذلك :

١ – حينما كان الرسول فى مكة ، وحينما بدأ دعوته وحيداً لا سلاح معه ولا مال ، دخلها مجموعة من عظماء الرجال من أمثال أبى بكر وعثمان وسعد بن أبى وقاص وطلحة والزبير ثم عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب . فهل يمكن أن نقول إن هؤلاء دخلوا بالقوة ؟

وأين القوة فى ذلك الوقت؟

٢ – واضطهدت قريش المسلمين اضطهاداً قاسياً ، وأنزلت بمحمد وأتباعه ألواناً من العذاب ، وفى وسط هذا العناء حينما كان محمد والمسلمون معه بمكة مغلوبين على أمرهم مستضعفين ، كان أهل المدينة يسعون للإسلام فيعتنقونه ويدعون له ذويهم وأهليهم ؛ فهل يمكن أن نقول إن الإسلام انتشر بالقوة بين سكان المدينة ؟

٣ – جاء الصليبيون إلى الشرق إبَّان ضعف الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية لمحو الإسلام والقضاء عليه ، وإذا بالإسلام يجذب جموعاً منهم

(١) سورة النحل الآية ١٢٥

(٢) سورة الكافرون الآية ٦ (٣) سورة الرعد الآية ٤٢

(٤) سورة الغاشية الآيتان ٢١ – ٢٢

فيدخلونه ويحاربون فى صفوف المسلمين . يقول توماس أرنولد : لقد اجتذبت الدعوة المحمدية إلى أحضانها من الصليبيين عدداً مذكوراً حتى فى العهد الأول أى فى القرن الثانى عشر ، ولم يقتصر ذلك على عامة النصارى بل إن بعض أمرائهم وقادتهم انضموا أيضاً إلى المسلمين فى ساعات انتصارات المسيحيين .

ويروى توماس أرنولد عن بعض مؤرخى النصارى قوله : إن ستة من أمراء مملكة القدس استولى عليهم الشيطان ليلة معركة حطين ، فأسلموا وانضموا إلى صفوف الأعداء دون أن يُقهروا من أحد على ذلك ، ويعلل توماس أرنولد لانتشار الإسلام بين الصليبيين بقوله : ويظهر أن أخلاق صلاح الدين وحياته التى انطوت على البطولة قد أحدثت فى أذهان المسيحيين فى عصره تأثيراً سحرياً خاصاً ، حتى أن نفراً من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة انجذابهم إليه أن هجروا ديانتهم المسيحية وهجروا قومهم وانضموا إلى المسلمين ، وكذلك كانت الحال عند ما طرح النصرانية ، مثلا ، فارس انجليزى من فرسان المعبد ، يدعى روبرت أوف سانت ألبانس سنة ١١٨٥ م واعتنق الإسلام ، ثم تزوج بإحدى حفيدات صلاح الدين(١) .

فهل يمكن أن نقول إن الإسلام انتشر بين الصليبيين بالقوة ؟

٤ — فى القرن السابع الهجرى هجم المغول على العالم الإسلامى ، وكان هجومهم وحشياً قاسياً مدمراً ، سفكوا الدماء فسالت أنهاراً ، وحطموا الحضارة الإسلامية ، وهدموا القصور والمساجد ، وأحرقوا الكتب ، وقتلوا العلماء ، وامتدت أيديهم إلى الخليفة فقتلوه وقتلوا معه أهله . وأزالوا الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ ، وأصبحت للمغول اليد العليا ، وهوت أمامهم كل قوى المسلمين فى عاصمة الخلافة وما حولها ، ولكن سرعان ما جذب الإسلام

---

(١) اقرأ ما كتبه توماس أرنولد عن « حالات التحول إلى الإسلام بين الصليبيين » فى كتابه : الدعوة إلى الإسلام ص ١٠٨ وما بعدها .

إليه هؤلاء الفاتحين الغزاة ، وسرعان ما دخله المغول الذين هاجموه وعملوا على تقويضه . فهل يمكن أن نقول إن الإسلام انتشر بين المغول بالقوة ؟

يقول سير توماس أرنولد فى ذلك : لا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من خطوب وويلات خطبا أعنف قسوة من غزوات المغول ، فلقد انسابت جيوش جنكيز خان ، واكتسحت فى طريقها العواصم الإسلامية وقضت على ما كان بها من مدنية وحضارة . . . على أن الإسلام لم يلبث أن نهض من رقدته وظهر من بين الأطلال ، واستطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين البرابرة ويحملهم على اعتناقه[١].

٥ — وهل كانت غزوات الرسول ذات بال من الناحية الحربية ؟ إن التاريخ يحدثنا أن أكثر غزوات الرسول انتصر فيها أعداء المسلمين . ولكن الإسلام كان ينتشر فى حالتى انتصار المسلمين وانهزامهم[٢] .

٦ — يحدثنا التاريخ بصراحة ووضوح أن أهم فترة انتشر فيها الإسلام هى فترة السلم الذى تلا صلح الحديبية بين قريش والمسلمين ، وكانت فترة السلم سنتين ، ويقول المؤرخون إن من دخل الإسلام فى خلال هاتين السنتين أكثر ممن دخلوه فى المدة التى تقرب من عشرين عاماً منذ بدء الإسلام حتى ذلك الصلح . وهذا يدلنا على أن انتشار الإسلام تبع السلم ولم يتبع الحرب .

٧ — وهناك فكرة مهمة يجدر بنا أن نوضحها تماماً ، ويجدر بالقارئ أن يتفهمها ؛ تلك الفكرة هى أنه لا علاقة بين انتشار الإسلام وبين حروب المسلمين مع الفرس والروم . فقد كانت الحروب تشتعل ، وكان المسلمون ينتصرون ، ثم تتوقف الحروب وتتوارى السيوف ، وحينئذ يتقدم الدعاة

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ١٤٨ و ١٥٠
(٢) اقرأ المجتمع الإسلامى للمؤلف ص ١٢٨ — ١٣٣

والمعلمون فيشرحون نظم الإسلام ومبادئه وفلسفاته ، وكانت هذه الدعوة السمحة تجذب لها الناس وبخاصة عندما رأت الشعوبُ المغلوبة الفرقَ الكبير بين حكم قيصر وطغيانه ، وبين بساطة عمر بن الخطاب وسماحته وتواضعه ، وبالدعوة دخل الناس أفواجاً فى الدين الجديد ، فمنهم من أسرع فى الدخول ومنهم من دخل بعد عام ، أو خمسة أعوام ، أو مائة . . .

ويقول Kirk[1] إن غالبية أهل الشام ومصر السفلى فى القرن التاسع الميلادى كانت لا تزال مسيحية على الرغم من أن الإسلام كان قد مضى عليه فى هذه البقاع أكثر من قرنين ، ومن هؤلاء المسيحيين مَنْ لم يدخل الإسلام حتى الآن ، وتستطيع أن ترى اليوم الآلاف أو الملايين من المسيحيين الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العراقية وغيرهما من البلاد الإسلامية .

مرة أخرى لا علاقة بين انتشار الإسلام وبين الحروب .

ومثل هـــذا ما ذكره J. Fage and Roland Oliver من أن الإسلام لم يتخذ طريقه وراء الصحراء بأفريقية إلا بعد انحلال دولته الكبرى فى المغرب ، وكانت وسيلة الإسلام لهذه البقاع هى الثقافة والفكر والدعوة ، فانتشر الإسلام بين شعوب البربر ، وقامت خلف الصحراء دولة إسلامية لعبت فى التاريخ دوراً كبيراً[2] .

٨ — وانتشر الإسلام انتشاراً واسعاً فى إندونيسيا وفى إفريقية ، فأين القوة التى نشرته فى هذه البلاد الفسيحة وجذبت له قلوب الملايين ؟ .

وكاتب هذه السطور عاش فى إندونيسيا عدة سنين ورأى الإسلام بنفسه وهو ينتشر بين الاندونيسيين بيسر وبساطة ، رآه وهو يهزم الديانات الأخرى

---

(١) A short history of the Middle East p. 36.

(٢) A short History of Africa P 77

والأفكار المتعددة ويتقدم إلى الطليعة لا تدفعه إلا مبادئه السمحة وتعاليمه المعقولة الهادئة البسيطة ، وقد رأيت فى أندونيسيا صراعاً بين الأديان والأفكار ، كل منها يريد أن يكون أسرع وصولا إلى قلوب الاندونيسيين ، ولكل منها وسائل وطرق تعمل على تحقيق هذه الغاية ؛ كانت المسيحية يساعدها أو قُلْ يفرضها بطش المستعمر وماله ورجاله ، والكونفوشية يساعدها ملايين الصينيين الذين يقيمون فى اندونيسيا وتدفعها الثروات الضخمة التى يملكها هؤلاء الصينيون ، والهندوكية والبوذية تساعدهما صلات الهند باندونيسيا تلك الصلات الثقافية والحضارية التى تضرب فى أعماق التاريخ ، ورأيت الإسلام تدفعه مبادئه ويرعاه الله ، يعلِّمه عرب هاجروا من البلاد العربية بثقافة محدودة وبدون مال ولا سلطان ، أو يعلِّمه اندونيسيون ينطبق عليهم وصف العرب فى فقرهم وقلة سلطانهم ، فماذا كانت نتيجة هذا الصراع ؟

أما الكنفوشية فقد خرجت صفر اليدين ولم تجذب إليها فرداً واحداً تقريباً من أبناء اندونيسيا . وقنعت الهندوكية والبوذية بنصيب ضئيل حصلت عليه غالباً قبل زحف الإسلام . وجذبت مدارسُ المسيحيين ومستشفياتهم ووظائفهم عدداً قليلا لايتجاوز المليونين ، وأغلبهم سقطوا فى المسيحية مخدوعين ، فالطفل يدخل مدرسة مسيحية ويتلقى تعاليم هذه الديانة ، ثم يخرج مسيحياً ولا يعرف غير المسيحية ، والمريض يشترك فى الصلوات والأدعية التى تقام فى المستشفيات وليس له إلا الاشتراك أو الطرد من المستشفى وهكذا دواليك . أما الإسلام فقد اكتسح وتسرب فى النور وبالدعوة السلمية إلى أكثر من تسعين فى المائة من سكان اندونيسيا الذين يقربون من تسعين مليوناً .

أما انتشار الإسلام فى إفريقية فندع الحديث عنه إلى شاهد عيان آخر ،

ذلك هو الكاتب المسيحى الفرنسى هوبير ديشان حاكم المستعمرات الفرنسية بإفريقية حتى سنة ١٩٥٠ وهو يقول[١] :

إن انتشار دعوة الإسلام فى أغلب الظروف لم تقم على القسر ، وإنما قامت على الإقناع الذى كان يقوم به دعاة متفرقون لا يملكون حولا ولا طولا إلا إيمانهم العميق بربهم ، وكثيراً ما انتشر الإسلام بالتسرب السلمى البطىء من قوم إلى قوم ، فكان إذا ما اعتنقته الارستقراطية وهى هدف الدعاة الأوَّل تبعتها بقية القبيلة ، وقد يسَّر انتشارَ الإسلام أمرٌ آخر هو أنه دين فطرة بطبيعته ، سهل التناول ، لا لبس ولا تعقيد فى مبادئه ، سهل التكييف والتطبيق فى مختلف الظروف ، ووسائلُ الانتساب إليه أيسر وأيسر ، إذ لا يُطْلَبُ من الشخص لإعلان إسلامه سوى النطق بالشهادتين فيصبح بذلك فى عداد المسلمين ، وقد حببَ الإسلامَ إليهم مظاهرُه الخلاَّبة كالثوب الفضفاض والمسبحة والكتابة العربية والوقار الدينى وشعائر الصلاة ، مما يضفى على المسلم مكانة مرموقة وجاذبية ساحرة ، فالذى يدخل الإسلام ولو فى الظاهر ، يشعر بأنه أصبح ذا شخصية محترمة ، وأنه قد ازداد من القوة والحيوية .

وتقول الباحثة الألمانية الدكتورة Ilse Lictenstadter أن التخيير ببلاد الفرس والروم لم يكن بين الإسلام والسيف ، وإنما بين الإسلام والجزية ، وهو الخطة التى استحقت الثناء لاستنارتها حين اتبعت بعد ذلك فى إنجلترا إبان حكم الملكة اليصابات[٢] .

ونجىء بعد ذلك إلى السؤال الثانى : لماذا حدثت الحروب بين المسلمين وغيرهم ؟

---

(١) الديانات فى إفريقية السوداء ص ١٢٨ – ١٢٩

(٢) Islam and the Modern Age P 67

والإجابة عن هذا السؤال سهلة يسيرة أشرنا إلى بعضها فيما سبق وسنذكر فيما يلى موجزاً شاملا لها :

١ — الدفاع عن النفس : يقرِّر التاريخ أن المسلمين قبل الهجرة لم يؤذن لهم بقتال ، وقد ضُرِبَ عمار وبلال وياسر وضُرِب محمد وأبو بكر ، ومات ياسر تحت العذاب ، ولم يَرْفع هؤلاء أيديهم لرد الاعتداء الذى وقع عليهم . ولكن المشركين أسرفوا فى عدوانهم ، ووصلوا إلى حد تقرير قتل محمد . فلما أفلت منهم محمد ، وأفلت منهم المسلمون بالهجرة ، وضع المشركون خُطَّتهم على أن يقضوا قضاء عاجلا على المدينة حتى تتخلص الجزيرة العربية من الإسلام والمسلمين . فكان من الضرورى أن يدافع المسلمون عن أنفسهم ، وقد أذن الله لهم بالدفاع بقوله : « أُذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله »[(١)] . ويتضح من الآية للذى يمعن النظر أن الإسلام لا يحب القتال ، فالفعل (أُذن) مبنى للمجهول ، وفاعله عند ما كان مبنيًّا للمعلوم هو الله سبحانه وتعالى ، وقد بُنِيَ الفعل للمجهول لأن الله لم يرد — فيما أفهم — أن يذكَر اسمه الكريم متصلا بالإذن بالقتال . ثم إن نائب الفاعل محذوف تقديره : القتال ، أى أذن لهم القتال ، ولم يذكر نائب الفاعل أيضاً لأنه كلمة (القتال) وبدلَ نائب الفاعل ذُكرَ سبب الإذن وهو (بأنهم ظُلموا) وقد دعا هذا بعضَ المسلمين أن يقولوا عند ما نزلت هذه الآية : إنها لا تكفى لنقاتل المشركين ، لأن روحها تميل إلى السلم ولو أن ألفاظها تأذن بالقتال . ولم يبدأ القتال الحقيقى بين المسلمين وغيرهم إلا بعد أن نزلت آية أخرى هى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين[(٢)] » ومع أن الإذن هنا صريح إلا أنه مشروط بحالة

---

(١) سورة الحج الآيتان ٣٩ — ٤٠ (٢) سورة البقرة الآية ١٩٠

الدفاع ، وعدم الاعتداء ، فالاعتداء يسبب سخط الله .

وهكذا كان السبب الرئيسى للقتال هو الدفاع عن النفس والعرض والمال .

وهنا يبدو موضوع مهم يتصل بالحبشة ، تلك البلاد التى ليست بعيدة عن الجزيرة العربية والتى للمسلمين بها عهد منذ مطلع الإسلام ، فقد هاجروا إليها قبل هجرتهم للمدينة . والسؤال المهم هو أن المسلمين لم يهاجموا الحبشة ، لأن الحبشة لم تمسهم بسوء ، ولو كان المقصود نشر الإسلام بالقوة لهاجموها ، فهى أقل قوة من الفرس والروم . قد يقال إن البحر يحميها منهم ، والجواب سهل ، فقد ملك المسلمون بَحْرِيَّةً قوية هاجموا بها القسطنطينية وسيطروا بواسطتها على أهم جزر البحر الأبيض المتوسط ولكنهم لم يتجهوا للحبشة ، فما كانت أعمال المسلمين الحربية إلا دفاعاً ورداً لاعتداء .

٢ ــ تأمين الدعوة وإتاحة الفرصة للضعفاء الذين يريدون اعتناقها : كانت الدعوة الإسلامية مهددة ، وكانت قريش تسلك كل السبل للقضاء عليها ، ثم كان هناك كثير من العرب يميلون للإسلام ويريدون الدخول فيه ، ولكنهم كانوا يخافون أن ينزل بهم ما نزل بمن سبقوهم إلى الإسلام من عذاب وإيذاء ، فأذن الله لرسوله وللمؤمنين أن يقاتلوا من قاتلهم ، وأن يردوا الاعتداء الذى قد ينزل بأحد منهم بقوة السيف .

٣ ــ المحافظة على الأمة الإسلامية من أن تدكها جيوش الفرس والروم : قبل الإسلام لم تكن هناك أمة عربية ، وإنما كانت هناك قبائل عربية متحاربة متنافرة ، ولذلك لم يكن الفرس والروم يقيمون حسابا للعرب ، إذ كان العرب داخل جزيرتهم يصطرعون صراعاً يكاد يكون متصلا ، وعلى هذا غض الفرس والروم بصرهم عن الجزيرة العربية لأنها لم تكوّن وحدة يمكن أن تصبح خطراً على الدولتين المجاورتين فى الشمال .

فلما جاء الإسلام آمن به بعض العرب وكفر به آخرون ، وقام نزاع عنيف فى الجزيرة العربية بين المسلمين وغير المسلمين (قريش واليهود) ، وفى هذه المرحلة لم يهتم الفرس والروم أيضاً بهذا الدين الجديد ، وقالوا إنها حركة قام بها عربى وسيقتلها العرب واليهود ، وظنوا أنها نوع من الصراع الداخلى لا يلبث أن يموت .

ولكن سرعان ما بدأ الإسلام ينتصر وينتشر ، وسرعان ما تكونت فى الجزيرة العربية دولة قوية متحدة ، وبالإضافة إلى قوتها واتحادها كانت لها مبادئ الدين الجديد الذى اجتمع العرب حوله ، هذه المبادئ التى خلقت منهم أسرة واحدة متحابة وجعلت لهم رئيساً واجب الطاعة : قال تعالى : « إنما المؤمنون إخوة[١] » ، وقال : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول[٢] » .

كل هذا أدخل الذعر والخوف فى نفوس الفرس والروم ، فقد أصبحت الجزيرة العربية منافساً خطيراً ، قوياً متحداً ، وأصبحت دولة لها دين ولها مبادئ تعمل على نشر هذا الدين وإذاعة أفكاره واكتساب الأنصار إليه ، ومن أجل هذا دخل الفرس والروم المعركة ، وقررتا ضرورة القضاء على الدولة الإسلامية الجديدة والقضاء على الوحدة التى تكونت عند العرب ، وقد بدأ ذلك فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد وقعت فى عهده غزوة مؤتة بين الروم والمسلمين وقتل فيها مجموعة من خيرة القواد المسلمين ، كما خرج الرسول لمواجهة الروم فى غزوة تبوك عندما بلغه أنهم تجمعوا لمهاجمة المسلمين ، وكان المسلمون يتوقعون هجوم الروم عليهم كل لحظة ، ومما يدل على ذلك أن صحابيًا فى أثناء حياة الرسول

(١) سورة الحجرات الآية العاشرة (٢) سورة النساء الآية ٥٨

دق باب عمر بن الخطاب فى ليلة وعمر نائم ، فهب عمر من نومه مذعوراً وهو يقول : ما هو ؟ أجاءت غسان ؟

وكما تحرّش الروم بالمسلمين تحرش بهم الفرس أيضاً ، فالتاريخ يروى لنا أن القبائل الموالية للفرس كانت تُوالى الإغارة على أرض المسلمين ، ولم تكن حرب المسلمين مع الفرس إلا امتداداً للدفاع الذى قام به المسلمون ليحموا أنفسهم وذويهم من هؤلاء المغيرين .

فالحرب الحقيقية لم تكن مع الشعوب ، وإنما كانت مع قيصر وكسرى وجيوشهما الباغية ، هؤلاء الجبابرة الطغاة الذين كانوا يسلبون الشعوب المغلوبة حرياتها وثرواتها ، والذين كانوا يقفون حاجزاً بين الناس وبين الدين الجديد حتى لا يجذبهم إلى رحاب الحرية والمساواة ، فلما سقط هذا الحاجز اتصلت الشعوب التى كانت خاضعة مغلوبة على أمرها ، بالإسلام ، وتعاونت مع العرب ، ومنهم من دخل الإسلام واستعذب الحرية فى ظلاله ، ومنهم من بقى على دينه .

ومبادئ الإسلام واضحة فى أن أى قتال إنما هو لرد عدوان كما سبق القول ، وينص القرآن على أن على المسلمين أن يلجئوا للسلم إذا أوقف أعداء الإسلام عدوانهم ، قال تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله[١] » وقال : « فإن اعتزلوكم ولم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا »[٢] .

وقد سار الرسول على هدى هاتين الآيتين الكريمتين فنراه يخرج لملاقاة الروم عندما بلغه أن جموعهم تجمعت على أطراف الجزيرة وأنها تريد الهجوم ، فلما وصل إلى تبوك ووجد أن جيوش الروم تراجعت لم يفكر فى مهاجمة الروم ، وإنما عاد أدراجه إلى المدينة .

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦١ (٢) سورة النساء الآية ٩٠

علاقة الحالة الاقتصادية بالحروب :

بقى موضوع نحب أن نحققه بإنصاف وعمق ، وهو مكانة الناحية الاقتصادية فى الفتوح ، وقد اهتم بهذه الناحية كثير من الباحثين ، وعدّها بعضهم العامل الرئيسى فى التوسع الذى قام به العرب ، يقول[1] Thomas Arnold :

إن العرب شعب نشيط فعّال ، دفعته يد الجوع والحاجة إلى ترك صحاريه القاحلة ، واجتياح الأراضى الغنية المجاورة المترفهة .

ويقول دوايت دونلدش : ونشك فى الحقيقة فيما إذا كان الحماس الدينى وحده كافياً لحملهم على القيام بهذه الغزوات الواسعة على البلاد المجاورة ، ويبدو أنهم واصلوا اندفاعهم بسبب الحاجة الاقتصادية الشديدة[2] .

ويقول Stanley Lane-Poole : إننا لانستطيع أن ننكر أن ثروة الأكاسرة والقياصرة ، والأراضى الخصبة ، والمدن العامرة ، فى الممالك المجاورة كانت عاملا كبيراً فى تحمس المسلمين لنشر الإسلام[3] .

ويقول الدكتور فيليب حتى[4] : إن الحاجة المادية هى التى دفعت بمعاشر البدو — وأكثرُ جيوش المسلمين منهم — إلى ما وراء تخوم البادية القفراء ، إلى مواطن الخصب فى بلدان الشمال ، ولئن كانت الآخرة أو شوق البعض إلى بلوغ جنة النعيم قد حبب لهم الوغى ، فإن ابتغاء الكثيرين حياة الهناء والبذخ فى أحضان المدنية التى ازدهر بها الهلال الخصيب كان الدافع الذى حبب لهم القتال .

---

(١) Preaching of Islam P. 46

(٢) عقيدة الشيعة ص ١٨

(٣) Arabs in Spain P. 4 3

(٤) History of the Arabs Vol 1. P. 195 — 199

هل هذا الكلام صحيح ؟ وهل كان البدوىُّ تواقا إلى حياة الهناء والبذخ ؟ وهل كان ذلك هو الدافع لهذا البدوى ليخرج قاصداً القضاء على أكبر إمبراطوريتين عرفهما تاريخ العالم فى ذلك الوقت ؟

نحب أن نقرر أن فكرة ربط الدعوة الإسلامية بالرغبة فى الحصول على المال قديمة جداً ، بدأت مع بدء الإسلام ، واتُّهم بها محمد نفسه قبل أن يَتَّهِمَ بها هؤلاء المستشرقون معاشرَ البدو بمدة طويلة ، وَوُجدت أدلة كثيرة تقوِّض هذه التهمة ، ولكنها مع ذلك لا تزال حية .

لقد اتَّهمت قريش محمداً بأنه طالب مال وعرضت عليه أعز ثرواتها ، ولكنه صاح فيهم : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه »(١) .

وافتقر محمد بعد غنى ، وافتقر أبو بكر بعد غنى ، وافتقر عمر الذى آل له السلطان على الإمبراطوريتين العظيمتين ، وظل يعيش فى تقشف ظاهر ، وافتقر عثمان بعد غنى عظيم ، ومع هذا بقيت التهمة بأن المسلمين حاربوا لأنهم كانوا طلاب مال وثراء !!

وعند البدء فى غزو فارس برزت هذه التهمة فى عقل رستم قائد الفرس ، وظن أنه يستطيع أن يُرْضِيَ هؤلاء البدو بحفنات من ذهب الفرس وينجو من قتالهم ، فطلب من سعد بن أبى وقاص أن يوجِّه إليه بعض أصحابه ، فوجه إليه المغيرة بن شعبة . فقال له رستم : قد علمت أنه لم تحملكم على ما أنتم عليه إلا ضيق المعاش وشدة الجهد ، ونحن نعطيكم ما تشبعون به ونصرفكم ببعض ما تحبون(٢) . والعجيب أن الدكتور حتِّى يذكر هذه القصة حجةً لدعواه ، وينسى أن رأى رستم لا يمكن أن يكون

---

(١) ابن هشام جـ ١ ص ١٧٠

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٦٤

هليلا على المسلمين ، ويمضى كذلك باقى الرواية حيث سخر المغيرة من رستم ومن رأيه ومن ماله ، وحيث صاح به بألا مناص من واحدة من ثلاث : الإسلام أو الجزية أو القتال .

والذى ظنه رستم ، ظنه فيما بعد ملك الصين عندما زحف قتيبة بن مسلم على هذه الأصقاع ، وأناب عنه هبيرة الكلابى لمقابلة ذلك الملك بناء على طلبه ، فقال له الملك : قل لصاحبك (يقصد قتيبة) : إنى عرفت حرصه وقلة أصحابه ، فلينصرف وإلا بعثت عليه من يهلكه . فصاح به هبيرة : كيف يكون قليل الأصحاب مَن أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون ؟ وكيف يكون حريصا من خلَّف الدنيا قادراً عليها وغزاك ؟ أما تخويفك إيانا بالموت فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل ، فلسنا نكرهه أو نخافه .

إذاً فهذه التهمة قديمة ، وردّها أيضاً قديم كما ترى . . . على أننا لانحاول أن ننكر أن بين المحاربين العرب من كان يحب المال أو يسعى إليه ، ولكن الذى ننكره بقوة وإيمان هو أن يكون الدافع لهذه الحروب هو المال ، ومعنى الدافع هو القوة التى ترسم الخطط وتوجّه ، وهو كذلك الإحساس الداخلى الذى يحث المحاربين على العمل لتحقيق الأهداف التى رسمت لهم ، هذا الدافع كان إسلامياً صرفاً ، وإذا جاء المال فهو تابع له ولم يكن قط هدفاً لذاته ، ونضع الأدلة لإبراز هذا الرأى :

أولا — صارع المسلمون الشرك فى قلب الجزيرة العربية أكثر من عشرين عاماً سقط خلالها آلاف من خيرة المسلمين فى الغزوات وحروب المرتدين والمتنبئين ومانعى الزكاة ، وكانت كل هذه الحروب تدور فى البادية القفراء كما سماها الدكتور حِتِّى ، بعيدة عن الأطماع فى الأرض التى سماها مواطن الخصب بالشمال . فما الدافع لكل هذه الضحايا ؟

أضف إلى ذلك أن المسلمين طالما حاولوا الانتصار دون حرب ودون غنائم كما حصل فى فتح مكة ، وطالما حصلوا على غنائم ثم ردوها لأصحابها بعد إسلامهم كما حصل فى غزوة حنين والطائف .

ثانياً — أى مال كان يمكن أن يتطلع إليه المسلمون والوصول إليه محفوف بالمخاطر ؟ وقد سبق أن أوردنا أن عمر بن الخطاب حينما دقّ بابَه أحدُ الصحابة وهو نائم ليلاً هبَّ عمر من نومه مذعوراً وهو يقول : ما هو ؟ أجاءت غسان ؟ وقد عاش البدو آلاف السنين فى هذه الجزيرة القاحلة وكانوا يعرفون الخيرات فى الشمال ، ولكن أحلام أحدهم لم تصل إلى أن يطمع أن يدكّ عروش الملوك ، وأن يجعلها تخضع لسلطان البدو الذين لاسلاح لهم ولا دربة ولا عدد ، فى حين كان للروم وللفرس جيوش جرارة وعتاد قوى ونظام كامل . وقد كان العرب لذلك يخافون حرب الروم وقد وقعت بهم الهزيمة فعلا فى غزوة مؤتة ، وترددوا طويلا عند ما دُعوا إلى غزوة تبوك ، وقد عبر عبد الرحمن بن عوف عن قوة الروم بقوله : إنها الروم وبنو الأصفر ، عزم حديد وبأس شديد .

ثالثا — لقد حافظ المسلمون قبل أن تكتسحهم الأطماع الدخيلة على حياة التقشف والزهد ، وعندما حاصروا حصن بابليون بعد أن فرغوا من الشام وفارس كانوا لايزالون على بساطتهم وصفائهم ، وقد أرسل لهم المقوقس رسلا ليتعرفوا له أحوالهم ، فعاد الرسل إلى المقوقس وقالوا له : رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحد منهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، جلوسهم على الترّاب ؛ وأميرهم كواحد منهم ، ما يُعْرَف كبيرهم من صغيرهم ولا السيد فيهم من العبد . . .

رابعاً — طالت حروب المسلمين مع البربر فى شمال إفريقية وامتدت ، وسقط فيها كثير من الضحايا ، وكانت الصحراء القاحلة آنذاك بها أبرز من مواطن الخصب ومن الغياض .

خامساً — لقد وقعت معارك عنيفة فى داخل صفوف المسلمين ، بدأت بموقعة الجمل واستمرت بعد ذلك ، وسقط آلاف الضحايا فى هذه المعارك ، وما كانت تضيف أرضاً خصبة ولا هناء ولا بذخا .

ما الدافع الحقيقى لهذه الحروب ؟

إنها العقيدة التى رخص من أجلها كل شىء ، إنها الرغبة فى الحصول على إحدى الحسنيين ، وهانت من أجل هذا كل تضحية ، لقد كانت هناك أطماع مالية ، ولكن هذه بدأت متأخرة ، وكانت عند من لم يتعمق الإيمان فى نفسه ، وكانت على العموم عاملا ثانويا ، ومَنْ ذا الذى يحمل رأسه على يده ويقاتل بها أقوى جيوش الدمار والفتك لينال من بذخ العيش فى أحضان الهلال الخصيب ؟ والتاريخ الإسلامى مملوء بقصص البطولة ، وبهؤلاء الذين نسميهم بالفدائيين الذين يلقون بأنفسهم فى مراكز الخطر ليهلكوا وينجو الإسلام وترتفع راية هذا الدين . أين المال والرخاء لهؤلاء الشهداء ؟ .

ويقول Stanley Lane Poole[1] : إن تحمُّس العرب للفتوح كان يوجهه عنصر قوى من الرغبة فى نشر الدين ، فقد حاربوا لأنهم يقاتلون أعداء الله ورسوله ، وحاربوا لأن مثوبة الشهداء وكئوس السعادة والنعيم كانت تنتظر من يُقتَلون فى سبيل الله .

وقد استمرت الحرب دائرة بين الفرس والروم أربعمائة سنة ، وكانت حروب أطماع ودنيا ، فلم يستطع هؤلاء أو هؤلاء أن يحرزوا نصراً مؤزراً ، لسبب واحد هو قلة العقيدة ، فلما هاجمهم البدو بسلاح العقيدة ، فلّ ذلك السلاحُ كلَّ سلاح ، وتهاوت جيوش الفرس والروم تحت أقدام المهاجمين .

(١) Arabs in Spain P. 43

المـــرأة

كنت أعتقد أنه لا مكان للحديث عن المرأة فى هذا الكتاب ، فالمرأة فى الإسلام – فيما أرى – ليست مشكلة ؛ لقد رفع الإسلام مكانتها عالياً ، وهيّأ لها فى المجتمع الإسلامى والمجتمع الإنسانى منزلة ممتازة ، يدركها كلُّ من فهم التفكير الإسلامى وتَدبَّره .

غير أن هناك طوائف تبحث عن سوءات تنسبها للإسلام ، وقد وجدتْ هذه الطوائف فى أحوال المرأة فى العالم الإسلامى سوأة أخذت تشهِّر بها وتذيعها على أنها سقطة إسلامية تقلل من مكانة هذا الدين وتضع من شأنه ، وسار بعض المسلمين الذين خدعهم بريق الغرب – والضعيف فى الغالب يحب تقليد القوى – سيرة الغرب فى هذا الموضوع .

ومن أجل هذا سنتكلم عن المرأة فى التفكير الإسلامى ، شارحين المشكلات التى تتصل بها بما يناسب روح هذا الكتاب واتجاهاته ، تاركين التفاصيل الأخرى إلى مراجع متعددة اهتمت بها[1] .

ويجب أن نوضح هنا بعض الأفكار العامة بادئ ذى بدء :

أولا – فى خلال الاحتلال الأثيم الذى خضع له العالم الإسلامى أو أكثره عدة قرون ، أصيب هذا العالم بنكسة عنيفة فى أفكاره وتراثه ، حتى أصبح المسلم مسلما باسمه لا بروحه ، وحتى وُجِدَ فرق شاسع بين

---

(١) اقرأ عن موضوع المرأة المسلمة :

– فصلا عن تعليم المرأة فى كتاب « تاريخ التربية الإسلامية » للمؤلف

– بابا عن مجتمع الأسرة فى « الحياة الاجتماعية فى التفكير الإسلامى » للمؤلف

– الباب الثانى من كتاب « الإسلامية عقيدة وشريعة » لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت .

– كتاب « المرأة فى الإسلام » للأستاذ كمال أحمد عون ، وغيرها من الكتب .

واقع المسلمين وبين ما يجب أن يكونوا عليه ، وكان نصيب المرأة من هذا التدهور ليس أقل من نصيب الرجل ، فإذا قيل إن المرأة المسلمة تعيش فى ظلام فلنتذكر أن الرجل المسلم كان كذلك فى الغالب ، ولا يزال كذلك فى كثير من البلدان والقرى .

ثانيا — أدخل المحتلون ألوانا من النظم والعادات والتقاليد إلى العالم الإسلامى ، ولا تزال لها بقايا يُعَيَّر بها الإسلام ، والإسلام منها براء ، وذلك كنظام الحريم ورقص البطن والحجاب .

ثالثاً — عند ما تحرر العالم الإسلامى وبدأ ينفض عنه الغبار ، كان الرجل أسرع للتحرر من المرأة ، ولعل هذا شيء طبيعى لأن الرجل أسرع للمغامرة من المرأة ، أو لأنه كان ذا نصيب فى مكافحة الاستعمار أوفى من نصيب المرأة فعادت عليه أولى الثمرات ، أو لأن فُرَص الترقى والتعليم لم تكن تكفى الولد والبنت عند بدء النهضة ، فدفع الآباء والأمهات بأبنائهم للمدارس ودور العلم ، وتأخر دفعهم للبنات .

ومعنى هذه المقدمات ، أن تَحرُّرَ المسلمين ، وبالتالى عودتهم للإسلام الصحيح وروحه الحقة ، ستزيل هذه السوأة التى شغلت الكُتَّاب حينا من الزمن ، واعتقادى أنه بعد فترة قصيرة لن يكون موضوع « المرأة فى الإسلام » موضوعا يحتاج إلى دفاع أو شرح كما لم تعد كُرَوِيَّةُ الأرض موضوعا يجهد الجغرافيون أنفسهم لإثباته ، كما كانوا يفعلون منذ جيل واحد .

تلك حقيقة لابُدَّ آتيه ، لأن الإسلام منح المرأة منذ أربعة عشر قرنا ما لم تُمْنَحْه المرأة الغربية إلا بعد ذلك بعدة قرون ، أو ما لم تُمنَحه هذه المرأة إلا فى هذا القرن الذى نعيش فيه ، أو ما لا تزال المرأة الغربية تصارع الآن للحصول عليه .

تعال بنا نذكر لمحات عن المرأة غير المسلمة فى الماضى والحاضر لنرى الظلام الحقيقى الذى عانته هذه المرأة المسكينة .

المرأة فى غير حمى الاسلام :

قضت الحضارة الرومانية أن تكون المرأة رقيقاً تابعاً للرجل ، لها حقوق القاصر أو لا حقوق لها على الإطلاق .

وقضت شرائع الهند القديمة « أن الوباء والموت والجحيم والسم والأفاعى والنار خير من المرأة » وكان حقها فى الحياة ينتهى بانتهاء أجل زوجها الذى هو سيدها ومالكها ، فإذا رأت جثمانه يُحرق ألقت بنفسها فى نيرانه وإلا حاقت عليها اللعنة الأبدية .

وجاء فى شرائع منو دهرما ساسترا عن المرأة ما يلى : تعيش المرأة وليس لها خيار ، سواء كانت بنتا صغيرة ، أو شابة ، أو عجوزا ، فالبنت فى خيار أبيها ، والمتزوجه فى خيار بعلها ، والأرملة فى خيار أبنائها ، وليس لها أن تستقل أبدا ، ولا تتزوج بعد وفاة زوجها ، بل تهجر ما تشتهيه من الأكل واللبس والزينة حتى تموت ، ولا تملك الزوجة شيئاً ، وكل ما تحرزه يذهب توا لزوجها[1] .

وكانت المرأة فى أثينا تعتبر من سقط المتاع ، فكانت تباع وتُشترى ، وكانت تُعد رجسا من عمل الشيطان .

أما رأى التوراة فى المرأة فقد وضحه سفر الجامعة فى الكلمات الآتية : « درت أنا وقلبى لأعلم ولأبحث ولأطلب حكمة وعقلا ، ولأعرف الشر أنه جهالة ، والحماقة أنها جنون ، فوجدت أمرَّ من الموت المرأة التى هى شباك وقلبها أشراك ، ويداها قيود »[2] .

---

(١) اقرأ مقارنة الأديان للمؤلف ج ٤ ص ٧٢ و ٧٤

(٢) الاصحاح السابع الفقرتان ٢٥ — ٢٦

أما الكنيسة الكاثوليكية فإن الكاتب الدانمركى Wieth-knudsen يشرح اتجاهها نحو المرأة بقوله : خلال العصور الوسطى كانت العناية بالمرأة الأوربية محدودة جداً تبعاً لاتجاه المذهب الكاثوليكى الذى كان يَعُدُّ المرأة مخلوقا فى المرتبة الثانية[١] .

وفى الجزيرة العربية كانت الحياة كفاحا وصراعا للحصول على العيش ، وقد اضطرت المرأة أن تدخل هذا الخضم عاملة كادحة ، ولكن كدحها لم يكن ينتج ما يعادل كدح الرجل ، كما أن نصيبها فى الحروب كان ضئيلا ، ولذلك غلب أن يتجه لها سخط المجتمع العربى ، ذلك السخط الذى عبر عنه القرآن بقوله « وإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون »[٢] بل دسَّه بعضهم فى التراب فعلا ، حتى هتف بهم القرآن الكريم : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خطئاً كبيراً »[٣] فإذا نجت الوليدة العربية من الوأد وجدت غالباً فى انتظارها حياة ظالمة ، ليس لها فيها نصيب من الميراث ، وقد تُكره فيها على البغاء ، أو تُعْضَل عن الزواج .

وفى رومية اجتمع مجمع كبير وبحث فى شئون المرأة فقرر أنها كائن لانَفْس له ، وأنها لهذا لن ترث الحياة الآخروية ، وأنها رجس ، يجب ألا تأكل اللحم ، وألا تضحك ، وعليها أن تمضى وقتها الصلاة والعبادة والخدمة ، وليس لها الحق فى أن تتكلم ، ولمنعها من الكلام وضعوا على فمها قفلا من الحديد ، فكانت المرأة من أعلى الأسر وأدناها تروح وتغدو فى الطريق أو فى دارها وعلى فمها قفل ، هذا غير العقوبات

---

(١) Feminism : translated the to the English by arthur chater P. 200

(٢) سورة النحل الآيتان ٥٨ — ٥٩ . (٣) سورة الإسراء الآية ٣١

البدنية التى كانت توقّع عليها باعتبار أنها أداة الإغواء ، يستخدمها الشيطان لإفساد القلوب(١) .

وقد لخص المرحوم الأستاذ قاسم أمين حالة المرأة فى العصور القديمة بقوله : ترتب على دخول المرأة فى العائلة حرمانُها من استقلالها ، لذلك كان رئيس العائلة عند اليونان والرومان والجرمانيين والهنود والصينيين والعرب مالكا لزوجته ، وكان يملكها كما يُملَك الرقيق بطريق البيع والشراء ، بمعنى أن عقد الزواج كان يحصل على صورة بيع وشراء ، فكان الرجل يشترى زوجته من أبيها ، فتنتقل إليه جميع حقوق الأب ، ويجوز للزوج أن يتصرف فيها بالبيع لشخص آخر(٢) .

تلك هى المرأة فى العصور القديمة ، فلنمض فى حديثنا لنتكلم عن المرأة فى عصور أحدث .

فى فرنسا عقد اجتماع سنة ٥٨٦ م يبحث شأن المرأة وما إذا كانت تُعَدُّ إنساناً أو لا تعد إنساناً ، وبعد النقاش قرر المجتمعون أن المرأة إنسان ولكنها مخلوقة لخدمة الرجل .

وهكذا أثبت الفرنسيون فى هذا التاريخ فقط إنسانية المرأة ، تلك الإنسانية التى كانت مشكوكاً فيها من قبل ، وحتى عندما أثبتوها لم يثبتوها كاملة ، وإنما جعلوا المرأة تابعاً وخادماً للرجل ، ومن أجل هذا مر الزمن حتى عصرنا الحديث والمرأة الفرنسية محرومة من أبسط الحقوق التى مُنِحَتْها المرأة المسلمة منذ مئات السنين ، فقد صدر قانونٌ فى فبراير سنة ١٩٣٨ يلغى القوانين التى كانت تمنع المرأة الفرنسية من بعض التصرفات المالية ، ويجيز لها لأول مرة فى تاريخها بدون إذن القاضى أن تفتح حساباً جارياً باسمها البنك ،

---

(١) عفيف طبارة : روح الدين الإسلامى ص ٢٧١

(٢) انظر كتاب المرأة الجديدة ص ١٧

وأن توقع بالتالى على شيكات الصرف ، وأن تمضى العقود المالية ، وتستولى على الإرث .

وينقل الدكتور على عبد الواحد فى هذا الشأن نص المادة السابعة عشرة بعد المائتين من القانون الفرنسى وهو كالآتى : « المرأة المتزوجة ، حتى لو كان زواجها قائماً على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها ، لا يجوز لها أن تهب ، ولا أن تنقل ملكيتها ، ولا أن ترهن ، ولا أن تملك بعوض أو من غير عوض ، بدون اشتراك زوجها فى العقد أو موافقته عليه موافقة كتابية » ويعلق الدكتور عبد الواحد على هذه المادة بقوله : ومع ما أدخل على هذه المادة من قيود وتعديلات فيما بعد فإن كثيراً من آثارها لا يزال ملازماً لوضع المرأة الفرنسية من الناحية القانونية إلى الوقت الحاضر(١) .

وفى إنجلترا حرم هنرى الثامن على المرأة الإنجليزية قراءة الكتاب المقدس ، وظلت النساء حتى سنة ١٨٥٠ م غير معدودات من المواطنين ، وظللن حتى سنة ١٨٨٢ ليس لهن حقوق شخصية ، فلا حق لهن فى التملك الخالص ، وإنما كانت المرأة ذائبة فى أبيها أو زوجها . وعندما كنتُ طالباً فى جامعة كمبردج فى منتصف هذا القرن لم يكن للطالبات الحق فى الاشتراك فى أندية الطلاب ولا اتحاد الطلبة بالجامعة العريقة ، ولم تسوِّ جامعة اكسفورد بين الطالبات والطلاب فى الحقوق إلا بقرار صدر فى ٢٦ يونيو سنة ١٩٦٤(٢) .

هل لنا أن نتصور بعد هذا أنَّ ما أصاب العالم الإسلامى من سوءات وتقاليد مشينة فى موضوع المرأة ، انحدر إليه من الغرب ، وحمله إليه الغزاة مع ما حملوا من آثام ؟ إننى شخصياً أميل إلى هذا الرأى .

تعال بنا إلى الإسلام لنجده قد بكر فقرر المساواة بين الرجل والمرأة فى كل شىء ، لم يستثن من ذلك إلا ما دعت الحاجة الواضحة إلى استثنائه

---

(١) حقوق الإنسان فى الإسلام ص ٦٠ (٢) جريدة الأهرام فى ٢٧ / ٦ / ٦٤

كالميراث ، إذ قرر للذكر مثل حظ الانثيين ، لأن المرأة معفاة من التكاليف المالية قبل الزواج وبعده ، فقبل الزواج يلتزم أبوها بالإنفاق عليها ، وبعد الزواج يصير الإنفاق عليها وعلى أولادها مسئولية الزوج ، حتى ليرى بعض الباحثين أن المرأة أوفر حظاً فى الميراث من الرجل ؛ فلأنْ تأخذ المرأة خمسة وتدخرها ، خير من أن يأخذ الرجل عشرة لينفق منها أو ينفقها كلها ، على أنْ حديثنا عن المرأة فى الإسلام سيتسع لشىء من الشرح آن لنا أن نأخذ فيه :

المرأة فى الإسلام

قضى الإسلام على مبدأ التفرقة بين الرجل والمرأة فى القيمة الإنسانية المشتركة ، كما قضى على مبدأ التفرقة بينهما أمام القانون وفى الحقوق العامة ، وجعل المرأة مساوية للرجل فى هذه الشئون[١] .

تعال بنا نعود إلى مصدر الإسلام الأول لنقتبس منه ما يدعم هذا الاعتقاد ؛ قال تعالى :

— ولقد كرمنا بنى آدم[٢] .

— للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن[٣] .

— للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون[٤] .

— ولهن مِثْلُ الذى عليهن بالمعروف[٥] .

— والمؤمنونَ والمؤمناتُ بعضهمْ أولياءُ بعض[٦] .

— وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً[٧] .

---

(١) دكتور على عبد الواحد : حقوق الإنسان فى الإسلام ص ٥٢ .
(٢) سورة الإسراء الآية ٧٠ (٣) سورة النساء الآية ٣٢
(٤) سورة النساء الآية السابعة (٥) سورة البقرة الآية ٢٢٨
(٦) سورة التوبة الآية ٨١ (٧) سورة النساء الآية ٣٧

ـ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى[١].

وهكذا تجد هذه الآيات وسواها تجمع الذكر والأنثى تحت حكم واحد ، وتقضى قضاء مبرماً على مبدأ التفرقة بين الرجل والمرأة . بقيت تلك المسائل التى تكرر القول فيها ، والتى ظنَّها مثيروها سوءات تمس الإسلام ، فراحوا ينشرونها فى نحيب وولولة من أجل حقوق المرأة التى زعموا أن الإسلام هضمها ، وفى قمة هذه المسائل تعدد الزوجات والطلاق والقوامة وتأديب الزوجة .

وطريقنا هنا لشرح موقف الإسلام من هذه المسائل جميعاً طريق واحد ، فى رأينا أن هناك علة واحدة قضت بهذه الأمور ، وهى علة واضحة لا تخفى إلا على من رغب فى الغموض وأغمض عينيه حتّى لا يرى النور ، وتلك العلة هى أن الإسلام دين الفطرة ، ودين الطبيعة ، وقد قضت الفطرة أن الرجل يَفْضُل المرأة فى بعض الأمور ؛ فهو أطول منها قامة فى المتوسط ، وهيكله العظمى أضخم من هيكلها ، ووزنه أثقل ، وعضلاته أصلب ، ومخه أكبر وكذلك قلبه ، ويعتريها ـ دون الرجل ـ عارض الحيض فيهز جسمها بضعة أيام كل شهر .

ويتزوج الرجل وتتزوج المرأة وينجبان ، فلا يبدو على الرجل عارض وإنما يظل كما هو ، ولكن العوارض التى تمس جسم المرأة بسبب الزواج والحمل كثيرة ولا يمكن أن تخفى .

ولا تساوى المرأة الرجل فى أى عمل اشتركا فيه ، ولو كان من الأعمال التى انقطعت لها المرأة منذ عاش الجنسان فى معيشة واحدة ؛ لا تطبخ كما يطبخ ، ولا تتقن الأزياء كما يتقنها ، ولا تبدع فى صناعة التجميل كما يبدع فيها[٢] .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٥

(٢) الأستاذ العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ١٧٤

والإسلام دين الفطرة كذلك فى اعترافه بواقع الأمر وأخلاق الناس ، فالإسلام يشرع تشريعاً مثالياً للخاصة ويحث المسلمين على اتباع هذا النهج المثالى ، ولكن الإسلام يعترف أن بعض الناس لا يقوون على الوصول لهذه الغاية المثلى ، فلا يدعهم يهيمون فى الضلال ، بل يشرع لهم ما يوفق به بين طباعهم الشاردة وبين القيم الصحيحة ، وذلك هو أسلوب الإسلام فى هذه الشئون التى اعتبرها أعداء الإسلام ومن سار سيرتهم سوءات ، وراحوا يحاولون مهاجمة الإسلام بسببها ، وسنذكر كلمة موجزة عن كل من هذه المسائل نرد بها الافتراء على التفكير الإسلامى :

تعدد الزوجات (١)

الأصل فى الزواج فى الإسلام ، هو الزوجة الواحدة ، وهناك أدلة واضحة تحث على هذا الوضع نورد منها ما يلى :

قال تعالى : فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة(٢) .

وقال : ولن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم(٣) .

ويعلق المرحوم قاسم أمين على هاتين الآيتين بقوله : لو أن ناظراً فى الآيتين أخذ منهما الحكم بتحريم الجمع بين الزوجات لما كان حكمه بعيداً عن معناهما ، لولا أن السنة والعمل جاءا بالإباحة فى الجملة(٤) .

---

(١) حديثنا هنا خاص بتعدد الزوجات فى الإسلام بصفة عامة ، أما تعدد زوجات الرسول فقد وفيناه بحثا فى الجزء الأول من كتابنا : التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية .

(٢) سورة النساء الآية الثالثة (٣) سورة النساء الآية ١٢٨

(٤) تحرير المرأة : فصل تعدد الزوجات

وروى البخارى عن المسور بن مخرمة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر : إن بنى هشام بن المغيرة استأذنوا فى أن يُنْكِحُوا ابنتهم علىَّ بن أبى طالب ، فلا آذن ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن ، إلا أن يريد ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فإنما فاطمة بضعة منى ، يريبنى ما أرابها ويؤذينى ما آذاها .

وقد أخذ العلماء أو فريق كبير منهم من هذا الحديث أن الشريفة التى يؤذيها أن يتزوج رجلها لايحل إيذاؤها بالتزوج عليها ، وبخاصة إن اشترطته على الرجل ، أو كانت تلك عادة القوم ، فعليه الوفاء[1] .

فالزوجة الواحدة هى الأصل فى الاسلام ، وقد سار على ذلك الأصل الغالبية العظمى من المسلمين ، وبلغ هؤلاء مثلا فى الجمهورية العربية المتحدة أكثر من ٩٧ ٪ .

بيد أن عوامل متعددة تدفع الرجل — مسلماً كان أو غير مسلم — إلى التزوج بزوجة أخرى ، وتكون هذه الحالة مُلِحَّة أحياناً كعدم الولد ومرض الزوجة ، وعدم المقدرة على الصبر دون الاتصال الجنسى حقبة الحيض والنفاس ، وكالرغبة التى تغلب على بعض الرجال فتجعل حاجتهم الجنسية لا يطفئها إلا عدد من الزوجات ، وعن هذا النوع يقول الإمام الغزالى : ومن الطباع ما تغلب عليه الشهوة بحيث لاتحصنه المرأة الواحدة ، فيستحب لصاحبها الزيادة عن الواحدة إلى الأربع . . . . ومهما كان الباعث معلوما فينبغى أن يكون العلاج بقدر العلة ، فالمراد تسكين النفس ، فلينُظَر إليه فى الكثرة والقلة[2] .

---

(١) كمال أحمد عون : المرأة فى الإسلام ص ٩٠ ويلاحظ أن موقف الرسول هنا ليس موقفا تشريعيا ، ولو كان موقفه تشريعيا لما احتاج أن يصعد المنبر ، ويستثير عاطفة الناس ، ويتحدث عن ابنته وعما يمسها ويمسه من أجلها من آلام ، إنه عليه السلام يتحدث هنا كأب لا كرسول .

(٢) إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٩٧

فهؤلاء وأمثالهم لم يدعهم الإسلام لقيادة الشيطان ، بل رسم لهم ما يحقق رغبتهم أو بعضها فى إطار حلال ، وهو إباحة تعدُّد الزوجات .

هذا من جهة الرجل ، فإذا جئنا إلى المجتمع وجدنا ظروفه كثيراً ما تجعل تعدد الزوجات وسيلة لحل مشكلة به ، فلعل تعدد الزوجات هو الوسيلة الصالحة لحل مشكلة زيادة عدد النساء على الرجال وبخاصة بعد الحروب والفتن حيث تصبح هذه الزيادة كبيرة ، ولا نزاع أنه أكرم للمرأة حينئذ أن تتزوج متزوجا من الرضا بعلاقة الخليلة التى لا حقوق لها ولا لأولادها قِبَلَ الرجل ، وأكرم لها كذلك من حياة العانس لما فى هذه الحياة من حرمان وفقر .

بقى أن نقول عن تعدد الزوجات إنه ليس من صنع الإسلام ، وإنما هو تشريع قديم عرفته كل الحضارات وفى مقدمتها التوراة ، وأقره الإنجيل إلا فى حالة واحدة هى حالة الأسقف حيث لا يستطيع الرهبنة مع تعدد الزوجات فليكتف بزوجة واحدة . وقد بقى تعدد الزوجات معمولا به فى العالم المسيحى حتى حرمته القوانين الوضعية . ويقول الأستاذ محمد فؤاد الهاشمى[1] (العالم الذى كان مسيحياً وأسلم) : إن اعتراف الكنيسة بتعدد الزوجات بقى إلى القرن السابع عشر وإن جميع الأديان ومنها ديانة البراهمة وبوذا وعباد الوثن والمجوس ، وكذلك المبادئ الوضعية ، قد سايرت الحياة الواقعية ، وجارت الطبيعة البشرية فى شئون الزواج ، ولكن كهنة المسيحيين أبوا أن يفرِّطوا فى مفتاح السجن ، لأن فى ضياع هذا المفتاح ضياعا لسلطتهم .

ولم يقبل الإسلام تعدد الزوجات على النحو الذى عرفته حضارات الماضى ، بل حدده بعد أن لم يكن محدوداً ، ونظمه بعد أن كان لا نظام له ، وقيده وكان من قبل مطلقاً .

---

(١) الأديان فى كفة الميزان ص ١٠٥ – ١٠٦

وقد أعدَّت الجمهورية العربية المتحدة سنة ١٩٦٣ مشروعاً للحد من تعدد الزوجات ، ومن الطلاق ، بعدم إباحة هذا وذاك إلا أمام القاضى مع تقديم أسباب كافية ، وفى نوفمبر من نفس العام رفضت اللجنة المشكلة لدراسة هذا المشروع أن توافق عليه ، وقالت اللجنة فى أسباب الرفض : إن تعدد الزوجات موجود بنسبة ضئيلة جداً لا تتجاوز الآن ٢٪ ، ومن دراسة كثير من الحالات يتبين أن أكثر من نصف هؤلاء له دوافع مقبولة ، وحالات الطلاق كحالات تعدد الزوجات من ناحية النسبة والظروف ، وتقل النسبة من تلقاء نفسها فى هذا وذاك على مر الأيام ، فلا داعى لإصدار قانون لا موضوع له تقريباً ، وبخاصة أن ذكر الأسباب فى حالة الطلاق قد يسىء إلى المرأة والأسرة على العموم .

الطلاق :

يبغض الإسلام الطلاق وينفِّر منه ، ويحث على علاقة زوجية دائمة يصوِّرها القرآن فى صور رائعة حيث يقول تعالى :

ــ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة(١) .

ــ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن(٢) .

ــ وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذْن منكم ميثاقاً غليظاً(٣) .

ومن أجل هذه العلاقة القوية استهجن الإسلام الطلاق ونفَّر منه ، ورسم السبل لحل الخلافات دون اللجوء إليه ما أمكن ذلك ، اقرأ معى هذه الآيات والأحاديث

ــ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً(٤) .

---

(١) سورة الروم الآية ٢١
(٢) سورة البقرة الآية ١٨٧
(٣) سورة النساء الآية ٢١
(٤) سورة النساء الآية ١٩

– واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا[١] .

– وأن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما[٢] .

– وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يُصلحا بينهما صلحا والصلح خير[٣] .

– لعن الله كل مزواج مطلاق .

– تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز له العرش .

– أبغض الحلال إلى الله الطلاق .

ذلك هو موقف الإسلام من الطلاق ، موقف واضح لا شبهة فيه ، ولكن الإسلام كما قلنا دين الفطرة ، والفطرة أثبتت أن كل شركة يمكن أن تفشل ، وأن الحب قد تعقبه الكراهية ، وأن هذه السبل السابقة قد تعجز عن إقامة أسرة سعيدة أو حتى عادية ، والإسلام يعترف بالأمر الواقع ويضع الطلاق حلا لهذه المشكلة قال تعالى : فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان[٤] وقال : ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه[٥] .

إن الطلاق دواء مُرٌّ المذاق ، ولكن مرض الشقاق أكثر منه مرارة وقسوة ، وطالما بتر الأطباء عضو إنسان حرصا على الإنسان كله ، ولا شك أن الطلاق خيرٌ من الموقف المائع الذى يحصل كثيراً فى الغرب ، عندما تسوء العلاقة بين الزوج وزوجته وعندما لا يبقى طريق للتوفيق بينهما ،

---

(١) سورة النساء الآية ٣٣
(٢) سورة النساء الآية ٣٤
(٣) سورة النساء الآية ١٢٨
(٤) سورة البقرة الآية ٢٢٩
(٥) سورة البقرة الآية ٢٣٢

فإننا نرى كلا منهما يتخذ طريقه حرًّا إلى الخدانة ، فتتخذ المرأة خدينا غير زوجها ، ويتخذ هو خدينة غيرها ، لأن الزواج غير مباح لأى منهما قبل الطلاق ، والطلاق يصعب الحصول عليه ، فلتكن الخدانة الأثيمة هى الحل ، وقد أدركت بعض الدول الغربية ما فى ذلك من عبث ، فيسرت أمر الحصول على الطلاق .

القوامة :

وتشير الآيات والأحاديث التى اقتبسناها آنفا إلى ضرورة إقامة علاقة قوية العرى بين الزوج وزوجه ، علاقة تكوّن من الزوجين فكرا واحدا ، وتجعل لهما هدفا واحداً ، فليس هناك رئيس ولا مرءوس . ولكن الطبيعة أثبتت أن الرياسة ضرورية لكل مجتمع صغير أو كبير ، وأن اختلاف الرأى قد يحدث ، ولابدّ أن يكون هناك آنذاك من يبتّ فى الأمر ويتخذ فيه قرارا ؛ ويكون مسئولا عنه ، ومن هنا كانت القِـوَامة ، وكان طبيعيا أن تكون القِـوَامة للرجل كفاء مسئولياته المختلفة تجاه الأسرة ، وكفاء تفوقه الطبيعى الذى أشرنا إليه من قبل .

أما طبيعة المرأة فيلاحظ فيها إرهاف العاطفة ، وسرعة الانفعال ، وشدة الحنان ، وقد خلقت هذه الصفات فى المرأة لتستطيع بها أن تؤدى وظيفتها الأولى وهى الأمومة والحضانة ، وإذا كانت هذه الصفات لازمة فى مضمار الأمومة والحضانة ، فقد تكون ضارة فى مضمار القيادة والرياسة .

أما الرجل فلا يندفع فى الغالب مع عواطفه ووجدانه كما تندفع المرأة ، بل يغلب عليه الإدراك والفكر وهما قوام المسئولية ، ومن أجل هذا بالإضافة إلى المسئوليات المالية والأدبية ، كانت القوامة للرجل ، وقد

علل القرآن الكريم لقوامة الرجل بقوله : « الرجال قوّامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم »[١] .

على أن قوامة الرجل يلزم أن تكون قوامة رحيمة ، يتعاون فيها مع الزوجة ويرفق بها ، ويلزم كذلك أن تكون عادلة ، فليس له أن يطلب من زوجته مطلباً غير عادل قال تعالى : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة »[٢] .

ثم إن الإسلام أعطى المرأة الحق فى التدخل فى اختيار زوجها ، وبهذا تشترك المرأة فى اختيار القيم عليها ، ولها أن تلاحظ فيه المقدرة على القوامة الرشيدة .

وتبدو قوامة الرجل – كما قلنا آنفاً – عند اختلاف وجهات النظر ، أما فى الحياة العادية فلكل سلطاته وسلطانه ، وكل من الرجل والمرأة بل والخادم مسئول عما تحت يده فى عالم الأسرة ، قال صلى الله عليه وسلم : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالرجل راع فى أهله وهو مسئول رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده وهومسئول عن رعيته .

التأديب :

يقيم الإسلام العلاقة بين الزوجين على الحب والوئام والمودة ، وقد اقتبسنا فيما سبق كثيراً من آيات القرآن التى تحثُّ على هذا الوضع ، وتلك العلاقة هى العلاقة المثلى التى يرسمها الإسلام ويرغّب للناس الانتماء إليها ، وقد تكوّنت فى ظل هذه العلاقة ملايين الأسر الإسلامية التى حققت من التآلف والود أسمى الأمثلة ، ولكن الإسلام – كما قلنا – دين الفطرة ، فهو لا يهمل واقع الحياة ، وفى واقع الحياة خلافات تنشب بين الزوج والزوجة ،

---

(١) سورة النساء الآية ٣٤ .	(٢) سورة البقرة الآية ٢٢٨ .

ولا بد من أساليب للتغلب عليها قبل أن نصل إلى الفرقة وهى السلاح البتار القاسى ، وقد وضع الإسلام مراحل للتوفيق بين الزوجين ، قال تعالى : «واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن ، واهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، إن الله كان عليا كبيراً ، وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما »(١) .

وهكذا وضع الإسلام هذه المراحل الأربعة وقسمها بحكمته السامية إلى مرحلتين ، أولاهما المرحلة التى يسوِّى الزوجان الخلافات بينهما دون تدخل عنصر خارجى ، وفى هذه المرحلة محاولات أو طرق ثلاثة مرتبة ترتيباً دقيقاً ، أولها الوعظ وهو — كما ترى — علاج رقيق هادىء ، يرمى إلى إعادة الحق إلى نصابه فى يُسْر ، ويشرح وجهات النظر ، ويدعو لإزالة الجفوة فى حب وقرب ، فإذا لم ينفع هذا السلاح استعمل الزوجُ السلاح الثانى وهو الهجر ، والهجر سلاح يجمع بين اللين والشدة ، فيه يسر وفيه زجر ، فإذا تمادت المرأة فى نشوزها ، ولم تستمع لهتاف الوعظ ، ولم يثنها الهجر ، كان للزوج أن يستعمل السلاح الثالث وهو الضرب إذا سمحت الظروف به ، وذلك قبل أن ينكشف الستار ويلجأ الزوجان للمرحلة الثانية وهى مرحلة الحكمين ، حيث يجهران بأسرارهما ، ويعرِّضان حياتهما الخاصة لألسن الناس .

وفى التفكير الإسلامى أن إباحة أسرار الزوجين مرحلة يلزم أن نتحاشاها ما أمكن ذلك ، وضربُ الزوج زوجته أيسر من كلام الناس عنهما ، فكل ما يحدث بين الزوجين يمكن إخفاؤه والاعتذار عنه وإزالة نتائجه ، ولكن حديث الناس عنهما قد يمتد وقد يسبب ما لا تحمد عقباه .

وقد انتهز أعداء الإسلام فكرة وجود الضرب فى تشريع التأديب فى الإسلام ، فراحوا يولولون ويتباكون ، لا لقسوة فى التشريع ،

(١) سورة النساء الآيتان ٣٣ — ٣٤

ولكن لمرض فى نفوسهم ، ونحب أن نوضح لهم الحقائق التالية :

أولا ــ نضع بين يدى القارئ الأحاديث الآتية التى تشرح استهجان ضرب الزوجة وامتهان الشدة معها ؛ قال صلى الله عليه وسلم :

ــ ما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم .

ــ خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى .

ــ لن يضرب خياركم .

ــ أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقاً ، وخياركم خياركم لنسائهم .

ــ استوصوا بالنساء خيراً .

ــ أما يستحى أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب البعير ؟

ثانيا ــ أن إباحة الضرب تخضع لظروف الزمان والمكان ، وطبيعى أن هذا السلاح لا يستعمل إلا حيث يرجى منه خير ، وعلى هذا لا يستعمل هذا السلاح مع امرأة تفضل التحكيم عليه ، أو تفضل الطلاق عليه ، ولا نزاع أنه ذو فائدة مع بعض النساء ، فإذا ادّعى بعض المتحذلقين عدم جدواه فإننا نلجأ للاستاذ العقاد لنقتبس منه الرد على هذه القولة الزائفة ، يقول سيادته : وانه لمن السخف الرخيص أن يقال إن جنس النساء قد برىء من المرأة التى يصلحها الضرب ولا يصلحها غيره ، ونقول إنه سخف رخيص وخيم لأنه ذلك السخف الذى يضر كثيرا ولا يفيد أحدا [1] .

ثالثاً ــ لماذا لم يصرخ هؤلاء هذا الصراخ ضد القوانين العسكرية التى تبيح ضرب الجنود مع كثرة العقوبات التى يمكن إنزالها بالجنود المخطئين ؟ تلك العقوبات التى لا يوجد لها نظير فى الحياة الزوجية ، كالحبس وتنزيل الرتبة ، وقطع الأجور ، والحرمان من أنواط الشرف وغيرها .

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ١٨٥ .

رابعاً — هناك رأى لعالم أوربى من علماء النفس عن إحساس بعض النساء تجاه الضرب، ونحن ننقله بنصه ، لالندعو لاستعماله، ولكن لنعرضه للتفكير، فربما صحَّ أن الضرب يكون أحيانا وسيلة للإصلاح . قال G A. Hadfield فى كتابه « علم النفس والأخلاق » ما يلى : وغريزة الخضوع تقوى أحياناً ، فيجد صاحبها لذة فى أن يكون متسلَّطاً عليه ، ويحتمل لذلك الألمَ بغبطة ، وهذه الغريزة شائعة بين النساء وإن لم يعرفنها ، ومن أجلها اشتهرن بالقدرة على احتمال الألم أكثر من الرجل ، والزوجة من هذا النوع تزداد إعجابا بزوجها كلما ضربها وقسا عليها . . . ولا شىء يحزن بعض النساء مثل الزوج الذى يكون رقيق الحاشية دائما ، لا يثور أبدا على الرغم من تحديهن ، ولا يعرف شقاء هذه العيشة ولا التوق إلى الزوج الذى يستطيع أن يثور ولو مرة واحدة إلا النسوة اللاتى جربن الحياة مع زوج من هذا الطراز[١] .

وقريب من هذا الاتجاه ، رأىُ الأستاذ محمد زكى عبد القادر[٢] الذى يقول فيه :

— المرأة تحب الرجل العَصِىّ . . تحب أن تصطدم إرادتها بإرادته ، تحب الصراع للظفر تأكيداً لسلطانها ، وتحب أكثر من كل شىء الهزيمة أمام إرادته . .

— ولكنها تغضب . .

— تغضب وتملأ الدنيا صياحاً ، وفى قرارة نفسها حلاوة الضعف أمام قوة الرجل .

* * *

وبعد ، لا أريد أن أطيل الحديث عن هذا الموضوع هنا ، وأحيل القارئ إلى كتابى « الحياة الاجتماعية فى التفكير الإسلامى » حيث تحدثت

---

(١) نقلا عن : المرأة فى الاسلام ص ٦٧ .

(٢) مقال بصحيفة الأخبار فى ٢٧ / ١٢ / ١٩٦٢

بإفاضة عن المرأة ومكانتها الاجتماعية ، وكل ما أريد أن أضيفه هنا هو أن أكرر أن هذه الموضوعات التى يتشدق بها أعداء الإسلام عن المرأة لم تعد تحتاج إلى دراسة وتعمق ، فقد غلب الخير على العالم الإسلامى فاتجهت أغلبية المسلمين إلى مثالية الإسلام ، فلم يعد هناك تعدد زوجات يُقْلِق ، وليس هناك عدد من المطلقات يثير الأسى كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، ولا يكاد الضرب يستعمل على الإطلاق فى تأديب الزوجة ، وربما لا يزال يستعمل فى بيئات لا ترى فيه غضاضة تذكر ، وهو لا يستعمل كسلاح أسلمه الإسلام للزوج ، بل لأن البيئة تعرف الضرب وتقره سلاحا للتأديب بين أفرادها على العموم ، أما القوامة فالتعاون بين الزوج والزوجة هدف من أهداف الإسلام أخذ ينتشر ويمتد وتتعمق جذوره ، وفيما يلى إحصائية تثبت ضآلة نسبة تعدد الزوجات فى الجمهورية العربية المتحدة ، وتثبت كذلك أن هذه النسبة تقل من عام إلى عام .

	سنة ١٩٣٣	سنة ١٩٤٣
الزواج باثنتين	٤,٤٩ ٪	٢,٩٥ /
« بثلاثة	٠,٢٩ ـ ٪	٠,١٧ ـ ٪
« بأربعة	٠,٠٤ ـ ٪	٠,٠٢ ـ ٪

وفى رأيى أن هذه الأرقام الناطقة جديرة أن تخرس ألسنة المتكلمين فى هذه الموضوعات وأن تمسك بأقلامهم ، وجدير بهم إن كانوا منصفين أن يتجهوا بعنايتهم إلى ما هو أجدى ، أما الغربيون الذين أطلقوا ألسنتهم وأقلامهم للنيل من الإسلام والمسلمين عن طريق المرأة المسلمة ، فإننا ندعوهم ليتجهوا بعنايتهم إلى مشكلة المرأة الغربية التى تمر بمأساة قاسية تهدد كيانها وكيان الأسرة الغربية ، وتهدد مستقبل الجيل الجديد . إن ما يسمونه الأم الآنسة فى الغرب وآلاف المواليد الذين لايعرفون لهم

آباء لمشكلة تحتاج إلى حل سريع يرمى إلى ضمان نوع من الحضانة لهؤلاء المشردات ولأولادهن ، وقد ذكرت الإحصائيات الرسمية أنه بين كل تسعة أطفال ولدوا فى لندن خلال عام ١٩٦٠ واحد لم تتزوج أمه ، وتُسْعُ المواليد عدد كبير جدا . فقد أثبتت هذه الإحصائيات أن عدد المواليد فى لندن خلال ذلك العام بلغ ٥٧٣٦٨ طفلا(١) .

---

(١) صحيفة الأخبار عدد ٢ / ١ / ١٩٦٢

الرق وموقف الإسلام منه

نريد هنا أن نوضح موقف الإسلام من الرق ، ولكن يجدر بنا قبل ذلك أن نعطى فكرة عن موقف الأمم المختلفة منه ، فقد كان موقف الإسلام من الرق متأثراً باتجاهات الأمم المختلفة عند ظهور الإسلام ، كما كان مؤثِّرا فى هذه الاتجاهات ؛ كان الإسلام متأثرا بمعنى أنه وجد الرق – كما سيأتى – نظاما شائعاً ، من أهم موارده الأسرُ فى الحروب ، فأجاز الإسلام للمسلمين أن يأسروا من أعدائهم ما استطاعوا حتى تتحقق المعاملة بالمثل ، وبهذا أجَّل الإسلامُ إلى حينٍ هدفَه الأسمى وهو الحرية ، أو قل وصل إلى الهدف خطوة بعد خطوة .

وكان الإسلام مؤثِّرا فى اتجاهات هذه الأمم لأنه بالتشريع الذى أجراه للرق أبان أنه مشكلة ، ولم يكن أحد قبل الإسلام يدرك أن الرق مشكلة ، بل كان عملا طبيعياً ، ووضع الإسلام الطرق لحل هذه المشكلة ، وكان ما رسمه الإسلام خطوة واسعة ، ففتح الأعين لتحرير الأرقاء ، حتى تم ذلك فى القرنين الأخيرين .

ما اتجاهات الأمم تجاه الرق ؟

هذا ما سنتكلم عنه فيما يلى :

الرق فى الحضارة الشرقية القديمة :

لا يعرف التاريخ بداية لاستعباد الإنسان لأخيه الإنسان ، ومنذ عُرِفت الحضارات ودُوِّنَ التاريخ نجد الرق موجوداً ونجده قاسيا .

ففى مصر القديمة وجدت العبودية ، وعلى أكتاف رقيق الأرض بُنِيَتْ الأهرام وأقيمت المعابد ونحتت المسلات .

وفى الصين كان الرق منتشرا ، وكان من أسبابه الفقر الذى كثيرا ما كان يدفع بصاحبه إلى أن يبيع نفسه أو أولاده تخلصاً من العوز الذى كان واسع الانتشار[1] .

وفى الهند — حيث نظام الطبقات — كان الشودرا (Sudra) والمنبوذون (Outcasts) يمثلان الغالبية العظمى بين السكان الأصليين للبلاد ، وكانت هاتان الطبقتان تكوِّنان طبقة العبيد . وكان للبراهمة (الكهنة Brahman) الحق فى أن يأخذوا من مال الشودرا ما يشاءون . فهذه الطبقة وأفرادها ملك خالص للبراهمة ، أما طبقة المنبوذين فلم يكن لها حق أن تملك شيئاً ، وكان من التفضل على أيٍّ من أفرادها أن يمتلكه أحد ، وأن يخرجه من طبقة المنبوذين إلى المجتمع .

أما عند الفرس فقد انتشرت نظرية الحق الإلهى وأصبحت عقيدةً مرعيَّة عند الجميع ، وبمقتضى هذه النظرية اعتقد الملوك — واعتقد الناس معهم — أن دماء من دماء الآلهة تجرى فى عروقهم ، وأنهم لذلك طبقة أخرى غير طبقة البشر ، وأن مَنْ سواهم عبيدٌ لهم ، ولا ينال الشعب الرحمة من الآلهة إلا إذا رضى عنه الملوك ، فيمكن القول أن سكان فارس كانوا آلهة وعبيداً .

الرق عند اليونان :

وكان استعباد البشر للبشر مطلقاً وبكثْرة فى حضارة اليونان ، وكان قرصانهم يتخطفون أبناء الأمم الأخرى فى مختلف السواحل ويبيعونهم فى أسواق أثينا وغيرها ، ولما صارت لليونان مستعمرات فى آسيا الصغرى . صارت لهم فيها أسواق للاتجار بالرقيق ، حتى امتلأت بيوت الإغريق بالإماء والعبيد يستعبدهم اليونان جميعاً ، لا فرق بين غنى وفقير ، ولم تُؤْثَرْ فى

---

(١) انظر كتاب تاريخ الصين القديم لمؤلفه M. olive

تاريخهم كلمة واحدة عن أى حكيم من حكمائهم باستنكار استعباد الإنسان لأخيه الإنسان أو للترغيب فى تحريره[١] .

وقسَّم الفلاسفة اليونان الجنس البشرى قسمين : حر بالطبع ورقيق بالطبع ، وقالوا إن الثانى ما خلق إلا لخدمة الأول ، وإن عليه أن يقوم بالأعمال الجسمانية ويقوم الجنس اليونانى وهو الحر بالطبع بالأعمال الفكرية والإدارية والمناصب الهامة[٢] .

وبناء على هذه القاعدة التى وضعها فلاسفة اليونان استباح اليونان لأنفسهم أن يتلصصوا فى البحار فيخطفوا من يصادفهم ممن يكونون على الشواطئ والسواحل ، فيصبح هؤلاء المخطوفون أرقاء مستعبدين للجنس اليونانى[٣] .

ويرى أفلاطون فى الجمهورية الفاضلة حرمان العبيد حق المواطنة ، وإجبارهم على الطاعة والخضوع للأحرار من سادتهم[٤] .

ويوافقه تلميذه أرسطو على ذلك فهو يجعل كلمة (المواطن) مرادفة لكلمة (حر) ويرى أن وظيفة العبيد تحصيل الثروة الضرورية للأسرة والقيام على خدمتها ، ذلك لأن (المواطن) حَبَتْهُ الطبيعة ذكاء وشجاعة ، فبنى لنفسه مدينة وتفرَّغ لسياستها وخصص حياته لخدمتها فى السلم والحرب ، فلا يتسع وقته للعناية بشئون معاشه ، وتَأْبَى عليه كرامته أن يتنزل للأعمال اليدوية يزاولها فيشوه يديه وخلقته ، ويظهر وضيعاً ، فكان لابد له ممن يتكفل بذلك دونه ، وقد أوجدت الطبيعة شعوباً قليلة الذكاء أقوياء البنية ، فقدمت له منها آلات للحياة ، هى آلات حية ، وأولئك هم العبيد[٥] .

---

(١) الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر سابقا : مجلة الأزهر صفر سنة ١٣٧٣ .

(٢) انظر النظم الإسلامية للدكتورين حسن إبراهيم وعلى إبراهيم ص ٣٥٩ .

(٣) انظر كتاب الرق فى الإسلام لشفيق باشا ص ١٩ .

(٤) عباس العقاد : حقائق الإسلام ص ٢١٦ .

(٥) دكتور إبراهيم مدكور : تاريخ الفلسفة ص ٥٦ .

الرق عند الرومان :

أما عند الرومان فإن النخاسين كانوا يتخذون الحروب الكثيرة التى اعتاد الرومان أن يشعلوها مواسم لتجارتهم ، وكانوا يصحبون الجيوش لا للاصطدام بالعدو ، بل ليشتروا الأسرى والمغلوبين من صبيان وبنات ورجال ونساء بأبخس الأثمان ، حتى لقد كان الغنىُّ من النخاسين يشترى ألف إنسان صفقة واحدة عقب نصر كبير تعده الإنسانية خزياً ،ويعده تاريخ الاستعمار الرومانى عظمة ومجداً ، وفى مدينة روما كانت للرقيق سوق تعرض فيها هذه البضائع للمزاد العلنى على رابية مرتفعة : فيكون الرقيق عرياناً من كل ما يستره ، ذكراً كان أو أنثى ، كبيراً أو حدثاً ، ولمن شاء من الناس أن يدنو من هذا اللحم الحى المعروض للبيع فيجسه بيده ، ويقلبه كيف يشاء ولو لم يشتره فى النهاية ، والقانون الرومانى لم يكن يعتبر الرقيق إنساناً له شخصية ذات حقوق على الإنسانية ، بل كان يعتبره شيئاً من الأشياء كسائر السلع التى يباح الاتجار بها[١] .

ومن وسائل الرق عند الرومان – بالإضافة إلى الحرب التى سبق ذكرها ، أنهم كانوا يسترقون المدين الذى لم يتيسر له الوفاء بدينه ، فيصبح المدين رقيقاً للدائن[٢] ؛

الرق عند اليهود :

أما فى بنى إسرائيل فقد أباحت التوراة الاسترقاق بطريق الشراء أو سبياً فى الحرب ، فجعلت للعبرى أن يستعبد العبرى إذا افتقر ، فيبيع الفقيرُ نفسَه لغنى ، أو يقدم المدين نفسه للدائن حتى يوفِّىَ له الثمن ، ويبقى

---

(١) الشيخ الخضر فى المرجع السابق .

(٢) انظر الرق فى الإسلام لشفيق باشا ص ٢٣ .

عبداً له ست سنين ثم يتحرر ، ففي سفر الخروج : إذا اشتريت عبداً عبرياً فستّ سنين يخدم وفي السابعة يخرج حراً مجاناً [١] ، وإذا سرق العبرى ماشية وذبحها ، أو أى شيء استهلكه ، ولم يكن فى يده ما يعوّض به صاحبه يباع السارق بسرقته ، كما نصت التوراة على ذلك فى سفر الخروج ، وأباحت التوراة للعبرى أن يبيع بنته فتكون أمة للعبرى الذى يشتريها .

أما الاسترقاق سبياً فى الحروب فهو أيسر ما ينزله اليهود بأعدائهم ، وقد نصّ العهد القديم على ما يلى :

« حين تقرب من مدينة لكى تحل بها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفُتِحَت لك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير وتستعبد لك ، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة ، كلُّ غنيمتها فتغتنمها لنفسك [٢] » .

الرق عند المسيحيين :

ولما جاءت المسيحية كانت عبودية الإنسان شائعة فى كل العالم ، نقل الدكتور جورج برست ، أحد رجال الجامعة الأمريكية الأولين فى بيروت [٣] ، أن المسيحية لم تعترض على العبودية من وجهها السياسى ، ولا من وجهها الاقتصادى ، ولم تحرض المؤمنين على منابذة جيلهم فى آدابهم من جهة العبودية ، حتى ولا على المباحثة فيها ، ولم تقل شيئاً ضد حقوق أصحاب العبيد ، ولا حركت العبيد إلى طلب الاستقلال ، ولا بحثت عن مضار العبودية ، ولا عن قساوتها ، ولم تأمر بإطلاق العبيد

---

(١) سفر الخروج ١٧ : ١ .

(٢) سفر التثنية الإصحاح العشرون ١٠ — ١٤

(٣) قاموس الكتاب المقدس المجلد الثانى ص ٦٠ — ٦١ . طبع المطبعة الأمريكية فى بيروت سنة ١٩٠١ .

أصلا . وبالإجمال لم تغير النسبةَ الشرعية بين الولى والعبد بشيء ، بل على عكس ذلك أثبتت حقوق السادة وواجبات العبيد .

وأمر بولس الرسول العبيد بإطاعة سادتهم كما يطيعون السيد المسيح ، فقال فى رسالته إلى أهل إفسس[١] . :

« أيها العبيد ، أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح ، لا بخدمة العين كمن يُرْضى الناس ، بل كعبيد المسيح ، عاملين مشيئة الله من القلب ، خادمين بنيةٍ صالحة كما للرب ليس للناس ، عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبدا كان أو حراً » .

وأوصى بطرسُ الرسولُ بمثل هذه الوصية ، وأوجبها آباء الكنيسة لأن الرق كفارة عن ذنوب البشر يؤديها العبيد لما استحقوه من غضب السيد الأعظم . وأضاف القديس الفيلسوف توماس الأكوينى رأى الفلسفة إلى رأى الرؤساء الدينيين ، فلم يعترض على الرق بل زكّاه لأنه — على رأى أستاذه أرسطو — حال من الحالات التى خُلِقَ عليها بعض الناس بالفطرة الطبيعية ، وليس مما يناقض الإيمان أن يَقْنَعَ الإنسان من الدنيا بأهون نصيب[٢] .

الرق فى أوربا :

فيما عدا اليونان والرومان — وقد سبق الكلام عنهما — ليس لأوربا تاريخ قديم يذكر سوى تاريخ الجرمان ، ويقول الأستاذ شفيق (باشا) عن موقف الجرمان من الرق ما يلى : وكانت المقامرة تخرج بالمولعين بها إلى حد أنهم يقامرون على نسائهم وأولادهم ، بل وعلى حرياتهم الشخصية ، فكان ذلك عند الجرمان مصدراً من مصادر الرق[٣] .

---

(١) الأصحاح السادس : ٥ — ٩ .
(٢) الأستاذ العقاد : حقائق الإسلام ص ٢١٥ .
(٣) الرق فى الإسلام : ص ٣١ .

ولما بدأ تاريخ أوربا العام يظهر فى العصور الوسطى ، ظهر معه نظام الأمراء والإقطاع ، أى نظام السادة من جانب والأرض ورقيق الأرض من جانب آخر ، فقد كان المزارعون عبيداً للملاك يباعون مع الأرض إذا بيعت الأرض ، وليس لواحد منهم الحق فى الخروج من أرض إلى أرض أخرى ، لأنه كان كالآلة تابعا للأرض مملوكا لصاحبها ، ولم يُلْغَ الرق فى أوربا إلا فى القرن التاسع عشر ، وكان فى الحقيقة إلغاءً لاسترقاق الأوربيين فقط ، وتحويلاً لنشاط التسلُّط تجاه آسيا وإفريقية ، وقد كان الاسترقاق فى آسيا منتشراً باسم الاستعمار ، أما فى إفريقية فكان استرقاقاً سافراً وكانت أسواق النخاسين التى فتحها الأوربيون تتمتع برواج عظيم وتفيض بربح وافر على تجارها ، وفى القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر تحالف تجار الرقيق البيض مع بعض زعماء القبائل الإفريقيين ، وأخذوا يهجمون على مساكن الإفريقيين ويخطفون أطفالهم ويعرضونهم للبيع فى أسواق العبيد .

الرق عند العرب :

انتشر الرق عند العرب قبل الإسلام انتشاراً كبيراً ، وكانت وسيلتُهُ الحروبَ التى كانت لاتنقطع فى الجزيرة العربية ، وكان الغالب يأسر من المغلوبين من يستطيع ليصبحوا عبيدا ، ومن وسائل الرق عند العرب القوة فإذا قابلتْ قبيلةٌ قويةٌ قبيلةً ضعيفة استسلمت القبيلة الضعيفة للقوية وخضعت لها وأصبح أفرادها عبيداً . ومن وسائل الرق عند العرب الهجوم السريع ، فالشخص الذى يمشى وحده ، أو الجماعة من الناس التى تمشى دون أن تستطيع حماية نفسها كانت عرضة للخطف نتيجة هجوم سريع ، فيصبحون بذلك عبيدا .

* * *

والرق عند هذه الأجناس جميعاً يشمل الجسم والعقل ، فالرقيق يتبع سيده فى دينه وتفكيره كما يعمل له بجسمه ، ولا حق للرقيق أن يفكر أو أن يتبع تفكيراً آخر غير تفكير سيده ، وللسيد أن يُنْزِل برقيقه من العقاب ما يشاء لأنه يملكه ملكاً كاملا .

تلك المقدمة القصيرة عن الرق فى الدول المختلفة نستطيع بها أن نعرف بوضوح مكانة التفكير الإسلامى فى مسألة الرق .

الإسلام والرق :

نبدأ حديثنا عن الإسلام والرق بأن نسأل سؤالا هاماً هو : ما موقف الإسلام من الرق ؟ وهل ألغاه ؟

الجواب على ذلك أن الإسلام لم يلغ الرق إلغاء مباشرا ، وإنما وضع نظاماً يكفل إلغاء الرق ، فيمكن القول بأن الإسلام ألغى الرق بطريق غير مباشر .

لماذا لم يلغ الإسلام الرق بطريق مباشر ؟

وما هو هذا النظام الذى وضعه الإسلام ليلغى الرق بطريق غير مباشر ؟

هذا ما سنتكلم عنه فيما يلى بتفصيل كاف .

أما الإجابة عن السؤال الأول ، وهو لماذا لم يلغ الإسلام الرق بطريق مباشر ، فإنها تنحصر فى سببين :

١ – التكافؤ فى المعاملة ، فقد كانت هناك حروب بين المسلمين وغير المسلمين وكان غير المسلمين يستحلون استرقاق المسلمين ، فكان لابد أن يعاملهم المسلمون بالمثل كما سبق القول .

٢ ــ للإسلام فلسفة فى معالجة الشئون التى ليست أساساً من أسسه : فى معالجة هذه الشئون ، تقضى فلسفة الإسلام ، أن تُعَالَج برفق وأناة ، حتى يصل الإسلام إلى هدفه بدون أن يحدث اضطرابا بين معتنقيه ؛ فشرب الخمر والرق وتعدد الزوجات ، للإسلام تجاهها هدف ، ولكنه يصل إلى هدفه بيسر ، وبخطوات أحياناً ، أما الأمور الرئيسية فى الإسلام كتوحيد الله وترك عبادة الأصنام ، فإن الإسلام يواجهها مواجهة صريحة مباشرة ، ليقطع دابرها من أول الشوط .

ونجيء بعد ذلك للسؤال الثانى وهو : ما النظام الذى وضعه الإسلام ليلغى الرق بطريق غير مباشر ؟

فى الإجابة عن هذا السؤال نقرر أن ذلك النظام ينحصر فى مبدأين مهمين :

١ ــ تضييق المدخل .

٢ ــ توسيع المخرج .

وسنشرح فيما يلى كلا من هذين المبدأين .

١ ــ تضييق المدخل :

جاء الإسلام وللرق وسائل أو مداخل كثيرة سبق أن ذكرناها ، ومنها البيع والمقامرة والنهب ، والسطو ، ووفاء الديون ، والحروب مهما كانت أنواعها وأسبابها ، والقرصنة ، والطبقية ، . . . فألغى الاسلام جميع هذه المداخل ، ولم يبق منها إلا مدخلا واحدا ، وضيقه الإسلام حتى لم يعد ينفذ منه إلى الرق الا القليل النادر أشد الندرة ، وذلك المدخل هو الحرب الدينية التى يقصد بها الجهاد فى سبيل الله لرد اعتداء يقوم به غير المسلمين ، بشرط ألا يكون الأسير وقت أسره مسلما ولو كان من جيش الأعداء ، وأن يضرب الإمام عليه الرق .

يقول الشيخ عبد العزيز جاويش إن الشرع لايبيح أن يُسْتَرَقَّ مسلمٌ أصلا ، ثم إنه لا يبيح بعد ذلك إلا استرقاقَ أسرى حرب شرعية قامت لإعلاء كلمة الله ، مراعى فيها أن تكون مسبوقة باعتداء غير المسلمين عليهم . وقد سدَّ الإسلام بذلك ، تلك الأبوابَ التى ذكرناها والتى كانت مصادر للرق فى الأمم المختلفة قبل الإسلام وبعده .

ومن الأدلة الواضحة على أن الإسلام يضيق مدخل الرق ويميل للحرية ما ذكره الفقهاء من أنه إذا وُجِدَ طفلٌ ادّعى نصرانىٌّ أنه ابنُه ، وادّعى مسلم أنه عبده فإنه يُقْضَى به للنصرانى حتى لا يدخل الطفل باب الرق ولو كان فى ذلك إسلامه[1] .

ومن تضييق المدخل أن الإسلام وضع تنظيما لأسرى الحرب لم يكن معروفاً قبل الإسلام، فقد كان الأسرى فى الأمم المختلفة يعتبرون أرقاء بمجرد وقوعهم فى الأسر ، ولكن الإسلام اشترط لاعتبارهم أرقاء أن يضرب الإمام عليهم الرق كما سبق القول ، أما قبل أن يضرب الإمام الرق على الأسرى فيمكن أن تتمَّ نحوهم التصرفات الآتية :

١ ــ تبادل الأسرى ، وذلك بأن يرد المسلمون من أسراهم عدداً إلى الأعداء نظير إطلاق عــدد مقابل من أسرى المسلمين الذين وقعوا فى أيدى الأعداء .

٢ ــ المن على الأسرى أو على بعضهم وذلك بإطلاقهم من غير مقابل لسبب من الأسباب .

٣ ــ قبول الفداء منهم ، وذلك بإطلاقهم نظير مقابل مادى أو أدبى ، كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم فى أسرى بدر ، فقد أطلق بعضهم نظير مقابل مالى ؛ وجعل للقارئين منهم أن يفتدوا أنفسهم بتعليم القراءة والكتابة

---

(٢) دكتور محمد يوسف موسى : مجلة « المسلمون » العدد الأول ص ٨

لعدد من أبناء المسلمين[١] وفى المن والفداء جاءت الآية الكريمة : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منًّا بعدُ وإما فداءً »[٢] .

ومن الممكن أن يُفهَم من الآية السابقة أن الأسر شيء مؤقت يزول بطريق المن أو الفداء بعد انتهاء الحرب ، ومقتضى هذا أن عدداً كبيراً من أسرى الحرب أو كلهم لن يصلوا إطلاقاً إلى ساحة الرق . وقد ذكرت لنا المراجع التاريخية صورة جميلة لتبادل الأسرى وافتدائهم ، ونحن نوردها فيما يلى :

كانت عملية الفداء تتم بصورة منتظمة تقليدية ذات روعة خاصة ، فيقف المسلمون على الضفة الشرقية لنهر اللامس وتقف الروم على ضفته الغربية . واللامس نهر صغير ضيق كأنه ترعة ، ويُمَدُّ جسران من القوارب بين الضفتين ، وكلما أطلق الروم أسيراً مسلما أطلق المسلمون أسيراً رومياً معادلا له من حيث المكانة والسن وسلامة البدن ، وكلما وصل إلى المسلمين أسير من أسراهم صاحوا : الله أكبر ، وعندما يصل إلى الروم أحد أسراهم يصيحون صياحاً مماثلا ، فإذا بقيت لأحد الجانبين بقية من الأسرى افتديت بالمال[٣] .

٢ — توسيع المخرج :

أما من يضرب الإمام عليهم الرق ، فإن الإسلام يفتح لهم الأبواب ليعيد الحرية لهم أو ليعيدهم إلى الحرية ، إذ أن الإسلام يعتبر الرق عارضاً ويعمل على إزالته ، وفيما يلى ذكر لهذه الأبواب :

١ — جعل الإسلام العتق مرغوباً فيه ووعد بالثواب العظيم من الله من

(١) المبرد : الكامل ص ١٧١ .

(٢) سورة محمد الآية الرابعة

(٣) انظر تاريخ التمدن الإسلامى لجورجى زيدان جـ ١ ص ٢١٦ (تعليق الناشر) .

يعتق رقبة ، قال تعالى : « ألم نجعل له عينين واساناً وشفتين وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة »[١] .

وقال : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب»[٢] .

وقال : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب »[٣] .

وقال عليه السلام : « من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار » .

٢ ـ جعل الإسلام العتق وسيلة للتكفير عن يمين حنث فيها الإنسان أو للتكفير عن بعض الذنوب .

قال تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أوكسوتهم أو تحرير رقبة »[٤] .

وقال : « ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة . . . . »[٥] .

وقال فى نفس الآية : « وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة » .

وقال : « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا »[٦] .

٣ ـ مكاتبة العبد ليتحرر بدفع مال يقدمه لسيده ، ويرى بعض الفقهاء

---

(١) سورة البلد الآية ٨ ـ ١٤ .
(٢) سورة البقرة الآية ١٧٧ .
(٣) سورة التوبة الآية ٦٠ .
(٤) سورة النساء الآية ٩٢ .
(٥) سورة النور الآية ٢٣ .
(٦) سورة المائدة : الآية ٨٩ .

أن المكاتبة واجبة إذا طلبها العبد وكان هناك أمل أن يوفى بما وعد . والمكاتبة عقد بين السيد والعبد لإعادة الحرية لذلك العبد نظير دفعه مالا للسيد .

وقد اعتمد الفقهاء الذين قالوا بالوجوب ، على قوله تعالى : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا »[1] ، وبعد المكاتبة يُعْطَى العبدِ حق التجارة والعمل ، كما يعطى حق التملك والحرية ليعمل لنفسه ، فلا يعمل لسيده ، بل يتحرر للكسب لسداد النجوم (الأقساط) ، وبالإضافة إلى عمل المكاتَب ليحصل على المال اللازم نجد الإسلام يجعل من حقه نصيباً من الزكاة ليساعده ذلك على السداد ، قال تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب »[2] . كما يُلْزِمُ الإسلامُ السيدَ أن يحطَّ عنه بعض النجوم ، أو أن يساعده بمال ليوفى بما وعد به ، قال تعالى : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » .

٤ — التدبير : وهو أن يوصى السيد بأن يكون عبده حرا بعد موته ، وسمى كذلك لأن السيد تدبر أمر دنياه فأبقى العبد ليعاونه فى الدنيا ، وتدبر أمر آخرته فأوصى يعتق العبد عقب موته ليساعده ذلك فى الآخرة بتكثير حسناته ، والتدبير موصى به ويحث الشرع عليه ، ولا يجوز بيع المدبر ولا هبته ولا رهنه فى أصح القولين لقوله عليه السلام : « إن المدبر لا يباع ولا يورث ولا يوهب وهو حر من الثلث » .

٥ — إذا أصاب السيد أمته فحملت منه ووضعت ما تبين منه شيء من خلق آدمى حرَم عليه بيعُها وهبتها وعتقت بموته ، وكان ولده منها حراً ، وهذا بخلاف النظام الذى كان متبعاً عند العرب قبل الإسلام والذى كان يقضى بأن تظل الأمَةُ أمَةً وإن ولدت لسيدها ، وأن يكون ابنها منه عبداً ،

---

(١) سورة المجادلة الآية الثالثة .   (٢) سورة التوبة الآية الستون .

وقد كان عنترة العبسى ابن أمة وكان عبداً لأبيه ، وحدث أن هوجمت عبس ولم يهتم عنترة بالدفاع عنها ، فقال له أبوه : كُرّ يا عنترة ، فأجاب : إن العبد لا يعرف الكرّ ، وإنما يعرف الحلاب والصرّ (الشد على الناقة) فقال له أبوه : كرّ وأنت حر . وهكذا لم ينل عنترة الحرية إلا عندما احتاجت القبيلة إلى كفاحه ، وقبل ذلك كان عبداً لأبيه .

٦ — إن من أعتق بعض عبد يملكه عتق كله ، فإن كان يملك بعض العبد وله شريك يملك باقيه فأعتق نصيبه عتق العبد كله وقُوِّم عليه ما يملكه الشركاء إن كان موسرا ودفع لهم ثمنه ، قال عليه السلام : « من أعتق شركاً له فى عبد وكان موسرا قوم عليه ثم يعتق كله » . فإن كان معسرا سعى العبد فى قيمة الباقى لأنه هو الذى انتفع بالحرية ، ويرى بعض الفقهاء فى هذه الحالة عدم عتق الباقى .

٧ — إن ملك واحداً من ولديه أو والديه عتق عليه فى الحال .

ويتضح من ذلك تمام الوضوح أن الإسلام أنهى الرق من الناحية العملية فالمرأة ينتهى رقها إذا أصابها سيدها وحملت منه ، وهذا يجعل عنصر النساء قريباً جداً من الحرية ، أما الرجال فقد فتحت لهم الأبواب المتعددة التى ذكرناها ، وأبرزها باب المكاتبة الذى يلتزم السيد أن يقبله وأن يساعد عبده على الوفاء بما التزم .

معاملة الرقيق فى الإسلام :

على أن الرق إن بقى بعد ذلك فإن الإسلام كفل زوال أثره عملياً ، وذلك بمحو الفوارق والتوصية بالأرقاء حتى وجد من يؤثر الرق على الحرية كما سيأتى عند الحديث عن الرق الصناعى ، وأبرز ألوان المعاملة التى أتاحها الإسلام للأرقاء ، هى أن الرق يتصل بالعمل الجسمانى ولا يتصل بالعقل ، فالرقيق يعمل لسيده ويطيعه فى حدود هذا العمل ، ولكنه حر فى تفكيره يعتنق

الدين الذى يرضيه ، وليس ملزَماً أن يتبع سيده فى أفكاره أخطأت هذه الأفكار أو أصابت ، وبناء على ذلك لا يجوز للسيد أن يرغم عبده على أن يتبعه فى دينه ولا أن يطلب منه أن يرتكب إثماً أو يقتل نفساً بغير حق ، وللعبد أن يعارض ذلك وأن يقف فى وجه سيده قائلا : لا ، هذا لا يجوز . وقد عد العرب فى مطلع الإسلام هذا التفكير الذى يقضى بتحرير عقل الأرقاء ثورة عارمة ، وقتلوا عبيدهم وعذبوهم حينما صاح هؤلاء العبيد فى وجوه سادتهم قائلين : لقد اعتنقنا الإسلام وليس لكم سلطان على عقولنا ، وسلطانكم محدود بالأعمال الجسمانية التى لا تنافى الدين أو الخلق ، وفى ذلك يقول ابن القيم[1] والسيد لا حق له فى ذمة العبد ولا فى إنسانيته ، وإنما حقه فى بدنه .

وخطوة أخرى خطاها الإسلام فى معاملة الرقيق هى مساواته بالأحرار فى أكثر الشئون وقد روى الشيخان قوله عليه السلام : من قتل عبده قتلناه ، ومن جوع عبده جوعناه ، ونقل الإسلام التفاضل إلى مقياس جديد هو التقوى ، قال تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وبناء على هذا المقياس الجديد زوج الرسول ابنة عمته زينب بنت جحش من مولاه زيد ، وولى زيداً هذا قيادة جيش المسلمين الذاهب لمحاربة الروم فى موقعة مؤتة وبين جنوده كثير من عظماء الإسلام ، وولى بعد ذلك أسامة بن زيد قيادة جيش المسلمين لحرب الروم أيضاً وبين جنوده شيوخ المسلمين وعظماؤهم ، وكان من خيرة صحابة الرسول بلال وسلمان الفارسى وصهيب . وقد قرر الإسلام للأرقاء ألا يُطْلَبَ منهم أن يعملوا ما فوق طاقتهم ، وأن يكون من حقهم أن يأكلوا مما يأكل سادتهم منه ، بل أن يلبسوا من لباسهم ، ولعل هذا أرقى درجات المساواة ، وقد ورد فى الحديث : إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم » .

---

(١) أعلام الموقعين جـ ١ ص ٣٥١ .

وقال : « من لاءمكم من خولكم فأطعموه مما تأكلون واكسوه مما تلبسون ، ومن لا يلائمكم فبيعوه ، ولا تعذبوا خلق الله عز وجل » ؛

وقال تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجُنُبِ والصاحب بالجَنْبِ وابن السبيل وما ملكت أيمانكم »[1] .

ورأى رسول الله عبد الله بن مسعود وهو يضرب عبده فصاح به : يا ابن مسعود ! إن الله أقدر عليك منك على هذا » .

ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا أخبركم بشراركم ؟ قالوا : بلى . قال : من أكل وحده ، ومنع رفده ، وضرب عبده »[2] .

ورأى رسول الله رجلا يركب دابة وخلفه عبده يجرى فصاح به : « يا عبد الله ، احمله خلفك ، إنما هو أخوك ، روحه مثل روحك » ؛

ومن نتائج هذه التعليمات ما حصل لابن عمير فقد روى عنه أنه قال : « كنت فى رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر ، فكانوا إذا قدَّموا غذاءهم أو عشاءهم خصونى بالخبز وأكلوا التمر ، لوصية رسول الله إياهم بنا » ؛

ويحدثنا التاريخ أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه جاء إلى بيت المقدس ومعه غلامه ، ولم يكن معهما إلا ناقة واحدة ، فكانا يركبانها على التناوب إلى أن اقتربا من تلك المدينة ، وكانت النوبة للغلام ، فأركبه عمر وسعى خلفه ماشياً حتى وصلا ، ولما لامه أبو عبيدة على ذلك قائلا : إنى أراك تصنع أمراً لا يليق ، فالأنظار متجهة إليك . أجاب ابن الخطاب فى قوة وإيمان بالله وبنفسه قائلا : قد كنا أذل الناس وأقل الناس فأعزنا الله بالإسلام ، ومهما نطلب العزة بغيره يذلنا الله ؛

---

(١) سورة النساء الآية ٣٥ (٢) الكامل جـ ١ ص ٥٩ .

ولم يجعل الشرع الإسلامى هذه الآداب فضائل فقط يَحُثُّ مالكَ الرقيق على التخلق بها ، بل جعلها واجباً يلتزم المالك أن يقوم به ، فإذا جار مالك على عبده أو ظلمه ظلماً بيِّناً كان جزاؤه أن يَعتِق الحاكمُ عليه ذلك العبد ، وقد روى ابن عمر عن الرسول قوله : من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه . وسار المسلمون على هذا فى عصور مختلفة ، فقد روى أن زنباعا أبا روح ابن زنباع الشهير ، عاقب عبدا له على خطأ ارتكبه العبد ، فقسا عليه ، فشكا العبد للرسول فأعتقه الرسول . وأنزل رجل عقابا قاسيا على أمَةٍ فأعتقها عمر وأوجعه ضرباً[1] .

وعمل بذلك أيضاً باى تونس سنة ١٢٦٢ هـ (١٨٤٥ م) وكان جريئا فيما عمل ، فلقد رأى أغلب المالكين لايحسنون معاملة الأرقاء ، فاتخذ قراراً بتحرير الأرقاء جميعاً ووافق رئيس الفتوى فى تونس على ذلك[2] .

ونختم هذا البحث بجملة للأستاذ سيد قطب ، فقد قال بعد أن تحدث قليلا عن معاملة الإسلام للرقيق : على هذا المنوال عالج الإسلام قضية الرق من ناحيتها العملية إلى أن يجد لها حلا من ناحيتها الدولية ، وفى هذا الجانب وحده كانت مراعاة الإسلام لواقع الأمر فى البشرية يوم جاءها ، وبعد أن جاءها لم يعد لعهد الرق وجود فى الوطن الإسلامى ، لأن معالم عهد الرق وخصائصه قد بهتت فى الحياة الاجتماعية الواقعية بحكم تعاليم الإسلام فى معاملة الأرقاء الذين اضطر للإمساك بهم فترة من الوقت حتى يتهيأ له عقد ميثاق دولى عام[3] .

وقريب من هذا ما ذكره Stanley Lane Poole[4] وهو يتحدث عن الأرقاء بأسبانيا عقب الفتح الإسلامى للأندلس ، قال : أما فرح العبيد

---

(١) الطيب النجار : الموالى فى العصر الأموى ص ١٥٨ .

(٢) الشيخ الخضر : مجلة الأزهر صفر سنة ١٣٧٣ .

(٣) انظر ص ٢٦ — مجلة المسلمون — السنة الثالثة — العدد الخامس .

(٤) العرب فى اسبانيا ص ٤٠

بما طرأ على نظام الحكم من التغيير فقد كان عظيما حقاً ، بعد أن لاقوا من ضروب العسف والقسوة من القوط والرومان ما تقشعر له الأبدان ، فإن الرق فى رأى المسلمين الأخيار نظام إنسانى رفيق ، حتى أن النبى صلى الله عليه وسلم حينما لم يجد بداً من الإبقاء على هذا النظام العتيق الذى يعارض مبادئ الإسلام بذل كل جهد لتخفيف ويلاته فى كثير من الوصايا والأحاديث .

ويقول الأستاذ العقاد[1] : إن العتق هو الذى شرعه الإسلام فى أمر الرق ، وأما نظام الرق بأنواعه فقد وجده مشروعا فحرمه جميعاً ، ولم يبح منه إلا ما هو مباح إلى اليوم فى نظام الأسرى وتسخيرهم فى أعمال من يأسرونهم من المتقاتلين ، وسبق القوانين الدولية بتقريره إلزام الدولة واجب السعى فى إطلاق أسراها وإعتاقهم بالفداء ، وشفع ذلك بالوسائل الفردية فيما تنتقل به الذمة إلى الأفراد من مالكى الأرقاء بعد وفاء الدولة بذمتها .

ولا يقال هنا إنه عملٌ كثير أو قليل ، بل يقال إنه العمل الوحيد الذى استُطيع فى محاربة نظام الرق ، ولم تستطع أمم الإنسانية ما هو خير منه فى علاج هذه المسألة إلى الآن .

الرق الصناعى أو رق لا يقره الإسلام :

هناك نوع يسمى الرق وليس فى الحقيقة رقاً ، وقد انتشر هذا النوع فى العالم الإسلامى فى فترة من الفترات ، وحَسِبَه الناس رقاً إسلامياً والإسلام فى الحقيقة منه براء ، وهذا النوع من الرق هو انتكاس وعَوْدٌ للهوة التى انتشل الإسلام العالَم منها ، إذ وُجِدَ من الناس من يستعذبون الرق ويفضلونه على الحرية فزجوا بأنفسهم أو بذويهم إلى هذا الرق من باب غير الباب الذى فتحه الإسلام ، واختاروا لذلك وقتاً ضعف

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ٢٢١ .

فيه الوازع الدينى فأتيح لهم أن يضمنوا بعض النجاح فيما قصدوا إليه ، فكان ذلك الذى نسميه « الرق الصناعى » .

وقصة ذلك أن اصطناع الرق أو التظاهر به كان وسيلة لكسب السلطة وكسب النفوذ للرقيق ، وقصور الخلفاء والعظماء هى بطبيعة الحال البيوت المفتوحة للأرقاء والرقيقات ، ولهؤلاء الأرقاء والرقيقات فى هذه القصور سلطان وجاه واستمتاع بنعيم الحياة فى ظل ما ضمنه الإسلام للرقيق من حقوق ، وكل هذا جعل بعض الأحرار والحرائر يتوقون لدخول هذه القصو ولو باسم الرق وفى سِتْرٍ منه ، وكانت هذه القصور ترحب بالعبد الكفء والقينة الجميلة الماهرة ، ولهذا عمد بعض الآباء إلى تدريب أبنائهم وبناتهم على الحرف التى تعجب أصحاب هذه القصور ، كالموسيقى والغناء والرقص والشِّعر وغيرها ، وعَرَضَ هؤلاء أولادهم للبيع على أنهم أرقاء ورقيقات ، عرضوهم مباشرة أو بواسطة النخاسين الذين تخصصوا فى الاتجار بالأرقاء ، ووصل كثيرون من هؤلاء إلى القصور من هذا الطريق ، وهذا هو السر فى انتشار هذا النوع فى بعض الفترات التى لاحروب فيها ، يقول الأستاذ جميل نخله مدور : إن بيع الرقيقات لم يكن مظهرا من مظاهر العبودية والاسترقاق بالمعنى المألوف ، بل إن كثيراً من الإماء كُنَّ يأتين السوق مختارات ليتمتعن بحياة الترف والنعيم فى بيوت الخلفاء والأمراء[1] .

وطبيعى أن كثيرات من هؤلاء الرقيقات كن يفضلن الرق على الحرية ، ومما يروى فى ذلك أن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة ، وزهد فى متاع الدنيا ، واتجه للقيام بمسئولياته الكبيرة جمع جواريه وقال لهن : « إنه قد نزل بى أمر شغلنى عنكن فمن اختارت منكن العتق أعتقتها ، ومن أمسكتها لم يكن لها منى شىء . فبكين بكاء شديداً يأسا منه »[2] .

---

(١) حضارة الإسلام فى دار السلام ص ٩٨ .

(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٤٧ .

ولعل الرق القليل الذى لا يزال موجوداً فى بعض القصور هو من بقايا هذا النوع من الرقّ الصناعى .

وكان إقبال الشبان على الرقيقات عظيما مما جعل أثمانهن ترتفع ارتفاعاً كبيراً فأصبح ثمن الواحدة يعادل مهر عدة من الحرائر ، والسبب فى هذا الإقبال أن الشاب يختار الجارية بعد خبرة ، فيرى جسمها ويسمع صوتها ويختبر تجاربها وعلمها وذكائها ، ولكنه حين يختار زوجة لم يكن يتاح له أن يتعرف عليها ، وغاية ما يستطيعه أن يرى وجهها ويديها إن استطاع أن يقابلها مقابلة قصيرة .

ومن الرق الصناعى الذى لا يقره الإسلام ما يوجد فى بعض القصور من بقايا النخاسة الأوربية التى كانت تلتقط الأطفال والشبان من إفريقية وتدفع بهم إلى مزارع أمريكا ومصانعها ، وتنحرف ببعضهم أحياناً فتلقى بهم فى قصور الشرق للخدمة أو الحراسة .

وبعد ، لقد وضع الإسلام منذ جاء الأساس المتين لإلغاء الرق وتحرير الأرقاء ، وقد ظل صوت الإسلام يزمجر حتى استجاب له العالم بعد عدة قرون من تشريعه الحكيم ، إن زوال الرق هو أحد الهدايا التى قدمها الإسلام للإنسانية .

لمحة عن النظم السياسية فى الإسلام(*)

اتجهت الأديان والفلسفات التى سبقت الإسلام إلى الكلام عن العقيدة ، ولم تُعْنَ بشئون الدنيا قط ، أو عُنيت بها عناية محدودة ، وحتى عند العناية بها كانت التشريعات أشبه بنصائح غالبا ، لمتبعها الثواب من الله ، ولمخالفها عقابه ، ومن ثمَّ لم ترد بهذه الأديان دراسة كافية عن التنظيم السياسى .

أما عن الإسلام فإن الحقيقة الواضحة أنه دين ودولة ، ذلك لأنه نظم شئون الدين وشئون الدنيا جميعا ، فكما تكلم الإسلام عن الله والملائكة والأنبياء والجنة والنار والعبادات وغيرها من شئون الدين ، تكلم كذلك عن البيع والشراء والزواج والطلاق والميراث وغيرها من شئون الدنيا ، ووضع الإسلام لهذه وتلك ، القوانينَ والنظمَ ، وألزم المسلمين باتباعها وحدد عقوبة المخالفين والعصاة تحديداً مفصلا أو تحديداً مجملا ترك تفصيله لاجتهاد أئمة المسلمين ، وقد تكلمنا من قبل عن شئون الدين فى الإسلام ، ولنقتبس الآن من القرآن الكريم بعض آيات عن تنظيم شئون الدنيا ، قال تعالى :

– وأحل الله البيع وحرم الربا(1) .

– ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون(2) .

– خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها(3) .

– حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم ...(4) .

(*) هذا الموضوع مختصر من كتاب « السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى » للمؤلف .

(١) سورة البقرة الآية ٢٧٥ . (٢) سورة المطففون الآيتان ١ – ٢ .

(٣) سورة النساء الآية الأولى . (٤) سورة النساء الآية ٢٣ .

— الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان[١] .

— والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف[٢] .

— يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل . . .[٣] .

— ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد . . .[٤] .

— كتب عليكم القصاص فى القتلى ؛ الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى[٥] .

— قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون[٦].

وهذه التعليمات الإسلامية الشاملة لكل شئون الدنيا تقريباً واجبة الاتباع ، ومن خالفها فقد نظّم الإسلامُ العقوبةَ التى تقع عليه ، قال تعالى :

— السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا ، نكالا من الله[٧].

— الزانية والزانى فاجلدوا كل واحدة منهما مائة جلدة[٨] .

وكان الرسول فى حياته يتولى تنفيذ هذه الأحكام :

— إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما[٩] .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٩

(٢) سورة البقرة الآية ٢٣٣ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٢ .

(٤) سورة النساء الآية ١٢ .

(٥) سورة البقرة الآية ١٧٨ .

(٦) سورة المؤمنون الآيات ١ — ٥ .

(٧) سورة المائدة الآية ٤٢ .

(٨) سورة النور الآية الثانية

(٩) سورة النساء الآية ١٠٤

– وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً[١] .

– ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون[٢] .

وهكذا لا يقتصر الإسلام على تنظيم العلاقة بين الإنسان وربه ، ولو كان الإسلام ديناً فقط أى تنظيما للعلاقة بين المخلوق والخالق لا غير ، لكان من الممكن أن تترك شئون هذا الدين لله ، يراقبها ، ويرضى عن المطيع ويسخط على العاصى ، ولكنّ بالإسلام جانباً كبيراً ينظم علاقة الإنسان بالإنسان ، ويرتب سبل العيش فى مختلف شئون الحياة أو أكثرها ، ويُلزم المؤمنين بأن يتبعوا هذه النظم ، وأن يبطلوا ما يخالفها ، وينزلوا العقوبة بالمخالفين.

ولكن جماعة المسلمين كلها لا يمكن أن تشرف على تنفيذ أحكام الله ، لانشغال كل فرد بعمله ، ولعدم كفاءة البعض ، ثم لأنه ليس من الحكمة ترك مسئوليات جسام شائعة دون أن يحدَّد نفر لرعايتها وتنفيذها ، ثم كان من الطبيعى كذلك أن كل جماعة لابدّ أن يكون لها رائد ، يرشدها ، ويكون مسئولا عن تنفيذ أحكام الله فيها ، ويقول إن تيمية فى ذلك[٣] : يجب أن يُعْرَف أن ولاية الناس من أعظم واجبات الدين ، بل لا قيامة للدين إلا بها ، فإن بنى آدم لاتتم مصلحتهم إلا بالاجتماع ، لحاجة بعضهم إلى بعض ، ولابد لهم عند الاجتماع من رأس ، حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم : إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم . وجاء فى مسند أحمد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لا يحل لثلاثة يكونون فى فلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم ، فأوجب الرسول تأمير الواحد فى الاجتماع القليل العارض فى السفر ، تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع ، ثم أن الله أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة ، ومثل الأمر بالمعروف

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٦ (٢) سورة المائدة الآية ٤٧

(٣) السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية ص ١٧٢ – ١٧٣ .

والنهى عن المنكر ، سائر ما أوجبه الله من الجهاد والعدل وإقامة الحدود وغيرها مما لا يتم إلا بالقوة والإمارة ، ولهذا روى أن السلطان ظل الله فى الأرض ، وروى كذلك : ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان .

وعلى هذا فالحكومة فى الإسلام ضرورية للغاية ، وفى مطلع الإسلام كان الرسول — بجانب تبليغ رسالة الله — حاكما يشرف على تنفيذ قوانين الله ، وكان يساعده فى هذا العمل مجموعة من الصحابة والقادة ، ومن هؤلاء كانت تتكون الحكومة الإسلامية الأولى ، وبعد وفاة الرسول اختير الخلفاء ومثلوا هم ومعاونوهم الحكومات الإسلامية بعد وفاة الرسول .

ومن الواضح أن القرآن الكريم لم يفصل المشكلات الخاصة بالحكومة الإسلامية ، لأن الحكومة وطرق اختيارها ومسئوليتها وعزلها وغير ذلك من شئونها لما تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ، ومن أجل ذلك تكلمت المصادر الإسلامية الأولى عن الحكومة الإسلامية بالإجمال ، وتركت التفاصيل ليضعها البشر بما يلائم حاجتهم فى حدود الإطار العام الذى رسمه الإسلام ، وقد تكونت لدينا من المصادر الأولى ومما أضافه العلماء والباحثون مادة نستطيع بها أن نعطى صورة واضحة عن النظم الخاصة بالحكومة الإسلامية ، وهو ما سنشرع فيه :

تكوين الحكومة الإسلامية :

نقلنا عن ابن تيمية فيما سبق ضرورة وجود الرياسة ، وقد اقتبس ابن تيمية فى خلال كلامه أحاديث صحيحة تبين ضرورة اختيار الرئيس ، ويجب أن نضيف إلى هذا الاقتباس أن جماعة المسلمين فى اختيارهم للرئيس لا بد أن يمتثلوا تعليمات الإسلام التى تقضى بأن يُختار للرياسة أصلح المسلمين للقيام بهذه المهمة وملء هذا الفراغ الكبير . قال صلى الله عليه وسلم : أيما رجل

استعمل رجلا على عشرة أنفس علم أن فى العشرة أفضل ممن استعمل ، فقد غش الله وغش رسوله وغش جماعة المسلمين . وسئل رسول الله مرة : متى الساعة ؟ فأجاب : إذا أُسند الأمر لغير أهله فانتظر الساعة .

وروى عن الرسول قوله : إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا .

وروى عن أبى سعيد الخدرى أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً إمام عادل ، وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر .

وقد روى عن عمر بن الخطاب قوله : لا إسلام إلا بجماعة ولا جماعة إلا بإمارة ، ولا إمارة إلا بطاعة ، فمن سوّده قومه على الفقه كان حياةً له ولهم ، ومن سوده قومه على غير فقه كان هلاكاً له ولهم .

و هكذا نجد صفات الحاكم تتضح من خلال هذه الأحاديث والمأثورات ، فيبدو لنا ضرورة أن تتوافر فيه صفات القوة والعلم والفطنة والعدالة ، بالإضافة إلى صفات جسمانية وعقلية أخرى ذكرها الماوردى[1] كسلامة الحواس و سلامة الأعضاء من نقص يمنع من استيفاء الحركة وسرعة النهوض ، وكالرأى المفضى إلى سياسة الرعية . وبناء على التفكير الإسلامى لا يجوز لمن لم تجتمع فيه صفات الرئيس أن يتقدم لمنصب الرياسة ، كما لا يجوز للمسلمين أن يختاروا غير الصالح ، بل عليهم أن يسندوا الأمر لأهله ، وأن يحسنوا استعمال السلطة التى منحت لهم لاختيار إمام المسلمين .

ومن الواضح أن الإمام المنتخب ليقود جماعة المسلمين ، لا يمثل وحده الحكومة الإسلامية ، ولا يقوى وحده أن ينهض بكافة الأعباء ، ولذلك تُرك له أن يختار من بين المسلمين من يعاونه فى هذه المهام الجسام ، على أن

---

(١) الأحكام السلطانية ص ٥

هذا الحق المعطى للإمام مقيد باختيار الصالح ، فقد روى عن الرسول قوله : من وَلِيَ من أمر المسلمين شيئاً فولّى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه ، فقد خان الله ورسوله . وفى رواية من قلد رجلا عملا على عصابة وهو يجد فى تلك العصابة أرضى منه فقد خان الله وخان رسوله ، وخان جماعة المسلمين . وعن أبى ذر أنه قال : قلت يا رسول الله ألا تستعملنى ؟ فضرب الرسول بيده على منكبي ثم قال : يا أبا ذر ، إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة . إلا من أخذها بحقها وأدّى الذى عليه فيها .

ومن هنا يتضح أن التفكير الإسلامى يقضى بأن يختار الشعبُ الرئيسَ الأعلى فقط ، ويُتْرَكَ لهذا الرئيس حق اختيار معاونيه ، فليس للشعب أن يختار معاونى الرئيس ، بل ذلك الحق للرئيس نفسه ليمكن التناسق بين أعضاء الحكومة إذ لو اختار الشعب معاونى الرئيس لكان من الممكن أن يختار الشعب شخصاً لا تتفق ميوله مع الرئيس فلا يتم بينهما التعاون المنشود ، على أن الشعب إن فقد سلطة اختيار معاونى الرئيس ، فإن له حق الاعتراض على من يختارهم الرئيس متى كان للاعتراض أسباب معقولة .

ومن الرئيس وأعوانه تتكون الحكومة الإسلامية ، وهذه الحكومة واجبة الطاعة . قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم(١) » ، ولكن وجوب الطاعة محدود بأن تكون الطاعة فى خير وبرّ ، قال صلى الله عليه وسلم : لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

ولا يهتم الإسلام بالألقاب التى تُمْنَحُ لأعضاء هذه الحكومة ، وقد عُرِفَ فى الإسلام لقبُ الخليفة والإمام والسلطان للرئيس ، وعرف لمعاونيه لقب الوزراء والأمراء ، ولا بأس من استعمال هذه الألقاب أو غيرها مما يمثّل طبيعة العمل الذى يقوم به كل من أعضاء هذه الهيئة ، والمهم فى الإسلام

---

(١) سورة النساء الآية ٥٩ .

هو اجتماع هذه الشروط وحسن سير العمل ، أما الألقاب فليست مما يحرص عليه التفكير الإسلامى . ولا يعرف التفكير الإسلامى مسألة توارث السلطة ولا حصرها فى جماعة دون جماعة .

عمل الحكومة الإسلامية :

مجمل خصائص الحكومة الإسلامية أنها تعمل لخدمة الشعب الذى اختارها ؛ فالتاريخ يؤكد لنا أن كل من حكموا المسلمين حكماً إسلامياً بدءوا هذا الحكم أغنياء وتركوه فقراء ، وعرفوا قبله راحة البدن والمتع المباحة ، فلما أسند لهم هذا العمل بعدوا عن المتع ولم يعرفوا طعم الراحة ، وحسبك أن تستعرض حياة الرسول وأبى بكر وعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز لترى صوراً رائعة للحكومات الإسلامية .

فإذا أردنا أن نعطى مزيداً من التفاصيل عن عمل الحكومة الإسلامية ، قلنا إن على الحكومة الإسلامية أن تضمن الأمن فى الداخل ، وأن تعد العدة لحماية الدولة من أى اعتداء خارجى ، وعلى الحكومة الإسلامية أن تتبع نظم الإسلام وأحكامه التى جاء بها فى أمور السياسة والاقتصاد والاجتماع وغيرها ، وأن تُلْزِم المسلمين بذلك ، وعليها أن تقترح النظم والقوانين المتمشية مع روح الإسلام للمشكلات التى لم يرد لها ذكر فى مصادر الإسلام الأولى ، وأن يكون هدفها فى الأحكام التوفيق بين النصوص وبين مصالح العباد . والنصوص التالية تبين مسئولية الحكومة الإسـلامية :

قال تعالى : الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور[1] .

---

(١) سورة الحج الآية ٤١

وقال عليه السلام : كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمير الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته .

وقال : من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم ، احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة .

وفى تدبير مشكلات المجتمع الإسلامى ، وفى تقوية الصلة بين الحاكمين والمحكومين نذكر هنا آيتين كريمتين تتم بهما صورة عمل الحكومة فى إطار الشورى الذى نسميه « الديمقراطية » فى الاصطلاح الحديث ، وهاتان الأيتان هما :

– وأمرهم شورى بينهم[1] .

– فبما رحمة من الله لنتَ لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر[2] .

وهاتان الآيتان تبينان أن اختيار الحكومة ليس معناه تسليم كل الأمور إليها وانقطاع رأى الشعب ، بل توضحان أن واجب الحاكم أن يستشير ليس فقط أهل الحل والعقد ، بل أن يستشير جماعات أوسع من المسلمين كلما حَزَبَ أمْرٌ ، بل أن يستشير المسلمين جميعاً فى مهام الأمور إذا أمكن ذلك ، بطريق الاستفتاء العام ، أو أى طريق آخر ، والآية الأولى تصوغ هذه الفكرة صياغة رائعة ، فهى لاتتجه إلى أسلوب الأمر بالمشاورة ، وإنما توضح أن المشكلات إنما هى مشكلات الأمة ، وأن الأمور أمورها ، فطرح هذه الأمور للأمة للتشاور ، ولرغبة الوصول إلى حل سليم ، أمر عادى ، هو فى الحقيقة وضع للأمور فى نصابها وإعطاء الحق لصاحبه .

أما الآية الثانية فلم تكتف بالأمر بالمشاورة ، وإنما رسمت أخلاق الإسلام وروحه التى يجب أن يتحلى بها الحاكم ، فأوصته بالرحمة ،

(١) سورة الشورى الآية ٣٨

(٢) سورة آل عمران الآية ١٥٩ .

ولين الجانب ، والعفو ، والتسامح ، والدعاء للمسلمين بالمغفرة ، وكل هذه المظاهر تمهيد للمشاورة ، وهى تجعل الشعب يحسّ بحرية تامة فيبدى رأيه بصراحة ووضوح فى المشكلات التى يعرضها الحاكم للتشاور .

ممن تستمد الحكومة الإسلامية سلطانها ؟

الحكومة الإسلامية تستمد سلطانها المباشر من الشعب لا من الله ، لأن الشعب هو الذى اختارها ، فتسلمت السلطة بناء على هذا الاختيار ، ولولا اختيار الشعب لها ما نالت هذه السلطة . وفى ذلك يقول الشاعر مخاطبا عمر ابن الخطاب :

أنت الإمام الذى من بعد صاحبه ألقى إليك مقاليدَ النهى البشرُ

وقد حصل الشعب على هذه السلطة من الله ، فالبشر خلفاء الله فى أرضه . قال تعالى : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم[١] » . وقال : « هو الذى جعلكم خلائف الأرض[٢] » ، وبناء على هذه السلطة اختار المسلمون الحكومة أو اختاروا رئيسها واختار هذا الرئيس معاونيه ، وبذلك تعمل الحكومة باسم الشعب وتتحدث باسمه[٣] .

عزل الحكومة :

من القواعد المقررة أن من يعطى السلطة يستطيع أن يسحبها ، والشعب كما قلنا — هو صاحب السلطان ، وهو الذى اختار الحكومة ، ومنحها قوة تستطيع بها أن تشرف على أموره ، وأن تتحدث باسمه ، فمن حق هذا الشعب أن يسترد هذه السلطة إذا عجزت الحكومة عن الاستمرار فى القيام بواجبها ، أو إذا أساءت استعمال السلطة المخوّلة لها ، ويقول الشيخ

(١) سورة النور الآية ٥٥ (٢) سورة فاطر الآية ٢٩

(٣) اقرأ تفصيلا شاملا عن هذا الموضوع فى كتاب « السياسة والاقتصاد فى التفكير الاسلامى » للمؤلف .

محمد بخيت مفتى الديار المصرية سابقا : إن كتب الكلام مطبقة ومتفقة على أن الخليفة أو الإمام هو وكيل الأمة ، وأنهم هم الذين يولونه تلك السلطة ، وأنهم يملكون خلعه وعزله(١) . وقد وضّح أبو بكر ذلك المعنى فى الخطاب الذى ألقاه عقب توليته الخلافة ، حيث جاء فيه : أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم .

فإذا لم تستجب الحكومة لرغبة الشعب فى عزلها ، أو إذا قاومت قرار العزل ، جاز للشعب أن يثور عليها ، وقد روى عن الرسول قوله : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده . ولكن يشترط فى الثورة أن تُؤمَنَ عواقبها ، وألا تنقلب إلى فتنة وإراقة دماء ، فإذا لم تؤمن عواقبها لا يجوز القيام بها عملا بقوله عليه السلام : الإمام الجائر خير من الفتنه ، وكلٌّ لا خير فيه ، وفى بعض الشر خيار . وجاء فى مقالات الإسلاميين للأشعرى أنه لا يجوز الخروج على الإمام الجائر إلا لجماعة لهم من القوة والمنعة ما يغلب على ظنهم معها أنها تكفى للنهوض وإزالة الجور(٢) .

هذا عن عزل الحكومة كلها ، أما عزل عضو من أعضائها فهو أمر هيّنٌ يستطيعه الرئيس إذا آنس من هذا العضو تقصيراً أو رأى فى عزله صلاحا .

الحكومة الإسلامية بين الحكومات المعروفة :

الحكومة الإسلامية نظام خاص بين نظم الحكومات ، له طابعه ، وله مميزاته وخصائصه التى تجعله لا يدخل تحت أىٍّ من النظم الأخرى للحكومات المعروفة فى الوقت الحاضر .

فليست الحكومة الإسلامية دكتاتورية أو فاشية أو شيوعية أو ما يماثلها

---

(١) حقيقة الإسلام وأصول الحكم ص ١٧ .

(٢) مقالات الإسلاميين جـ ٢ ص ٤٦٦ .

من النظم الاستبدادية ؛ لأن هذه النظم تتنافى مع الشورى التى هى ركن هام من أركان الحكومة الإسلامية كما سبق القول ، ولأن الشعب لم يولٍّ هذه الحكومات ، ولا يستطيع عزلها ، وإنما فَرَضَتْ هذه الحكومات نفسها بالقوة ، ولا يزيلها من مكانها إلا قوة تدبَّر فى الظلام كتلك التى جاءت بها .

وليست الحكومة الإسلامية حكومة تيوقراطية ، لأن سلطة الحكومة الإسلامية مصدرها الشعب ، ولكن الحكومة التيوقراطية تدعى أن سلطتها من الله ، وليس للحكومة الإسلامية ولا لرئيسها ما للبابا من سلطان روحى يستطيع به أن يشرِّع وأن يغفر السيئات ، فليس الخليفة إلا منفذا لأحكام الدين ، وسلطةُ تفسير الآيات القرآنية والأحاديث متروكة للعلماء[١] ، كما تُرِكَتْ لهم سلطة اقتراح الحلول للمشكلات الجديدة .

ويقول مولانا محمد على فى ذلك[٢] : والخليفة شخص مسلم عادى ، وعضو فى جماعة المسلمين ، لايتمتع بأى امتياز من الناحية الدينية .

ومن أستاذنا الإمام محمد عبده نقتبس بعض العبارات فى هذا الموضوع ، قال رحمه الله :

ليس فى الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه ، . . . . . . والخليفة عنده المسلمين ليس بالمعصوم ولا هو مهبط الوحى ، ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة ، . . . . وهو وسائر طلاب الفهم المسلمين سواء ، يتفاضلون بصفاء العقل وكثْرة الإصابة فى الحكم ، فالخليفة حاكم مدنى من جميع الوجوه ، ومن هنا لا يجوز لصحيح النظر أن يختلط عنده الخليفة عند المسلمين بما يسميه الإفرنج (تيوقراطيك) أى صاحب سلطان إلهى ، فإنه عندهم هو الذى ينفرد بتلقى الشريعة عن الله . وله حق الأثرة بالتشريع[٣] .

---

(١) Sir Thomas Arnold : The Caliphate p. 10, 14

(٢) Early Caliphate P. 80

(٣) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدينة ص ٦٥ — ٦٧ .

وليست الحكومة الإسلامية ديمقراطية على النحو المعروف فى الغرب ، وأول ما نوضحه أن كلمة (ديمقراطية) كلمة خداعة ، تدعيها كل الدول فى عصرنا الحديث ، تدعيها دول الغرب وتدعيها كذلك الدول الشرقية ، وعلى كلٍّ فالديمقراطية فى أحسن نظمها مخالفة للنظم الإسلامية ، صحيح أنها تتفق معها فى بعض الأسس الهامة ، كحق الشعب فى اختيار الحاكم ، وكالمشورة ، وحق الشعب فى عزل الحكومة ، ولكنها تختلف عنها فى أساس مهم يجعل الفرق بينهما واسعا ، وذلك الأساس هو أن الإسلام قدّم للمسلمين كثيراً من الأحكام التى لا يمكن إهمالها ، والتى هى ليست موضع شورى أو نقاش ، كنظام الميراث ، وكالمحرمات فى الزواج وتعدد الطلقات وغيرها ، كما وضع الإسلام للمسلمين مقاييس الفضائل والرذائل . فى حين أتاحت الديمقراطية لأصحابها أن يضعوا كل الأحكام ، وأن يرسموا لأنفسهم تلك المقاييس .

وعلى هذا فالحكومة الإسلامية طابع فريد ، يجمع من نظم الحكومات الأخرى أحسن ما فيها ، ثم ينفرد بألوان من الفضل هى منحة الله ، ومن هذه وتلك تُحَقِّق النظم السياسية فى الإسلام لأتباعها استقراراً وحياة طيبة حميدة .

لمحة عن النظم الاقتصادية فى الإسلام(*)

الاتجاهات الاقتصادية قبل الإسلام :

لم تعرف الأديان السابقة على الإسلام الاقتصاد بمفهومه الصحيح ، أى على أنه تنظيم لاحتياجات المجتمع ولطرق الكسب وطرق الإنفاق التى تناسبه ، فالبوذية كرهت الثروة ، وجعلت على الراغب فى دخولها أن يتنازل عن ماله وعقاره ويحمل كشكوله للسؤال ، وينضم للجماعة ، وقد تسربت هذه الفكرة إلى المسيحية حيث يروى متى ومرقص ولوقا عن عيسى أنه قال لشاب غنى أراد أن يدخل المسيحية : بع أملاكك وأعط ثمنها للفقراء وتعال اتبعنى ، فلم يقبل الشاب . فقال عيسى : يعسر أن يدخل غنىٌّ ملكوت السموات ، وأقول لكم أيضاً إن مرور جمل فى ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى ملكوت الله[1] . ويروى متى أيضاً عن عيسى قوله : لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يُفْسِد السوس والصدأ ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون[2] .

ولكن أغلب البوذيين والمسيحيين لم يقنعوا بهذا الاتجاه فى هذين الدينين ، فراح أتباعهما يشرِّعون التشريعات الدنيوية التى ترضى شغفهم بالمادة ، وهكذا اتجه أتباع المسيحية والبوذية إلى الرهبنة ، أو إلى التشريع الدنيوى الذى اهتم بالمال على أنه كسب شخصى دون أن يبين دوره فى خدمة المجتمع .

أما اليهودية فقد وضعت للمال أساساً عنصرياً خطيراً ، ففرقت بين التعامل

(*) هذا الموضوع مختصر مما كتبه المؤلف عن النظام الاقتصادى فى الإسلام فى كتابه « السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى » .

(١) أديان الهند الكبرى للمؤلف ص ١٧٢ — ١٧٣ وإنجيل متى ١٩ : ٢١ — ٢٤ وانظر هذا أيضاً فى مرقص الأصحاح العاشر ولوقا الأصحاح الثانى عشر .

(٢) الأصحاح ٦ الفقرة ١٩ .

مع اليهودى وبين التعامل مع غيره ، فأباحت التوراة الربا مع الأممى وحرمته مع اليهودى[١] ، كما أباحت بروتوكولات حكماء صهيون أن يعامل اليهود غير اليهود بالخديعة والنفاق والكذب ، وسرقة الأموال وإتلافها كلما أمكنهم ذلك[٢] .

ويمكن أن نقارن هذا الاتجاه بالاتجاه الإسلامى الرشيد فقد روى أن عمر رأى شيخاً يهودياً يسأل الناس . فسأله عمر : ما الذى حملك على السؤال ؟ فأجاب الرجل : الحاجة والسن ، فأخذه عمر بيده وذهب إلى منزله فأعطاه عطاء سخياً ، ثم أرسله إلى خازن بيت المال مع رسالة قال فيها : انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ، إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، وهذا من مساكين أهل الكتاب[٣] .

تلك لمحة يسيرة نحو سياسة المال كما رأتها الأديان والأفكار التى سبقت الإسلام ، وسنبدأ الآن فى التعريف باتجاهات الإسلام الاقتصادية ، وسنرى منها أن الإسلام نظر إلى المال نظرة اجتماعية لم تنس الفرد ، فهو يعترف بالملكية الفردية ولكن على ألا يكون فيها حرمان المجتمع أو إنزال الجور به ، فلنأخذ الآن فيما اتجهنا إليه :

تقديم عن الاتجاه الاقتصادى فى الإسلام :

كما أن للإسلام نظمه الخاصة فى السياسة ، كذلك له نظمه الخاصة فى الاقتصاد ، تلك النظم التى لا تنضوى تحت أىٍّ من النظم الاقتصادية المعروفة .

وهدف النظم الاقتصادية هو أن تخلق بين المسلمين جواً من الحب والتعاون والإيثار ، ووسيلتها لذلك تحقيق العدالة الاجتماعية ، بحيث لا يوجد

(١) اقرأ سفر الخروج الأصحاح الثانى والعشرين الفقرة ٢٥ .

(٢) اقرأ باب « مصادر الفكر اليهودى » بكتاب اليهودية للمؤلف .

(٣) أبو يوسف : الخراج ص ١٥٠ .

جائع يعيش بجوار متخم ، وعارٍ يرى الآخر وهو يرفل فى الحرير والديباج .

ولا يحارب الإسلام الغنى ، ولا يحاول أن ينتقص من ثروة الأغنياء ، ما دام الأغنياء قد حصلوا على المال بطريق مشروع وليس على حساب الآخرين ، ويبيح الإسلام أن يؤخذ عند الضرورة من مال الغَنِىِّ ما يفى بحاجة الفقير أو بحاجة الدولة ، وفى ظل التفكير الإسلامى الاقتصادى طالما اختفى الفقر وتجمعت ثروات طائلة للأغنياء ، حتى كان الغنىُّ يبحث عن من يتسلم منه الزكاة فلا يكاد يجده .

وللإسلام — كما أشرنا من قبل — فى سياسة المال فلسفة خاصة ليست بالرأسمالية ولا بالشيوعية ولا بالاشتراكية الأوربية ، وهاك ملامح هذه الفلسفة :

١ — مبدأ الملكية الفردية :

يُقِرُّ الإسلام حق الملكية الفردية للمال الذى حصل عليه المسلم بالطرق المشروعة ، وقد نَسَبَ القرآنُ الأموالَ للناس فى الآية الكريمة « إنما أموالكم وأولادكم فتنة[١] » وكذلك فى قوله « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار[٢] » .

ويقرُّ الإسلام كذلك التفاوت فى الغنى بقدر الجهد الذى يبذله كل مسلم ، وبقدر التوفيق الذى يصادفه ، وقد ورد القرآن الكريم مقرراً هذا التفاوت ، قال تعالى « والله فضَّل بعضكم على بعض فى الرزق[٣] » وقال « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات[٤] » .

وعلى هـــذا فالإسلام يجيز الملكية الفردية ، ويشمل ذلك ملكية الأراضى الزراعية ، كما يشمل ملكية المتاجر والمصانع ، ويحرس الإسلام

---

(١) سورة التغابن الآية ١٥
(٢) سورة البقرة الآية ٢٧٤
(٣) سوره النحل الآية ٧١
(٤) سورة الزخرف الآية ٣٢

هذه الملكية وينقلها إلى ورثة المالك عن طريق نظام الميراث فى الإسلام ، ولا يجيز الإسلام للحكومة التدخل فى هذه الملكيات إلا إذا تعارضت مع الصالح العام ، ويكون تدخل الحكومة حينئـذ لا بالإلغاء كما تفعل الشيوعية ، بل بالتوفيق بين حق الملكية الفردية الذى أقرّه الإسلام ، وبين المصلحة العامة التى هى أيضاً أساس من أسس التشريع الإسلامى .

ولا نزاع أن التفاوت فى الثروات طبيعى جداً ، لأن الناس متفاوتون فيما هو أفضل من المال وأنفس منه ؛ إنهم متفاوتون فى الصحة ، والقوى العقلية ، والذكاء ، ومتفاوتون فى الجمال ، واللون ، والصوت ، ومتفاوتون فى مقدار توفيقهم فى الزواج ، أو الجوار ، أو الصحبة ، ومتفاوتون فى مدى صلاح الأولاد ونجاحهم ، ولم يقل أحد بوجوب محاربة هذا التفاوت وضرورة أن يصبح الناس سواسية فى صحتهم وعقولهم وأولادهم عدداً ونوعاً وتوفيقاً . . . وغير ذلك . فالنهج الإسلامى فى إباحة التفاوت فى الغنى نهج طبيعى واضح .

٢ – التقريب فى المظهر بين المتفاوتين فى الغنى :

لكلٍّ نصيبُه من الغنى ، ولكن ذا الحظ الأوفر فى المال يجب ألا يتخذ ماله وسيلة للفتنة يُظْهِرُه ويفخر به ، وذا الحظ الأدنى يجب ألا يَظْهَر بمظهر الذِّلة فيضع نفسه بذلك بحيث يحسد الغنيَّ أو يكرهه . ومن أجل تحقيق التقريب المنشود ذمَّ الإسلام الترف وحث الغنيَّ على عدم التظاهر بما أوتيه من مال ، كما حث الإسلامُ قليل المال على حسن المظهر وبخاصة فى المجتمعات . اقرأ هذه الأحاديث التى توجِّهُ الغنيَّ حتى لا يتظاهر بماله فيجعله سبباً للفتنة .

– كل ما شئت ، والبس ما شئت ، ما خطتك اثنتان : سرف ومخيلة .

– لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ولا تشربوا من آنية الذهب والفضة .

– تكون إبل للشياطين وبيوت للشياطين ، فأما إبل الشيطان فقد رأيتها ، يخرج أحدكم بنجيبات معه قد أسمنها فلا يعلو بعيراً منها ، ويمر بأخيه قد انقطع فلا يحمله ، أما بيوت الشياطين فلا أراها إلا هذه الأقفاص التى تستر الناس بالديباح .

واقرأ الآية الكريمة التى تحث على حسن المظهر : « خذوا زينتكم عند كل مسجد[١] » . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : إذا آتاك الله مالا فَلْيُرَ أثرُ نعمته عليك .

٣ – المال مال الله :

يُقِرُّ الإسلام حق الملكية الفردية كما سبق القول ، ولكن المقصود من هذا التعبير هو ملكية الفرد بالنسبة للأفراد الآخرين ، أو قل : ملكية الظاهر ، أو ملكية الانتفاع ، أما المالك الحقيقى لكل شىء ، فهو الله سبحانه وتعالى . قال تعالى : « لله ملك السموات والأرض وما فيهن »[٢] . وقال : « هو الذى أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها[٣] » ويترتب على هذه الفكرة وهى أن المال مال الله ، نتائج ذات بال ، فلا يجوز للغنىّ أن يكنز المال ، بل لابد أن يطلقه للتعامل ، لينتفع به الصانع والعامل والزارع والتاجر ، ولا يجوز أن يستعمله فى رشوة ، ولا أن يسرف فى استعماله ، أو يبخل به على المحتاج ؛ ولا يجوز أن يستعمله فى ربا أو احتكار .

٤ – مبدأ حق الفقير فى مال الغنى :

هذا المبدأ من أهم المبادئ فى التشريع الإسلامى ، ويهمنا أن نبرز فيه كلمة « حق » بمدلولها الكامل ، فالذى يستحقه الفقير أو الدولة فى مال الغنى ليس منحة وليس عطاء وليس تفضلا ، ولكنه حق فإذا نكص

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣١
(٢) سورة هود الآية ٦١
(٣) سورة المائدة الآية ١٢٠

الغنى عن تسليم ذلك الحق ، ألزمه الحاكم بذلك وأرغمه عليه وإن احتاج الأمر للتدخل المسلح والحرب ، وقد روى عن أبى بكر قوله : والله لو منعونى عقال بعير كانوا يعطونها لرسول الله لحاربتهم عليها .

وكلمة « حق » هذه وردت فى القرآن بهذا النص إبرازاً للمعنى الذى شرحناه .

قال تعالى :

– وآتِ ذا القربى حقهُ والمسكينَ وابن السبيل[1] .

– وآتوا حقهُ يومَ حصاده[2] .

– وفى أموالهم حق معلومٌ للسائل والمحرُوم[3] .

وكثير من الناس يظنون أن الزكاة هى الحق الوحيد الذى يجب فى مال الغنى ، ويهمنا أن نوضح قصور هذا الرأى ، ويهمنا أن تذاع الحقيقة فى هذا الموضوع بين الناس ليعرفوا التشريع الإسلامى على وجهه الأكمل ، فالحقيقة أن فى مال الغنى نوعين من الحقوق هما :

(ا) حق محدد ، ثابت ، دائم ، وهو الزكاة ، فهى مقادير محدّدة ، تجب فى وقت معين ، وتدفع فى جميع الظروف ، وهذا الحق هو الحق الأدنى فى مال الغنى .

(ب) حق غير محدد ، وغير ثابت ، وغير دائم ، وذلك القسم هام جداً فى التفكير الإسلامى ، وهو غير محدد أى يزيد وينقص حسب الحاجة وحسب مقدار الثروة ، وغير ثابت أى ليس له وقت معين بل يطلب عند الحاجة ، وغير دائم أى يدفع عند حاجة الناس أو الدولة ويسقط إذا لم تتكرر هذه الحاجة .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٢٦ (٢) سورة الأنعام الآية ١٤١

(٣) سورة الذاريات الآية ١٩ .

وبجانب هذين النوعين الواجبين هناك نوع مندوب وهو نفقة التطوع ، وهو الإعطاء تفضلا مع عدم حاجة المعطَى إليه ، كأن تعطيه مزيداً من الملابس ، أو تحسِّن داره أو مركبه ، أو تزوجه وهو فى غير حاجة ماسة إلى زواج ، أو نحو ذلك من غير الضروريات ، وقد عد الله سبحانه هذا المنح قرضاً له وألزم نفسه بسداده . قال تعالى :

— من ذا الذى يقرضُ اللهَ قرضاً حسناً فيضاعفهُ لهُ أضعافاً كثيرة واللهُ يقبضُ ويبسطُ(١) .

— وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين(٢) .

— إنْ تقرضوا اللهَ قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم(٣) .

وقد اتضح مما سبق أن الإسلام يقرِّر ما يسمَّى الآن الضريبة التصاعدية ، وكذلك ما يسمى العلاوة الاجتماعية ، فكلما زاد الغنَى زادت النسبة الواجب إخراجها من المال ، وكلما كثرت التبعات زاد ما يلزم أن يُعْطَى للمحتاجين(٤) .

الاقتصاد الإسلامى بين المبادئ الاقتصادية الحديثة

قلنا إن للإسلام فى سياسة المال فلسفة خاصة ليست بالشيوعية ، ولا بالرأسمالية ، ولا بالاشتراكية الأوربية ، وقد بَيَّنَّا بإيجاز ملامح الفلسفة الإسلامية ، ونريد أن نعرف هنا مكانها بين مختلف الاتجاهات .

الاقتصاد الإسلامى والشيوعية :

يبعد الاقتصاد الإسلامى عن النظم الشيوعية بعداً واسعاً ، فقد سبق

(١) سورة البقرة الآية ٢٤٥

(٢) سورة سبأ الآية ٣٩ (٣) سورة التغابن الآية ١٧

(٤) انظر تفصيل هذه النقطة فى كتاب « المجتمع الإسلامى » للمؤلف ص ٧٢ — ٧٤

أن قررنا أن الإسلام يقر الملكية الفردية ويقرّ التفاوت فيها ، ويشمل ذلك ملكية الأراضى الزراعية وملكية المتاجر والمصانع ، ولا يجيز الإسلام التدخل فى هذه الملكية إلا إذا تعارضت مع الصالح العام كما سبق ، ويحرس الإسلام هذه الملكية وينقلها لورثة المالك ، والإسلام بذلك يعارض الشيوعية التى لا تدع للإنسان إلا « حق الامتلاك الشخصى للدخل الناتج من عمله ومدخراته ، والمنزل الذى يسكنه بأثاثه وأمتعته ، والأدوات المخصصة لاستعماله الشخصى وتوفير الراحة له ، وحق توريث هذه الملكية الشخصية[1] .

ومن الحق أن نوضح أن الشيوعية أدركت بُعدها عن العقل والمنطق السليم فى ظلمها الاقتصادى ، فأدخَلَتْ ولا تزال تُدخل بعض الأفكار على أسسها ، تحاول بذلك الجمع بين الماركسية التى هى دين الشيوعيين وبين الحكمة وحاجات المجتمع .

الاقتصاد الإسلامى والرأسمالية :

الفرق بين الاقتصاد فى الإسلام والاقتصاد فى النظم الرأسمالية عظيم للغاية ، فمع أن كلاً النظامين يبيح الملكية الفردية والتفاوت فيها ، وإرثها ، إلا أن الهوة بعد ذلك تبدو واسعة بين النظامين ، فالملكية فى النظم الرأسمالية مطلقة لا قيود عليها . ولكن الملكية فى النظام الإسلامى مقيدة ، فلا يجوز للمالك فى النظام الإسلامى أن يحتكر ، أو يسرف ، أو يكنز ، إلى غير ذلك مما سبق إيضاحه لأن المالك الحقيقى هو الله ، وقد حدّد للمالك المؤقت وهو الإنسان طرق الاستعمال ، وهذا بخلاف النظام الرأسمالى ، فللمالك فيه أن يحتكر ويكنز ويسرف وغير ذلك مما هو فى الحقيقة طبيعة الرأسمالية .

ومن طبيعة الرأسمالية كذلك اعتبار الإنسان آلة تتحرك لتجنى الخير لأصحاب رءوس الأموال ، فالعامل عند الرأسماليين جهاز يعمل لهم حتى

---

(١) دستور الجمهوريات السوفيتية .

إذا سقط أو مرض طرحوه ، ولم ينل العمال بعض الحقوق من أصحاب رءوس الأموال إلا بعد جهاد طويل وشاق ، ولم تعترف الرأسمالية بهذه الحقوق إلا بعد ضغط شديد .

والرأسمالية عدوة المجتمعات ؛ فهي لا تفكر إلا فى مضاعفة ثروات أصحابها على حساب المجتمع الذى تعدُّه سوقا لها ، تغريه وتخدعه لتتشرب ثرواته ، وتأخذ دخله بطريق أو بآخر .

« وقد أدركت الرأسمالية كراهية الجماهير لها واحتمال ثورتهم فى وجهها ، فأعدَّت العدة للتضييق على الجماهير وكَبْتِ ثورتهم ؛ وذلك عن طريق اتصالها بسلطان الحكم ، إما بوصول بعض كبار أصحاب رءوس الأموال إلى مناصب الحكم فى الدول الرأسمالية ، وإما بالتأثير فى رجال الحكم بسبب نفوذهم المالى والاقتصادى ، وبذلك خرجت المشاريع الرأسمالية من كونها مشاريع اقتصادية بحتة إلى مشاريع لها أثر واضح قوىٌّ فى الحياة السياسية والدولية ، وبذلك ازدادت سلطة الرأسمالية وأصحاب الأعمال على العمال ، وعلى مختلف الطبقات العاملة ، كما ازداد التنافس والتطاحن بين الدول (١) » .

ومن هنا يتضح أن النظام الرأسمالى لا يعيش إلا فى جو سياسى معين ، أو قُلْ إن هذا النظام يتدخل فى شئون السياسة والحكم ، وذلك أيضاً عنصر آخر يبعده عن النظام الاقتصادى فى الإسلام .

الاقتصاد الإسلامى والاشتراكية الأوربية :

وتختلف اشتراكية الغرب عن اشتراكية الإسلام ؛ فاشتراكية الغرب تقوم على أساس من حرب رأس المال ونضال الطوائف ، أما الاشتراكية الإسلامية فتقوم على أساس التعاون والإخاء .

---

(١) دكتور قهر الدين يونس : الإنسانية ص ٢٤ .

ومن الواضح كذلك أن الاشتراكية الغربية ترمى للقضاء على الثروات الكبيرة ، وتقف موقف العداء من الملكيات العظيمة ، وتحاول أن تفتتها بسبب وبدون سبب ، وليس كذلك الإسلام ، فهو لا يتصدى لحرب مع الملكيات الكبيرة ما دامت هذه الملكيات قد تكوّنت على أساس سليم وما دامت بعد تكوُّنها تابعة لروح الإسلام ، عاملة لخير المجتمع وغير ضارة به ، وإنما ينتفع بها فيما ينفع المجتمع الإسلامى ويعود عليه بالخير . ويضع الإسلام وسيلة هامة يصل بها إلى هدفه الرئيسى وهو إزالة الطبقية الثابتة وعدم تكديس الأموال فى أيد قليلة ، وهذه الوسيلة هى نظام الميراث الذى من طبيعته أن يفتت الثروات .

والاشتراكية الغربية تُكثِر من التأميم ، فتقرب بذلك من الشيوعية التى تعمل على أن تملك الدولة كل شىء ، أما التفكير الإسلامى فإنه يسعى لتوزيع الثروة على الأفراد ، كما يقصد أن تنتقل الثروات بين الناس تبعاً للجهد والتوفيق .

والملكية فى الاشتراكية الغربية ملكية كاملة ، ولكنها فى الإسلام وظيفة اجتماعية ليس غير .

تلك فكرة موجزة عن النظام الاقتصادى فى الإسلام ، ذلك النظام الذى حقق لتابعيه فى الفترات التى اتبع فيها أسمى ألوان النجاح واليمن والبركة .

مجتمع متعاطف

فيما يلى نموذج لحال المجتمع الإسلامى ، وما يجب أن يغمره من حب وتعاطف وتعاون ، وهو نموذج من واقع الحياة ، لا من نسج الخيال ، نموذج للمجتمع الإسلامى فى عهد عمر ، عند ما ألمّت بالمسلمين نازلة ، وحلت بهم كارثة أو كوارث متعددة .

كيف تصرّف الراعى ؟ وكيف تصرّف القادة ؟ وكيف تصرفت الرعية ؟ وكيف كان الإيثارُ ، والتضحية ، والتعاطف ، خُلُقَ هذه الجماعة وهدفها ؟

إننا نقدم بفخر هذا النموذج الرائع ، راجين أن يكون مثلا يحتذى فى عالمنا الإسلامى الحاضر .

حدثت فى عهد عمر حادثة جسيمة ، أو قُلْ أحداث جسام ، تلك هى المجاعة القاسية ، وما جرّته من أوبئة فتاكة ، وموت ذريع ، وقد استمرت هذه الأحداث عدة شهور ، جاوزت العام ، ولكنها كانت وثيقة الدلالة على تعاطف هذا المجتمع ، الذى تكوّن منه جسم واحد ، إذا شكا منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

تسعة شهور تبتدئ من أواخر السنة السابعة عشرة للهجرة ، لم يهطل المطر خلالها فى شبه الجزيرة ، ثم تحركت الطبقات البركانية بداخل الأرض فاحترق سطحها ، وما عليه من نبات ، وكثر الرماد الناعم الذى تحمله الرياح ، حتى سُمِّى هذا العام (عام الرَّمادة) .

والجزيرة العربيـــة تعيش على المطر ، إنه يهطل فيشرب الناس ويزرعون ويحصدون ، وينمو العشب فترعى الماشية ، وتربى اللحم والصوف ، وتدرُّ اللبن ؛ فإذا توقف المطر وطال توقفه إلى هذه المدة ،

جفّ الزرع والضرع ، وعمّ الجوعُ والبلاء ، وهلكت الماشية ، أو أصبحت عجفاء هزيلة ، وهذا ما حصل فى هذا العام ، فإن الماء نضب ، فنضب معين الرزق ، وجفت الماشية ، حتى أصبح العربى يذبح منها ، ثم يعافها لقبحها وهزالها .

وقد شملت هذه البلوى الحضر والبادية فى الجزيرة العربية ، وهرع أهل البادية إلى المدينة حيث يعيش الخليفة يطلبون إليه أن يدبر أمرهم ، ويلتمسون عند أهل الحضر شيئا مما تعوّدوا أن يختزنوه .

وأحسّ عمرُ بجوع الناس وحرمانهم ، فحلف ألاّ يذوق لحما ولا سمنا ، حتى يحيا الناس . ووضع دستوره العادل : « كيف يعنينى شأن الرعية إذا لم يمسنى ما يمسهم ؟ » .

قال عياض : رأيت عمر عام الرمادة ، وهو أسود قد تغير لونه من الحرمان ، وأكل الزيت .

وقال يزيد بن أسلم : لو لم يرفع الله المَحْلَ عام الرمادة لظننا عمر يموت همًّا بأمر المسلمين .

وكتب عمر إلى الوُلاة فى الشام وفلسطين والعراق ، يستنجدهم ويطلب منهم العون . وكانت عبارته لهم قصيرة عميقة التأثير « سلام عليك ، أما بعد ، أفترانى هالكا ومَنْ قِبَلِي ، وتعيش أنت ومَنْ قِبَلَكَ ؟ فياغوثاه ! ياغوثاه ! ياغوثاه ! » . لم يصدر عمر أوامر ، وكل ما فعله هو هذه المقارنة التى تقرِّر ضرورة التعاون فى السرَّاء ، وأن من العدل أن يقتسم الناس الخير والشر ، وليس من الإسلام أن يجوع ناس ويشبع آخرون أويتخمون .

وسارع المسلمون فى كل مكان يلبون دعوة إخوانهم فى الجزيرة العربية ، وانهال العطاء من كل جانب بكثير من السخاء والكرم ، وكان أبوعبيدة بن

الجراح أسرع الأمراء استجابة لنداء عمر ، فقدم من حمص فى أربعة آلاف راحلة محملة طعاما ، وبعث عمرو بن العاص الطعام من فلسطين على الإبل وفى السفن ، وبعث معاوية ثلاثة آلاف بعير من الشام ، وبعث سعد بن أبى وقاص ألف بعير من العراق تحمل الدقيق ، هذا عدا الأكسية الكثيرة التى أرسلها هؤلاء . وكان عمر يرسل مِنْ قِبَلِهِ من يستقبل العير ويميل بها للمحتاجين ، وكان حريصا على أن يسد بها خلة الناس ويزيل عنهم الجوع ، فكان يقول لكل من مندوبيه : أما ما لقيت من الطعام فمِلْ به إلى أهل البادية ، فأما الظروف فاجعلها لحفا يلبسونها ، وأما الإبل فانحرها لهم يأكلون من لحومها ويحزنون من ودكها ، ولا ترض أن يقولوا : ننتظر بها الحيا ، أما الدقيق فيصنعون ويُحْرِزون حتى يأتى الله بالفرج .

وكان عمر يُعِدُّ الطعام فى بيته ويقدمه للوافدين من البادية وغيرهم ممن ليست لهم بيوت بالمدينة ، وقد بلغ من طعموا على موائده ذات ليلة ، عشرةَ آلاف شخص ، وأما المرضى والضعفاء ، فكان يرسل لهم طعامهم حيث هم ، بخلاف أُسَرٍ أخرى بالمدينة كانت تأخذ الدقيق والأدم وتتولى الطبخ بنفسها .

ووضع عمر دستور التعاون الذى لا نعتقد أن المدنيَّة فى أسمى مراحلها تستطيع أن تصل إليه ، قال : لو لم أجد للناس ما يسعهم إلا أن أُدْخِلَ على أهل كل بيت عدَّتهم فيقاسموهم أنصاف بطونهم حتى يأتى الله بالحيا ، فعلتُ ، فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم .

وما إن انتهى هذا القحط ونزل المطر ، حتى روَّعَ المسلمين حادثٌ آخر ، ليس أقل خطرا من الجدب والمجاعة ، ذلك هو الوباء الذى انتشر فى أرض الشام ، وانتقل منها إلى العراق ، وقد حصد هذا الوباء ، عددا كبيرا من المسلمين ، وكان يصيب الرجل فيسقط سريعاً ، وكان أبو عبيدة ابن الجراح عل جند الشام فى ذلك الحين حيث انتشر الوباء واستفحل

خطره ، وأبو عبيدة حبيب إلى نفس عمر ، وهو أمين هذه الأمة كما لقبه الرسول ، وكان عمر يفكر فى أن يستخلف أبا عبيدة بعده ، ومن أجل هذا فكّر فى إبعاده عن الشام وما فيه من وباء وموت .

ولكن عمر كان يدرك أن أبا عبيدة يحرص على أن يبقى مع جنده يصيبه ما يصيبهم أو تحميه عين الله ، ولذلك نجد عمر لا يكتب لأبى عبيدة يعلن له ما يُسِرُّهُ بشأنه ، بل يكتب له : « أما بعد ، فإنى قد عرضَتْ لى إليك حاجة أريد أن أشافهك فيها ، فعزمت عليك إذا نظرت فى كتابى هذا ألا تضعه من يدك حتى تُقْبِل إلىّ » .

ولكن أبا عبيدة يدرك ما أراده عمر ، ويعزُّ على أبى عبيدة أن يخلّىَ جنده فى منطقة الخطر ويفرَّ بنفسه ، فيجيب عمرَ : « إنى قد عرفت حاجتك إلىّ ، وإنى فى جند من المسلمين لا أجد بنفسى رغبة عنهم ، فلست أريد فراقهم حتى يقضى الله فىَّ وفيهم أمره وقضاءه ، فحلّلْنى من عزمتك يا أمير المؤمنين ودعنى فى جندى » وقرأ عمر الكتاب فبكى ، فسأله من معه : هل مات أبو عبيدة ؟ فأجاب : لا وكأن قد . ومات أبو عبيدة عقب ذلك فى وسط جنده وفى وسط البلاء :

* * *

وبعد ، ذلك هو الإسلام الذى جاء بحق ليكون خاتم الأديان ، وجاء رسوله ليكون خاتم الأنبياء ، وقد حمل الإسلامُ بين دفتيه سعادة الدين والدنيا لمن تبعه وسار فى ضوئه ، كما تسربت منه لغير معتنقيه ألوان من المعارف والثقافات والاتجاهات الخلقية لم تكن البشرية تعرفها من قبل ، وقد استطاع هذا الدين أن يحمى نفسه من الترهات والأباطيل خلال القرون الحالكة التى مرت بالمسلمين ، فلما جاء عهد النور خرج للناس بآلائه وصفائه كإشراقة الصبح وبسمة الأمل ، ولا نزاع أن البشرية لن

تجد إلا فى ظلاله سعادتها واستقرارها ، ولا نزاع أنه سيكون دين المستقبل ، لقد انتشر الإسلام فى طول الأرض وعرضها حتى يوم كان المسلمون مغلوبين على أمرهم ، والآن وقد استعاد المسلمون مكانتهم وتحررت بلادهم وعقولهم ، لابد أن زحف الإسلام سيكون أقوى وانتشاره سيكون أشمل ، « إن الدين عند الله الإسلام »(١) .

(١) سورة آل عمران الآية ١٩

الكفة الراجحة

هذا العنوان استعرناه من باحث فى الأديان ، باحث مرَّ بتجربة مهمة يجدر بنا أن نعرضها وأن نتدارسها ، إنها تجربةُ تَحَوُّلِه إلى دين الإسلام ، وهو يصف هذه التجربة أبلغ وصف وأدقَّه ، وبذلك استحق أن نقتبس منه معالم هذه التجربة . لنعرضها لعل فيها هدى ونوراً لبنى الإنسان ، ذلك الباحث اسمه الآن « محمد فؤاد الهاشمى » مؤلف كتاب « الأديان فى كفة الميزان[1] » ، ووصفُه لتجربة تحوُّله إلى الإسلام يدل على هدوء وعلم وعمق ، وربما رأيتُ الآلاف ممن تحولوا إلى ديننا الحنيف ، أو قرأتُ لبعضهم ، ولكن الوصف الذى دوَّنه الأستاذ الهاشمى تحت عنوان « الكفة الراجحة » يفوق كل وصف ، فيه إحاطة ، واتزان ، وعمق ، وفيه دقة فى تصوير الانفعالات النفسية ، فلنفسح هنا المجال لموجز لهذا المقال :

يولد الإنسان على دين آبائه ، ويشب على مبادئهم ، وربما فاقهم فى التطرف والتمسك بالدين ، فإذا شب عن الطوق ، مرت به من حين إلى حين ساعاتٌ من الصفاء الروحى والحياد العقلى[2] ، فيأخذ فى التأمل فيما يدين به ، ومناقشة ما يتلقى من تعاليم ، وكثيراً ما يُسْلِمه هذا إلى الشكوك

---

(١) ص ١٧٨ — ١٨٢ بتصرف

(٢) هذا إذا كان يميل للفكر والبحث ، أما إذا كان بسيطا أو من العامة ظل على التقليد طول عمره ، وفى ذلك السلامة لأمثاله . (شلبى)

والصراع الفكرى ، لما يظنه متناقضات فى معتَقَده ، وهذا يسلمه مرة أخرى للبحث والتنقيب عن الحقائق(١) .

. . . .

وفى غمرة البحث والتنقيب عن أسرار دينه ، قد تطرأ عليه الرغبة الملحة التى تبلغ به حد التطفل ، فيسترق السمع فى غفلة من دينه الذى ولد وشب عليه ، إلى دعوة تدعو إلى دين آخر ، وقد يسرع فيستبعد هذا الفكر الطارئ ، وقد يرحب به ويتوغل فى بحثه ودرسه ، وهو يميل إلى هذا الاتجاه الأخير إذا كان عقله الفطرى قد بلغ غايته من التحرر ، فلم يعد ينظر إلى الأبوة أو البنوة أو العشيرة أو الأموال ، بل تكون هذه كلها قد اضمحلت قيمتها أمام إلحاح الفطرة التى تدفع الناس دفعا قويا للبحث عن الحقيقة .

وكلما كان الدين الجديد واضحاً لاتعقيد فيه ولاتكلف ، وكلما كان متفقاً مع الفطرة التى فطر الله عليها خلقه ، كلما كان التمسك به أقوى ، دون حاجة إلى دعاة يستعملون أساليب الكياسة والفطنة والمنطق الخلاب ليجذبوا لدعوتهم الناس ، لأن الحقائق ليست بضاعة تتعلق بمطالب الجسد ، إنما هى مطلب الروح والعقل ، والروح والعقل يبغيان الحقائق الواضحة التى لا التواء فيها ولا دوران .

وبعد هذا التقديم الذى أوجزناه يقوم الأستاذ محمد فؤاد الهاشمى بوصف حالته وتطبيق هذه الانفعالات على نفسه فيقول :

وقد صادفتنى هذه الحالات ، ودرت فى فلكها ، واصطليت فى أتون الفكر ردحاً من شبابى ، فقد ولدت على دين من أديان أهل الكتاب ،

---

(١) عند ضعف الشخصية واختفاء مظان البحث ، يستسلم بعض الناس فى هذه المرحلة إلى الشكوك وربما يصلون إلى الإلحاد . (شلبى)

ونشأت أقلد أبوىّ وأترسم خطا أجدادى فى أداء الطقوس والشعائر ، حتى بلغت الرشد ونلت حظاً من العلم ووُجهت إلى تعلم أسرار هذا الدين ، لأكون دعامة من دعائم الدعوة له ، وربما قائداً من قادته .

وقادتنى الدراسة إلى إصاخة السمع إلى عدة نداءات وصلت إلى سمعى نتيجة الثغرات التى أوجدتها الريبة والشك فيما لم يستطع العقل قبوله ، وما لم يطمئن إليه الضمير لحظة الطهر الوجدانى ، فكان لتلك النداءات حظ من الإنصات الذى أعقبه التفكير فى الأديان السابقة على دينى ، فكنت كالمستجير من الرمضاء بالنار ، إذ وجدت بعد التمحيص أن أغلال دينى أخف وطأة من قيود ما سبقه من أديان نتيجة الطغيان الكهنوتى والكنسى .

وبعد أن أكملت دراستى — دون أن أصيب ما بحثت عنه — تحولت إلى البحث فى الدين الإسلامى ، وفى هذه المرة لم تكن بغيتى الفرار من دينى ، ولكن كان قصدى من البحث فى الإسلام استخراج العيوب ، وتلمس الأخطاء ، والوقوف على المتناقضات التى أوحى إلىّ بها أساتذتى وأهلى ، ولكن لم أكد أطرق الباب وأمسك بأول الخيط حتى دخلت باب المقارنة بين ذلك الدين وما سبقه من أديان ، ولم أخرج من تلك المقارنة إلا وقد استولى علىّ سحر الحقيقة الناصعة ، والمبادئ الوضاءة ، والتعاليم الصريحة ، التى لا اعوجاج فيها ولا التواء ، ولا سلطان لكاهن ولا طغيان لأحبار .

وجدت لكل سؤال جواباً ، ووجدت فصل الخطاب فيما لم يستطعه أى دين سابق ، سواء كان وضعياً ، أو مبدأ من المبادئ الفلسفية ، أو منحدراً من الأديان السماوية ، وقولى منحدراً يرجع إلى أن رجال الدين خرجوا بالأديان السماوية عما جاءت من أجله ، لقد وجدت أن ما زعموه فى الإسلام عيوباً هو فى الحقيقة مزايا ، وما ظنوه متناقضات هى حِكَم فصلت لأولى الألباب ، وأن ما عابوه على الإسلام كان علاجاً للبشرية التى طالما تردّت فى بيداء الظلمات حتى أخرجها الإسلام إلى النور ، فأخذ الإسلام بلبى وقبض

على لبابتي ، ومن واضح أحكامه ونور تعاليمه وصدق رسالته حُمِلت على الإيمان به والتصديق بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وانقدت إليه دون إكراه أو ضغط أو إغراء ، ولكني آمنت به عن تعقل وتفكر ودراسة وتمحيص ومراجعة ، وبها كلها رجحت كفة الإسلام وشالت كفة سواه « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب[1] » « ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد »[2] .

(١) سورة آل عمران الآية الثانية .
(٢) سورة آل عمران الآية ١٩٤ .

مراجع الكتاب

١ — القرآن الكريم .

٢ — كتب الأحاديث الستة .

٣ — الكتاب المقدس .

٤ — مجموعة من كتب الفقه .

٥ — مجموعة من المجلات العلمية والصحف .

٦ — Encyclopaedia of Religions and Ethics.

٧ — Encyclopaedia of Islam.

٨ — Encyclopaedia Britanica.

٩ — دائرة معارف وجدى .

١٠ — قانون الجمهوريات السوفييتية .

١١ — دكتور إبراهيم بيومى مدكور — تاريخ الفلسفة

١٢ — دكتور أحمد شلبى — التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية (من العرب قبل الإسلام حتى العهد الحاضر فى العالم الإسلامى كله — ثمانية أجزاء)

١٣ — » » » — تاريخ التربية الإسلامية

١٤ — » » » — السياسية والاقتصاد فى التفكير الإسلامى

١٥ — » » » — المجتمع الإسلامى

١٦ — » » » — مقارنة الأديان (اليهودية — المسيحية — أديان الهند الكبرى — ثلاثة أجزاء)

١٧ — المشير أحمد عزت	الدين والعلم
١٨ — الباقلانى	إعجاز القرآن
١٩ — Berry	Religions of the World
٢٠ — البلاذرى	فتوح البلدان
٢١ — Thomas Arnold	Preaching of Islam
٢٢ — Thomas Morga	Books of Governors
٢٣ — ابن تيمية	السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية .
٢٤ — جميل نخله مدور	حضارة الإسلام فى دار السلام
٢٥ — دكتور جورج برست	قاموس الكتاب المقدس
٢٦ — جورجى زيدان	تاريخ التمدن الإسلامى
٢٧ — دكتور حامد الغوابى	الطب الحديث يترسم خطا الإسلام
٢٨ — دكتور حسن إبراهيم ودكتور على إبراهيم	النظم الإسلامية
٢٩ — ابن حزم الأندلسى	المحلى
٣٠ — أبو الحسن الندوى	ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين
٣١ — Dinson	Emotions as the Basis of Civilization
٣٢ — دوايت دونلدش	عقيدة الشيعة
٣٣ — سيد قطب	التصوير الفنى فى القرآن
٣٤ — » »	فى ظلال القرآن
٣٥ — Stanley Lane-Poole	Arabs in Spain
٣٦ — الشريف المرتضى	تنزيه الأنبياء .
٣٧ — الشهرستانى	الملل والنحل

٣٨ — الطبرى	تاريخ الأمم والملوك
٣٩ — الطيب النجار	الموالى فى العصر الأموى
٤٠ — عباس محمود العقاد	الله
٤١ — عباس محمود العقاد	حقائق الإسلام وأباطيل خصومه
٤٢ — » » »	ما يقال عن الإسلام
٤٣ — ابن عبد الحكم	سيرة عمر بن عبد العزيز
٤٤ — عبد الرازق نوفل	القرآن والعلم الحديث
٤٥ — دكتور عبد العزيز إسماعيل	الإسلام والطب الحديث
٤٦ — عفيف طبارة	روح الدين الإسلامى
٤٧ — الغزالى	إحياء علوم الدين
٤٨ — غوستاف لوبون	حضارة الهند
٤٩ — Fage and Roland	A Short History of Africa
٥٠ — المرحوم قاسم أمين	تحرير المرأة
٥١ — » » »	المرأة الجديدة
٥٢ — دكتور قهر الدين يونس	الإنسانية
٥٣ — ابن القيم	زاد المعاد
٥٤ — » »	أعلام الموقعين
٥٥ — Kirk	A Short History of the Middle East
٥٦ — ابن الكلبى	كتاب الأصنام
٥٧ — كمال أحمد عون	المرأة فى الإسلام
٥٨ — الماوردى	الأحكام السلطانية
٥٩ — المبرد	الكامل فى اللغة والأدب

٦٠	الشيخ محمد بخيت	حقيقة الإسلام وأصول الحكم
٦١	دكتور محمد حسين هيكل	حياة محمد
٦٢	محمد شفيق (باشا)	الرق فى الإسلام
٦٣	السيد محمد صادق الصدر	الشيعة
٦٤	محمد صادق الرافعى	إعجاز القرآن
٦٥	الإمام محمد عبده	رسالة التوحيد
٦٦	الإمام محمد عبده	الإسلام والتصرانية مع العلم والمدنية
٦٧	M Olive	تاريخ الصين القديم
٦٨	مولانا محمد على	Early Caliphate
٦٩	» » »	The Religion of Islam
٧٠	الدكتور محمد عبد الله دراز	الدين
٧١	» » » »	النبأ العظيم
٧٢	محمد عبد الغنى حسن	مجازات القرآن
٧٣	الشيخ محمد الغزالى	خلق المسلم
٧٤	محمد فؤاد الهاشمى	الأديان فى كفة الميزان
٧٥	الأستاذ الأكبر محمود شلتوت	الإسلام عقيدة وشريعة
٧٦	» » » »	الفتاوى
٧٧	» » » »	من توجيهات الإسلام
٧٨	» » » »	منهج القرآن فى بناء المجتمع
٧٩	I .A. Hadfield	Psychology and Ethics
٨٠	Harry, W. Hazard	Atlas of Islamic History
٨١	ابن هشام	السيرة

٨٢ —	هوبير ديشان	الديانات فى أفريقيا السوداء (مترجم عن الفرنسية)
— ٨٣	Isle Lictenstadter	Islam and Modern Age
— ٨٤	Khuda Bakhsh	An Introduction of the Islamic civilization.
— ٨٥	F. Hitti	History of the Arabs
— ٨٦	Weith-Knadsen	Feminism
— ٨٧	Wells	A Short History of the World
— ٨٨	William Patoun	Great Religions of the World

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٦٥